هذه وصيّتي

الطبعة الاولى - حزيران (يونيو) ١٩٧٨

الكتاب اعده المؤلف اصلا باللغة الفرنسية . ونقله الى العربية قسم الترجمة في مؤسسة « الوطن العربي » للطباعة والنشر باتفاق خاص مع الناشر الفرنسي « ستوك » باريس .

مقدّمة

(١)

بهذا الكتاب تبدأ مؤسسة «الوطن العربي» نشاطها في مجال النشر، مساهمة منها الى جانب دورها الصحفي والاعلامي، في مختلف ميادين الفكر السياسي والاجتماعي والثقافي.

ولم يعد سرا وفقا لاحدث الاحصاءات التي تنشرها هيئة اليونسكو دوريا، ان «الكتاب» لا يزال يحتل موقع الصدارة في عالمنا المعاصر، رغم انتشار الاجهزة المرئية والمسموعة، ورغم انصراف المجتمع الاستهلاكي نسبيا عن عادة القراءة المتأنية ، ولكن الكتاب يبقى - كما يقول المحللون المتخصصون للاحصائيات - هو الصديق الحميم للفرد بشكل عام، وهو الرفيق الاكثر وفاء للمثقفين... الذين تزداد نسبتهم في العالم الحديث مع اطراد التقدم في العلوم المختلفة ومناهجها وتعقد الظواهر التي تحتاج الى اكتشاف قوانينها ووسائل التعرف عليها ونتائج شيوعها او انحسارها.

واذا كان الكتاب يشكل هذه القيمة المستقرة في العقل والوجدان الانساني المعاصر، فان له قيمة استثنائية بالنسبة للعالم الثالث ووطننا العربي على وجه الخصوص.. فرغم الامية الواسعة الانتشار، ورغم اليسر الذي تتيحه اجهزة الاعلام الحديثة كالاذاعة والتلفزيون والسينما، فان دور الكتاب العربي، يبقى في طليعة ادوات التنوير والوعي ودرء التخلف.

ان وطننا من ناحية ليس معزولا عن روح العصر، ومن ناحية اخرى له خصائصه النوعية المستقلة التي تحتاج الى طول التأمل وامعان الفكر... وهو الامر الذي لا يتيسر الا عبر الكتاب المؤلف والمترجم، العلمي والادبي، الاكاديمي والمبسط. اننا بذلك نغزو «أمية المتعلمين» التي هي اكثر خطرا من الأمية الابجدية، والتي هي في الحقيقة اخطر معالم التخلف... فأمية الالف باء تحتاج الى ثورة، اما الأمية بين الذين يقرأون ويكتبون فتحتاج الى ثورة ثقافية.

(٢)

وقد رأت مؤسسة «الوطن العربي» ان تساهم في هذا السياق، لا بمجلتها التي تخاطب القارىء العام اسبوعيا فقط، بل بدار النشر التابعة لها ايضا... وهي الدار التي ستكرس نشاطها في كل ما يعني المواطن العربي المعاصر من هموم. وبالتالي فهي لن تخاطب القارىء المتخصص وحده بل كافة مستويات المعرفة. كما انها لن تتخصص في نوع محدد من الكتب ، بل في مختلف حقول العلم والثقافة. هدفها من ذلك ربط المواطن برياح العصر والتغيير من خلال «الارض» التي يقف عليها، فلا تصبح المعرفة في حياته ديكورا زاهي الالوان، ولا تصبح الثقافة ترديدا دوغمائيا لشعارات مجففة فاتها قطار الزمن.

ان كثيرا من الموضوعات التي لا يتاح لها التفصيل الدقيق في منبر اسبوعي، وكثيرا من القضايا التي لا يتسع لها المجال للتحليل العميق في الصحافة.. تحتاج اكثر من غيرها ان تصل الى القارىء عبر الكتاب.. كما ان قليلا من الموضوعات والاعمال التي تنشرها المجلة او الصحيفة بشكل دوري مسلسل الحلقات، تحتاج بدورها الى اعادة النشر بين دفتي كتاب... فالعديد من القراء لا يحبون المسلسلات ويفضلون قراءتها دفعة واحدة. والبعض منهم تفوته حلقة او اخرى. والبعض الثالث يتابع النشر الاسبوعي دون ان يجمع ما سبق نشره في مجلد واحد. والبعض الاخير يجمع ويجمع ممنيا النفس بقراءة ما جمع، ثم تدركه دوامة الحياة وتفرقه في هموم اخرى فيؤجل... الى اجل غير مسمى. من هنا كان التفكير في نشر اكثر الاعمال اهمية مما سبق نشره في «الوطن العربي» تعميما للفائدة وتوثيقا للمعرفة.

(٣)

وتجيء مذكرات القائد العربي الشهيد كمال جنبلاط في طليعة الاعمال التي بادرنا باصدارها في هذا الكتاب، باكورة النشر في مؤسسة «الوطن العربي» . ولعلها من المصادفات الفاجعة ان يصدر هذا الكتاب في الذكرى الأولى لرحيل «المعلم» وفي وقت تعصف الانواء بلبنان والمقاومة الفلسطينية كأشد ما تكون العواصف.

لقد كان العام الذي مضى على غياب جنبلاط مليئا بالاحداث المروعة التي لم يشهد لها التاريخ العربي الحديث مثيلا. كما كان هذا العام تحقيقا للنبوءات التي وردت في مذكرات الزعيم البطل. وكأنه رأى ببصيرته الثاقبة من جدار المجهول كل ما يحمله الغيب من مآسي. ان البراهين اليومية على صدق وشفافية الرؤى الجنبلاطية، تقدم دليلا دامغا على صواب خطاه في الماضي.

وهكذا يجيء صدور هذا الكتاب كما لو كنا نريد الاحتفال بصاحبه على نحو جديد... هو اهداء «وصيته» الى الاجيال المقبلة من المناضلين. فما احوجنا حقا للاحتفال بذكرى الشهيد كمال جنبلاط، في هذه اللحظات المصيرية التي تجتازها أمتنا... فالحق ان الرجل العظيم لا يحتاج منا الى الاحتفال به، بل نحن الذين نحتاج الى وقفة تأمل عميقة في رحاب المفكر والقائد المناضل كمال جنبلاط.

انه لا يحتاج للاحتفال بذكراه لأن افكاره واعماله تترسخ في الواقع الحي لشعبنا في لبنان وفي وجدان الامة العربية باسرها، يوما بعد يوم.. افكاره تتحول في ضمائر الاجيال الى ارادات صاعدة النمو، وعلى جبين الطبقات الوطنية والتقدمية تتجسد في رؤى للمستقبل، اما نبوءاته التي طالعتنا في مذكراته، فانها تتحول الى حقائق .

لماذا ؟

لان كمال جنبلاط كان وسيظل في مخيلتنا دائماً نموذجا للوحدة بين الفكر والسلوك .. لقد ضرب في حياته وموته مثلاً فذاً على « المثقف » الذي يفكر وفقا لسلوكه ، ويسلك تبعاً لتفكيره دون انفصام أو ازدواج في الشخصية ، هذا المرض النفسي الشهير عند المثقفين العرب .

ولانه ، وهو المثقف الكبير ، لم ينعزل قط في برج من العاج .. رغم يسر الحياة التي كان يمكن أن يعيشها ، ورغم المعاناة الروحية التي أخذ نفسه بها فنهل من معين الفلسفات الصوفية ، وتجرد في حياته الشخصية من زخارف الحياة المادية . ولكنه أبداً لم يعزل نفسه في صومعة عن ضجيج الواقع اليومي للشعب ، بل كان احدى نسمات هذا «الضجيج » الذي يتنفسه الناس في الشهيق والزفير .

ولانه ، وهو زعيم احدى الطوائف ذات التقاليد العريقة ، لم يعتمد مطلقا المعادلة الطائفية التي تحكم لبنان ، بل كان ككبار القادة التاريخيين في حياة الانسانية، متجاوزاً الاعتبارات الطائفية والطبقية ، منتميا في عمق الاعماق الى « الوطن » و «الامة» . وفي الوطن كان ولاؤه الاكبر لأعرض قطاعات المجتمع اللبناني من الجماهير المحرومة ، وبالتالي لمصالحها المشروعة في الديموقراطية والعلمنة والعدل الاجتماعي . وفي « الامة » كان ولاؤه الاكبر لاكثر الاتجاهات أصالة ومعاصرة ، فلم يدخل طرفا في معادلة الانظمة العربية ، بل كان شغله الشاغل هو الارتباط بالقوى السياسية والاجتماعية المناضلة من أجل فلسطين وتحرير الاراضي العربية وإقامة المجتمع الاشتراكي الديموقراطي . وفي ضوء ولائه للوطن اللبناني والامة العربية كانت تحالفاته الاستراتيجية الثابتة مع حركة التحرر في العالم الثالث والاسرة الاشتراكية .

في ضوء هذه النقاط الثلاث الرئيسية في شخصية كمال جنبلاط نستطيع القول بأنه كان الزعيم الشعبي الوحيد في العالم العربي خلال المرحلة التاريخية المعاصرة الذي لم يعتمد على «السلطة» في قيادة الشعب، كما كان في الوقت نفسه المفكر الخلاق الذي توصل بابداعه السياسي - وهو رجل الحوار الديموقراطي السلمي - الى قيادة الحوار المسلح ضد «الحرب الوقائية» التي شنتها قوى اليمين اللبناني والعربي واسرائيل والغرب الاستعماري وفي مقدمته الولايات المتحدة الاميركية. كما توصل هذا الابداع السياسي الى حد التحالف العضوي مع الثورة الفلسطينية، فأرسى بذلك معالم الاستراتيجية الصحيحة للثورة العربية كلها، حيث جسد في الواقع لا في الفكر المجرد، وخلال فترة تاريخية حاسمة (من ١٩٧٥ الى ١٩٧٦) معادلة التغيير التالية: الثورة المضادة المصرية واللبنانية والعربية والعالمية، تدعمها الصهيونية وكيانها، قد تحالفت صفا واحدا ضد الشعب المصري والشعب الفلسطيني والشعب اللبناني، فشنت حربها العدوانية على العرب في لبنان. ولم تكن مصادفة قط ان يتطابق

التوقيت بين اتفاقية سيناء وبدء الحرب الاهلية... اذ كان المطلوب وفقا للاستراتيجية الاميركية الاسرائيلية بعد حرب اكتوبر المجهضة، هو التمهيد للصلح النهائي مع .. «اسرائيل» بالقضاء على الثورة الفلسطينية، والتمهيد كذلك لعودة العرب وفي مقدمتهم مصر الى فلك النفوذ الامبريالي والخروج تماما من حركة التحرر. من هنا كان «لبنان» ميدانا مثاليا لتنفيذ المؤامرة، فهو يجمع بين الحدود الدنيا للديموقراطية التي تسمح بفضحها والحدود القصوى لاحتمالات الانفجار الاجتماعي. ومن ناحية اخرى فهو القلعة الاخيرة للمقاومة الفلسطينية.

هذه المعطيات ابصرها جنبلاط بنفاذ وعمق. وهكذا قادته الشفافية والارتباط الحميم باهداف عمره، الى نوع من الخلق الثوري والابداع الوطني والحس القومي، فكان التجمع الديموقراطي للحركة الوطنية اللبنانية، وكانت الانتفاضة الشعبية المسلحة الأولى في تاريخ العرب الحديث، وكان التحالف التنظيمي والسياسي والعسكري مع فصائل المقاومة الفلسطينية، وكانت الحرب... دفاعا عن العرب جميعا، وعن الشعبين اللبناني والفلسطيني على وجه الخصوص، عن التراب القومي والارض الوطنية معا، عن التقدم الاجتماعي والديموقراطية الحقيقية والتحرر من براثن الاحتلال الصهيوني.

.. وسيقول التاريخ كلاما كثيرا عن كمال جنبلاط والحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، ولكنه سيبرز من بين هذا الكلام الكثير سطورا مضيئة للاجيال القادمة عن ذلك الدور الخلاق والابداع الثوري الذي قام به شهيدنا العظيم في تلك المرحلة الاستثنائية، حيث قاوم ورفاقه في ظروف غير مواتية بالحسابات الالكترونية، مقاومة اسطورية، قوى اكبر واعتى بكافة المقاييس.

ولم يهزم كمال جنبلاط، فرحيله الفاجع والمفاجىء، لم يحل مشكلة واحدة لاطراف المؤامرة التي مضت حتى نهاية الشوط، حتى زيارة اسرائيل، وحتى العدوان على بلد صديق كقبرص، وحتى استنكار العمل البطولي للشهداء الاحدى عشر الذين ضحوا بأرواحهم في عملية تل ابيب الاخيرة.

لم يهزم جنبلاط، ولذلك اقول ما احوجنا نحن - لا هو -

للاحتفال به، أي ما احوجنا الى مواصلة مقاومته البطولية، واستلهام خطاه البصيرة في النضال.

ما احوجنا الى صفاته النادرة فلا نكون مزدوجي الفكر والسلوك، وما احوجنا الى ترك الابراج العاجية والالتحام العضوي بقضايا شعبنا، وما احوجنا الى هجر الاعتبارات المفتعلة والمعادلات المزيفة والتوازنات الخاطئة.. لأن جبهة العدو اصبحت اكثر طولا وعرضا وقوة وتماسكا اكثر من اي وقت مضى، رغم المأزق الحقيقي الذي يحاصرها: المصير الفلسطيني. انها في مغامرة مجنونة تحتل جنوب لبنان وتسفح الدماء بلا تبصر، وتدعو علانية الى حزام امن لبناني يميني يحمي حدودها الشمالية. وكأنها ترد، بعد طول تردد، على كمال جنبلاط.

ولكنها في الواقع تحقق نبوءاته كلها، فقد اكد المرة تلو المرة ان التحالف الاسرائيلي الماروني العربي، ايضا، لن يتوقف عن محاولة التهام الوطن الصغير، وتصفية الشعب الفلسطيني.

فماذا يكون احتفالنا بكمال جنبلاط، اذا لم يكن ردا مباشرا على هذا التحالف غير المقدس... متجاوزين الاعتبارات القطرية والحساسيات الاقليمية وحتى الحزازات الشخصية، لنصبح في مستوى التاريخ.

ماذا ننتظر، اذا كان اليوم جنوب لبنان وشعب فلسطين، وبالامس مصر دون الحاجة الى قتال، وغدا لا يدري احد من يكون عليه الدور؟

ماذا ننتظر، ولم تعد البيانات والشعارات والصرخات الحماسية الا تبريرا يضاف الى خزينة العدو، ولم يعد الصمت الا رصيدا يضاف الى رقم حسابه في بنك الغزو والتوسع؟

اننا، احوج ما نكون الى كل دقيقة، واقعا لا مجازا، لنستخلص من سيرة كمال جنبلاط وفي ضوء المتغيرات اللاهثة من حولنا بعض الدروس العاجلة:

● اولها تلك «العقلية الاستراتيجية» التي لا تضيع في التفاصيل، بل تركز على كل ما هو جوهري... فمثلا ان مبادرة السادات عمل خطير ولكن الاخطر هو المنهج الساداتي ذاته الذي قاد ضمن ما قاد اليه الى المبادرة المذكورة. وهو المنهج غير المقتصر على نظام السادات.

● من شأن هذه العقلية الاستراتيجية ان تقودنا الى الحسم في تحديد اطراف التحالف واطراف العداء، دون مواربة او مناورة،

حتى لا نهدر الوقت في ما يفيد جبهة العدو. وفي المقابل تحديد الجبهة او الجبهات الوطنية الديموقراطية القادرة بدورها على تحديد الحدود الدنيا لبرنامج عمل نضالي حقيقي.

● ان بناء هذه الجبهة او الجبهات بالحوار الديموقراطي الواسع هو صمام الامن الوحيد الذي يحول دون انهيارها او تفككها وانحلالها .

● ان الاستفادة القصوى من الثغرات الواضحة في صفوف القوى المحافظة - العربية او الغربية - من الحقائق والمعطيات الواجب التنبه لها، ولكن دون ان يسقط التكتيك المبتكر في هاوية رد الفعل.. فالاهم من سلبيات الجبهة العدوة هو تنظيم قوانا الذاتية وبلورة وعيها وشحذ اسلحة نضالها، كل اسلحتها بدءا من العمل الديموقراطي السلمي وانتهاء بالسلاح العسكري.

● ان استعادة زمام المبادرة ضرورة لا تحتمل التأجيل في مواجهة قوى الردة والعدوان، وذلك بالتزام اقصى درجات الحذر واليقظة والانتباه والتخطيط لكافة الاحتمالات والقدرة على التصدي عند وقوع الحدث، والخروج من خندق الدفاع الى خطوط امامية للهجوم.

● ان المزيد من التلاحم مع الحركة الشعبية بقواها الاجتماعية والسياسية والفكرية، هو القاعدة الصلبة لاي تحرك نضالي فعال وحاسم... على ان تكون الديموقراطية، كل الديموقراطية، للجماهير الوطنية والتقدمية. وقد برهنت الاحداث على ان هذه الديموقراطية تدعم بالضرورة التيار الاكثر تقدما... لذلك، وفي لحظات الحسم، يتوارى دعاة الليبرالية المزيفة وراء متاريس الفاشية العنصرية، كما يتوارى دعاة الديموقراطية المؤممة لمصلحتهم الضيقة خلف الشعارات المجففة والخالية حقا من دماء الحرية، اذ سرعان ما تفضحها المفاوضات السلمية مع العدو والمداخلات العسكرية مع الشعب .

هذا كله قليل من كثير تمنحنا اياه التجربة اللبنانية الفذة في تاريخنا العربي المعاصر في شخص قائدها الخلاق كمال جنبلاط.

وليد ابو ظهر

باريس - ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٧٨

المؤامـرة

حيكت المؤامرة على لبنان . منذ العام ١٩٦٧ . ففي ذلك الوقت كان المصريون والسوريون قد خسروا الحرب . فظن من نسميهم هنا بالانعزاليين . اي المتطرفين الموارنة . بأن لحظة رفع الرأس قد واتى اجلها وآن أوان انشاء لبنان لبناني منفصل عن العالم العربي . وهكذا فقد جرى تنظيم اجتماع دعي اليه مثقفون ورهبان وممثلون عن الرابطة المارونية . وسياسيون وشخصيات . بالاضافة الى رؤساء الجمهوريات السابقين كشمعون واضرابه . والى نواب وصحفيين . وكان هدف هذا الاجتماع هو تحليل حوادث عام ١٩٦٧ ونتائجها بغرض تحديد خط سلوك جديد يأخذ بعين الاعتبار واقعة بروز اسرائيل بعد هذه الحرب كأقوى دولة في هذا الجزء من الشرق الاوسط . وكانت الهزيمة تقلص من مخاطر حدوث ردة فعل عربية . وسورية بوجه خاص . معادية لنمو الانعزالية في لبنان . كان عبد الناصر قد تلقى هزيمة سياسية وعسكرية بحيث اصاب الشحوب صورته كداعية لفكرة الامة العربية . وكرمز لحلم القومية والوحدة العربية . فقد كان عبد الناصر يمثل - ولا يزال - رئيسا وقائدا اسطوريا يجسد فكرة الصراع من اجل التحرر الوطني والاجتماعي لدى الجماهير العربية التي طال قهرها واحتباسها تحت الاحتلال العثماني والاستعمار او الانتداب الفرنسي والانجليزي . وان كان الانتداب الفرنسي اقل قمعا وقهرا من نظيره الآخر بالنسبة الى بعض بلدان المشرق . وكان تقدير الانعزاليين ان الساعة قد ازفت للتخلص من التيار القومي العربي الذي لم يقبلوا به الا كحل اخير او كتسوية في العام ١٩٤٣ . أبان الصراع من اجل استقلال لبنان - ولزيادة تأكيد الطابع الخاص بلبنان . كبلد لا صفة له ولا ولاء يربطه . الا ذلك الذي يصل بينه وبين ارضه وحدها . كانت احداث الفترة الممتدة بين ١٨٤١ - ١٨٦٠ الخطوة الاولى على طريق هذا الاستقلال الذاتي الذي اراده هؤلاء الانعزاليون استقلالا يزداد تمايزه في وجه العالم العربي - الاسلامي . فالافكار والمفاهيم . تختلط على الانعزاليين (من كتائب وسواهم) بهذا الصدد بحيث أن العربي عندهم هو المسلم . فأما السوري فهو العدو بخاصة . واما الناصرية فأنها تمثل دينامية القومية العربية الظافرة .

وقد بدأت الكتائب (تنظيم الشبيبة الفاشية في الحركة الانعزالية) بالتسلح جديا في حدود العام ١٩٦٩ . وتفيد معلوماتنا انهم كانوا يملكون في تلك الفترة . القريبة من اندلاع احداث ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ما بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ رجل مدرب ومسلح . وبضع مئات من البنادق الرشاشة . ومدافع وهاونات من مختلف الانواع .

غير ان حرب رمضان . او حرب يوم الغفران التي وقعت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ دفعتهم الى التروي . ذلك أنه على الرغم من الاخفاقات المحدودة (كالتراجع البسيط في جبهة الجولان . والثغرة الاسرائيلية في الدفرسوار) فأنه جرى كذلك احتلال خاطف لخط الدفاع الاسرائيلي : خط بارليف . كما ان المصريين والسوريين قد احسنوا القتال . واذاً فأن المعنويات كانت عالية نسبيا . كما كانت الحرب انتصارا معنويا حقيقيا للعرب الذين يعتقدون بأنه لولا المعونة الاميركية الضخمة التي

نالتها اسرائيل . فانها كانت ستمنى بهزيمة ساحقة . فقد نشرت سوريا على الخصوص قوة مسلحة كبرى ، ٢٠٠٠ دبابة رقم لا تقوى على تصوره مخيلة اولئك الذين يخشون سوريا ويخافون نفوذها في لبنان . ويرتاعون من التوسعية السورية . ع:نا بهم الانعزاليين . وقد افزعهم التحالف السوري المصري الجديد الذي رسخه الكفاح المشترك : ذلك ان سوريا بدأت تبدو لهؤلاء اللبنانيين المعادين للعرب «كدولة عظمى» صغيرة بحيث ان هزيمة عام ١٩٦٧ طويت في ملف النسيان .

وكان لا بد من تدارك ماكان الانعزاليون يسمونه «الخطر السوري» (والذي كانت صحيفة «النهار» في تلك الحقبة تردد اصداءه) . ومن هنا . فقد عقد اجتماع جديد شارك فيه الرئيس شارل حلو . ذلك الرجل الذي لم يسلم . على الرغم من سعة ثقافته . من التشويش والغموض . ولست أدري ما الذي جذبه . وهو الرجل المثقف الذي يدعي لنفسه سعة الرؤيا . الى هذا المعمعان الجديد ، ألا انه لا بد من محاذرة المثقفين الخُلّص ابدا . ألعل عملية التهجين العربية - اللبنانية لم تكتمل فيه ولم تتجسد كفكرة دافعة . فالمثقف هو دائماً عرضة للخوف ، وكثير من المثقفين الموارنة اودى بهم هذا الخوف . او هذا التطير الخادع الذي لا محل له والذي لا ينفك عن الانتشار . فقد انتهى بهم الامر الى ان اصبحوا اعداء كل تطور على الصعيد القومي والاجتماعي والاقتصادي . وضللتهم المفاهيم الخاطئة او المشوهة عن الاسلام والعروبة . بحيث جرفهم التيار الغالب معه .

واذاً . فقد صار اتخاذ قرار بشأن المؤامرة يزداد اقناعا وتوجها نحو الحسم . في هذه الاجتماعات المتكررة التي كان يعقدها اولئك الاشخاص الذين يمثلون سلطة التقرير لدى غلاة المارونية . رجال الغرفة السرية السوداء . انهم اشخاص معروفون ورسميون يسكنهم ذلك الضرب من اليسوعية التي عفا عليها الزمن . او من ماسونية الظل المزيفة . وكان قد سبقت ذلك اتصالات مع اسرائيل والاميركيين واوروبا جرت في خلالها محادثات في جو من السرية المطلقة وتقرر فيها ان العرب باتوا أكثر قوة . ولذلك فأنه لا بد من تدعيم الجيش اللبناني وتزويده بأسلحة جديدة ، اي «بما يكفي للصمود امام غزو سوري بضعة ايام» ، الوقت الضروري الكافي لحضور فرق نجدة من الولايات المتحدة او من الغرب . هذا مع أن الانعزاليين كانوا يعارضون دائما وابدا تدعيم الجيش اللبناني بالسلاح وتعزيزه بالرجال والذخائر . وكنتيجة لهذا القرار . فقد جرى تقديم طلبات اسلحة وذخائر الى الولايات المتحدة وفرنسا والبلدان العربية بذريعة كاذبة تقول ان على الجيش اللبناني ان يواجه تهديدات وغارات اسرائيل على طول حدودنا الجنوبية . فهل كان ثمة تفاهم وتواطؤ ؟ ان الصحافة كانت تظهر الهجمات الاسرائيلية وتبرزها فيندلع الشعور الوطني . ذلك انه لا يزال من اليسير خلق حماس شعبي مصطنع باستخدام انباء وشؤون اسرائيل . وفي ذلك تلاعب بالرأي العام شبيه بما كان في قضية دريفوس .

واذاً فأن الدولة اللبنانية طلبت حينذاك معونة الدول العربية فأجابتها

الى طلبها · و لا بد من القول ان الصحافة اللبنانية ربما كانت الصحافة القيّمة الوحيدة في العالم العربي · ولذا . فأنها انتشرت فيه انتشار نقطة الزيت على سطح الماء · ومرد هذه الاستجابة العربية كذلك . هو سذاجة وبساطة طوية السياسيين العرب الذين لا يفهمون شيئاً في «الشأن اللبناني» وفي ازدواجية ومناورات الانعزاليين · ولطالما غشي على العروبة اللاعقلانية من قبل اسطورتها هي ذاتها · ثم انه غالبا ما يكون الاسلام السياسي قليل الاطلاع . فتكون ردة فعله ـ وهو الرحمن الحليم ـ سريعة عجولة · وهكذا . فقد أرسلت اسلحة وذخائر من قبل العربية السعودية ومصر وليبيا ومن كل مكان تقريبا · ثم استكملت هذه الترسانة الجديدة بهدايا اميركية ومشتريات فرنسية · وقد ظلت هذه الامدادات تتدفق الى حين اندلاع الاحداث في العام ١٩٧٥ ·

وفي خلال هذه الحقبة الممتدة بين ١٩٦٩ و ١٩٧٠ اطلع رئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية على قرارات هذا المجتمع السري . مجمع كفور ما قبل الكفور . وكسليك ما قبل الكسليك · فلقد طالما عشنا رهينة القرارات التي تستخلصها . بهذا الحد او ذاك . هذه الغرفة السرية السوداء ، واذا فان سليمان فرنجية أعلم بهذه القرارات . ولعله شارك هو نفسه فيها يخالجه الشعور ذاته الذي يخالج الاخرين اي ما مؤداه ، ان المهم ـ ولنكرر ذلك مرة اخرى ـ هو تعزيز الجيش اللبناني لكي يتمكن من احتواء الصدمة الاولى مع سوريا فيقاوم بضعة ايام بل بضع ساعات ، بانتظار نتيجة الاستغاثة باوروبا و «بفرنسا الحبيبة» وبالولايات المتحدة والامم المتحدة . شأن ما فعل الرئيس السابق شمعون تقريبا ابان احداث عام ١٩٥٨ ·

ولم يكن السوريون في تلك الحقبة ينوون مهاجمة لبنان او احتلاله مطلقا . غير ان الخوف خلاق اوهام . وكان القوم في مسيس الحاجة الى ايجاد بواعث لهذه الدعوة الدائمة الى الخوف · وتلك دائرة مفرغة · وكان لا بد كذلك من ايجاد بعض الاسباب لتبرير التضخم المفاجيء في التجهيز العسكري لدى الكتائب . تلك الافواج المارونية . ولدى «نمور» شمعون ·

ذلك ان سليمان فرنجية كان يقوم ـ بموازاة ـ ذلك بتشجيع سُعار التسلح لدى الشريحة المارونية . كما اعترف بذلك امام عدد من زواره . وكان يقول **«لقد اعطيت الضوء الاخضر للعماد قائد الجيش (المعقد اسكندر غانم) لشراء السلاح وتمريره الى الكتائب وحلفائهم»** ·
وهكذا فان قسما مهماً من امدادات السلاح والذخائر قد سلم بصور سرية الى الكتائب على حساب الجيش ·

ومن جهة اخرى . فأن من المؤكد ان اسرائيل لم تكن تنوي جديا مهاجمة لبنان على الرغم من مطامعها الاقليمية في جنوب بلادنا · بل على العكس من ذلك . فقد كان تقديرها (كما اثبتت الحوادث ذلك فيما بعد) ان لبنان هو شقيق توأم ، فهو يمثل بشكل أخر الانموذج نفسه من الدولة التي تتبع سياسة تمييز عنصري ثم تلبسها بمظاهر الديموقراطية · ومن هنا كان هذا التحالف التاريخي بين الاقلية المسيحية في لبنان وبين الاقلية اليهودية ضد العالم العربي ـ الاسلامي · ومن هنا فقد جرت اتصالات اوثق ، مباشرة وغير مباشرة . بين الانعزاليين والاسرائيليين · كما جرت اتصالات اكثر تكتما مع الولايات المتحدة وفرنسا واوروبا ـ ولا سيما مع

المانيا الاتحادية التي يبدو انها لعبت دوراً مهما في القضية اللبنانية . ربما بسبب كاثوليكية قادتها · ،كانت هذه باكورة نذر المؤامرة

وهكذا . فقد اقام الكتائبيون معسكرات تدريبهم في مختلف مناطق البلاد تقريبا وتحت سمع وبصر السلطات العامة · لا بل ان بعض الضباط فصلوا من الجيش (انتدبوا) للمشاركة في التدريب ثم راح شمعون وبقية الزمر . ورئيس الجمهورية وابنه طوني ينسجون على المنوال ذاته ويدربون رجالهم · كانت عملية تحضير حقيقية للقتال · وكان هناك في الوقت ذاته عدد من الموفدين ـ هم في الغالب بيار الجميل رئيس الكتائب، . وكميل شمعون نفسيهما ـ يجوب العواصم العربية لتهدئة خواطرها وتزويدها بالانباء الكاذبة بهدف عدم اثارة شكوكها ... وكانوا يتوجهون الى كل واحد من القادة العرب بصورة مختلفة ووفقا لمشاربه وامانيه ومخاوفه · وقد اشترى الجيش الكميات الاولى من الاسلحة المخصصة للكتائب وشركاهم مر بلغاريا ثم تبعت ذلك اتصالات بدول شرقية اخرى · ولما كان لا بد مر تمويه الانتفاضة التي يجري التحضير لها . فأن وكالة المخابرات المركزية الاميركية (السي · أي · اي) التي تحوز على كمية وافرة من السلاح والذخائر المصنوعة في اوروبا الشرقية . راحت تقدم الباقي · **ووفقا لمعلومات بعض الدبلوماسيين العاملين في بيروت فأنه جرى تخصيص ٢٥٠ مليون دولار اميركي لاثارة الاضطرابات في لبنان · اذ يبدو ان الادارة الاميركية كانت تريد الا «لجنيفها» بتقديم اضحية الى الاله الكنعاني مولوخ تبلغ عشرات الالاف من الضحايا اللبنانيين · ويشترك مع هؤلاء الموزعين الكرماء كذلك ، ضرب من الشركة الكبرى او المافيا الدولية التي تؤمن السلاح من كل المصادر تقريباً (ربما باستثناء الاتحاد السوفياتي) · ويقود هذه الشركة اميركي يبيع المدافع كما تباع القبعات · وتعرفاته عالية قليلا ، اذ ان اسعاره تزيد بنسبة تتراوح بين ١٠ و ١٥ بالمائة عن اسعار السوق الرسمية · لكنه يستطيع ان يبيع اعظم الاسلحة الثقيلة كائنا ما كان البلد المنتج لها ، شيوعيا اورأسماليا ، اوروبيا ام اميركيا · فالعالم كله يبيع السلام عبر كونسورتيوم المافيا الدولية هذا · ذلك ان ادوات قتل الناس في العالم الثالث هي اجزل الحاصلات مربحا ·**

اما المفتربون اللبنانيون . فقد كانوا مكلفين من جهتهم بنشر الدعاية

الضرورية وباصطناع اللغة المناسبة لكل مسؤول او رئيس من مسؤولي او رؤساء الدول العربية . بهدف الاعداد للفاجعة المروعة · غير انهم لم يكونوا وحيدين ؛ فأصدقاؤنا السوريون ـ والوزير خدام خصوصاً ـ سينضمون الى هذه الجوقة ناشرين شعار ، «نريد مكافحة الشيوعية والنفوذ السوفياتي في لبنان» · ولم اطلع شخصيا على هذه الدعاية الا قبيل اندلاع الاحداث · غير اننا كنا نتوجس الصدام في لبنان . عبر تقارير بعض من اصدقائنا · فالاستاذ ادمون رباط . وهو من أنصار تطبيق الديموقراطية والاصلاح الدستوري وعلمنة الدولة في لبنان . حذرنا من انه سمع . عندما كان في سويسرا . اصدقاء اميركيين يقولون «سوف تشهدون قريبا تدمير مختلف البنى والمؤسسات الاقتصادية اللبنانة · فثمة مؤامرة دولية تعد» · وهكذا

كان . فقد شهدنا بعد بضعة شهور . اي لدى اندلاع النزاع . تدميرا منظما مقصودا . ليس لمصالحنا التجارية وحسب . وانما لمؤسساتنا المصرفية ومصانعنا كذلك . اي لكل ما يكوّن طاقتنا الاقتصادية . كان ذلك اشبه بهبوب رياح الجنون .

وقال لي صديق . يشغل منصب سفير لبلد كبير . في بداية الاحداث : «ان ذلك لن ينتهي قريبا . بل لعله سيطول سنة ونصف السنة او سنتين . فقد خصص الاميركيون . عبر وكالة المخابرات المركزية اعتمادا خاصا يبلغ ٢٥٠ مليون دولار لاستثارة الحرب في لبنان وتعهدها . وهذه الدولارات سوف تستخدم لشراء السلاح للانعزاليين ولتمويل حربهم» . وقد سألت السفير يومها : «لكن كيف يستطيع هؤلاء الناس الحصول على السلاح من البلدان الشيوعية ؟» فأجابني «اسمع . **ان وكالة المخابرات المركزية تمتلك مخازن اسلحة في اوروبا من جميع الانواع ، السوفياتية منها والبلغارية والبولونية** ... سبق لها ان اشترتها من هذه الدول او انها حصلت عليها بحسب الحاجة من سوق السلاح . وهي تستخدم هذه الاسلحة لاثارة الاضطرابات في العديد من بلدان اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية .» وقد ذهلت بادىء الامر . ولكنه كان لابد لي من تصديق محدثي لانه رصين جداً ويعرف كل ما يجري . واضاف السفير : «ان لهذه الحرب عدة

اهداف . بينها «تعقيل» الفلسطينيين . وزج العالم العربي في عش للدبابير . والاعداد لجنيف » . ثم ان الهدنة التي انتهت الى هذه المعلومات ابانها . لم تلبث ان انهارت وعادت الحرب اكثر شراسة ودموية مما كانت . وكان صديقي على حق . وقد سألت السفير الاميركي بعد ذلك عن هذا الموضوع . من باب الفضول . فأجابني بالنفي . ثم ابلغت ذلك الى السيد دين براون موفد الرئيس فورد الخاص الى لبنان وقلت له : «يبدو ان وكالة المخابرات المركزية تقف في اساس ما يجري في لبنان . فاللبنانيون من كلا الجانبين لا يتمكنون من وقف هذا النزاع . ويبدو ان ثمة يدا خفية تضرم نار هذه الحرب» . الا اني تلقيت الانكار ذاته : «كلا ليس لدينا نحن اسلحة شيوعية في اوروبا» . ثم بلغ الامر بعد ذلك بقليل بالسفارة الاميركية انها اصدرت بلاغا حول هذا الموضوع . غير ان الحقيقة هي ان الدبلوماسيين الاميركيين لا يعرفون في غالب الاحيان كبير شيء عما يحاك على يد المخابرات في الخفاء .

ومنذ فترة قريبة وضع السناتور الاميركي جيمس ابو رزق - وهو رجل شجاع صادق من اصل لبناني - الادارة الاميركية موضع الاتهام مصرحا «بأن الاميركيين هم بصدد تقديم السلاح الى موارنة لبنان عبر اسرائيل » كما اطلقت صحف اميركية واوروبية مختلفة صيحة القلق هذه ذاتها . والواقع هو انه من الصحيح ايضا ان اسرائيل اعطت الكتائب وشمعون اسحلة وذخائر . لا بل انه سبق لعدد من الدول العربية نفسها ان اهدت قبل الاحداث بضع شاحنات من السلاح والذخائر الى الجانب الاخر . **وهكذا ، فعلت سوريا بالنسبة الى الرئيس السابق السيد فرنجية . ولعل ذلك كان مجرد بادرة بريئة تستجيب لطلبه وتهدف الى استرضاء الرئيس ذي المزاج العدواني . كما ان طوني فرنجية تلقى سلاحا سوريا ،**

واعتقد ان ذلك كان ولا ريب كبادرة صداقة من بعض الاشخاص

المرتبطين معه ومع زمرته بعدد من الخدمات والعمليات الخاصة ممن ينتمون الى البطانة المحيطة بالرئيس حافظ الاسد (لكن كيف امكن لهذه الشاحنات ان تعبر سوريا ؟ اننا سوف نطرح هذا السؤال فيما بعد على الرئيس الاسد .)

وهل قدمت ايران اسلحة ؟ اني لا ادري . وجُلُ ما أدريه هو ان السيدشمعون ومولاه الصغير كاظم الخليل . هو صديق صدوق للايرانيين . **ويقال ان شمعون واولاده وشركاه قد كسبوا كثيرا من المال في تجارة الموز المصدر الى ايران من لبنان . ويقال كذلك ان ايران اشترت السيد شمعون مثلما اشترت شخصيات اخرى ، وخاصة احد الصحفيين اللبنانين المشهورين ممن يزورونها كثيرا .** فالذين يترددون على طهران انما يفعلون ذلك طلبا للصدقة .

وعلى الهامش اقول . أني امل انا نفسي ان ازور ايران يوما ما . ولكن ليس لطلب الصدقة . بل لأني أحب ان اتأمل مساجدها الرائعة وجنائنها وهياكلها السابقة للعهد الاسلامي وفنونها . وثمة اسماء ادبية فارسية تروق لي . لا بل انه يبدو أن لنا اقاربا هناك ، دروزا مثلنا من اصحاب الدين المخفي . ولا بد لي من ان اعترف اخيرا بأن شخصية الشاه وسلوكه وموقفه السياسي المستقل تستهويني . فقد عرف كيف يعيش في وفاق السوفيات والاميركيين وحتى مع الصينيين . مع الحفاظ على استقلاليته في عدد من قراراته . فهو حقا رجل متميز الشخصية . وبطبيعة الحال . فان كل رجل حر من امثالي يأخذ عليه الاضطهاد الذي يمارسه في داخل البلاد وضد اليسار الايراني (ولا سيما نظام السافاك اي المخابرات الايرانية الخاصة وهي ضرب من المخابرات القيصرية السرية) . وفي تقديري . انه لا بد من منح الايرانيين مزيدا من الحرية لاني كنت و لا ازال نصيرا لحقوق الانسان وحرياته .

بعد هذا . لا اجدني قادرا على ان اوضح بدقة الى اي مدى تدخل الايرانيون في شؤوننا . فتلك بالنسبة الي مسالة وجدانية سياسية . ولأني متشبث بالبقاء نزيها . فاني لن اقول ما لا علم لي به .

غير ان ما استطيع تأكيده - اذا ما عدنا الى المشكلة التي كنا نتحدث عنها - فهو ان الاميركيين . والاسرائيليين كذلك . كانوا اصحاب الايدي

لقدره في هذه القضية • وثمة بلدان كبرى اخرى في اوروبا توشك . على هدى المعلومات التي تردنا من شمعون والكتائب . ان تستحق هذه الملامة • **ويقول الناس في الجانب الاخر ان المانيا الغربية قد قدمت السلاح والذخائر والتدريب العسكري للعديد من الكوادر والمقاتلين في الفرق الخاصة كما يروى الامر ذاته عن بلجيكا •** وباختصار فان كل موال لاسرائيل في اوروبا ضالع في القضية • ذلك ان مدار الصراع ، كان ولا يزال ، تحجيم منظمة التحرير الفلسطينية وترويضها عمليا ومحاصرتها سياسيا • وكل ذلك بهدف اجبارها على الذهاب الى جنيف . لتكون مستعدة للقبول بالحل المعروض للنزاع الاسرائيلي - الفلسطيني •

وبطبيعة الحال ، فقد تولينا نحن ، كحركة وطنية لبنانية ، الدفاع عن الشعب الفلسطيني ورفضنا ان نذعن «للحلول الجاهزة» التي تصنع على غرار الالبسة التي يراد تفصيلها عليك من دون اخذ قياساتك • ولذا ، فقد اريد مقاصصتنا نحن والفلسطينيين • وقد تصرف الاميركيون ببراعة بحيث تدخل سوريا في اللعبة ، مستفيدين من الاهتمام الذي طالما ابدته بلبنان الذي كان يشكل مع سوريا شعبا واحدا قبل تقسيم عام ١٩١٩ • وقد انزلق النظام البعثي السوري - الواقع بين مطرقة القومية العربية وسندان مصلحته ومهابته الآنية وأمن نظامه السياسي - في التدخل العسكري في سياق صيغة التحكيم السياسي • **(كما كان لا بد من ايجاد عوض للخسارة الفادحة لجزء كبير من الجولان • فالمساومة التي قام بها وزير الخارجية الاميركية السيد كيسنجر لم تنجح كما هو معروف في الشروع بعملية استرجاع مرضية لهذه الارض المفقودة)** • واخيرا ، فقد كان هناك كذلك المطامح التي طالما كبحها النظام البعثي السوري ، ومنافسته المنهكة مع البعث في العراق ، ودباباته الالفان التي تنتظر مغامرة ما •

وفضلا عن ذلك ، **فان هذه الارتباكات راحت تتسع وتتعاظم فتيجة لوجود سوريا في موقف خاطىء** ؛ فقد لعبت دمشق ورقة العروبة والقومية والموقف الفلسطيني المتشدد ضدالرئيس السادات بمناسبة اتفاقية سيناء (ايلول - سبتمبر ١٩٧٥) والاستعدادات المعجولة غير المعللة التي قام بها في اتجاه السلام • فغموض كلا الموقفين ، السوري والمصري المرتبطين بنص قرارات مجلس الامن لعام ١٩٧٣ الغامض ، والمتأول بتأويل مختلفة ، مضافا الى غموض وعدم تحديد التسوية المتعلقة بحل المشكلة الفلسطينية (إن من حيث المحتوى ، او من حيث تحديد الحدود وتعريفها) ، كل ذلك اسهم في جعل الحملة السياسية السورية غير فعالة عمليا على المدى الطويل • **فالتسوية الغامضة غير المحددة ، هي تسوية سيئة دائما •**

وقد عرضت ذات يوم على الرئيس الاسد ومعاونيه اتخاذ موقف واضح وبيّن ومحدد ، تأييدا أو عداء ، من التسوية التي اعتبرها اقل التسويات الممكنة سوءا ، واكثرها ، لدى امعان النظر ، قبولا من كل تيارات الفكر السياسي العربي والفلسطيني ، اي طلب تنفيذ قرارات الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ كتعايش مرضي مؤقت • فمن شأن ذلك ان يمنح الدولة الفلسطينية

العتيدة مساحة اهم ويتيح رجوع ١٢٠٠٠٠٠ فلسطيني الى ديارهم في فلسطين • فمختلف تيارات المعارضة الفلسطينية تقبل بهذا الحل - الذي سبق للرئيس الحبيب بورقيبة ان جعل نفسه وبحق ، الداعية له - لانه يتيح عودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم ويخلي بذلك الارض اللبنانية وغير اللبنانية • ثم ان المساحة المطروحة للدولة الفلسطينية المستقلة ، هي اكثر اتساعا واعظم غنى بالاراضي الزراعية من تلك الاراضي التي تحرر بعودة اسرائيل الى حدود العام ١٩٦٧ • كما انها ، تمثل نسبة ٤٦ بالمائة من مساحة فلسطين التاريخية الاجمالية • وفي هذا السياق ، فان اليهود العائدين من الدياسبورا (الاغتراب) للاقامة في اسرائيل يعودون الى ساميتهم الاصلية نتيجة لاحتكاكهم بالـ ١٦٠٠٠٠٠ فلسطيني عربي الذين سيسكنون هذه الارض • وبمرور الزمن فان السلام لن يتأخر في الحلول في هذا الجزء من العالم •

وقد صرح لي الرئيس الاسد بأنه ، بالنظر الى الظروف الحالية • **فان من الصعب عليه الذهاب في اتجاه هذه التسوية الجيدة التي هي اقل التسويات لا انسانية واقلها بعدا عن العدالة الكيفية • ولقد احسست في هذا الرفض الذي اظهره مرات ومرات ، كيف ان رجال الدولة العرب غالبا ما يفضلون البقاء في الغموض في الوقت ذاته الذي يلجاون فيه الى لغة التطرف •** ولقد سلف للعرب ان خسروا فلسطين فيما بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ وشاهدوا قيام الدولة الصهيونية ، لانهم لم يعرفوا **كيف يتفقون على موقف ايجابي واضح ولانهم اساؤوا فهم وضع الطائفة اليهودية الدولي بعد الحرب • ولانهم طالما ظهروا غير متماسكين بل ومتناحرين فيما بينهم ، معتصمين وراء الكلمات اللفظية المتفجرة •** ويحضرني بنحو خاص مشروع الاتحاد اليهودي - الغربي الذي اقترحته الجمعية العمومية للامم المتحدة كحل اخير والذي كان العرب من الزعونة بحيث رفضوه • ومثل ذلك ، كان خطأ الاقتراح الذي قدمه عدد من البلدان العربية للفلسطينيين لمغادرة فلسطين لتساعدهم في العودة اليها بالقوة ، بدلا من ان تسلحهم بصورة كثيفة وبما يتيح لهم البقاء في امكنتهم ، الامر الذي كان سيمنع صهينة فلسطين •

ولقد طلب الينا نحن ، اي الحزب التقدمي الاشتراكي ، في ان نقوم بحملة ضد مصر الرئيس انور السادات ، فرفضنا واكتفينا بأن نعرض رأينا الموضوعي في موضوع تسوية سيناء •• كما تعرضت منظمة التحرير الفلسطينية لضغوط اقسى من التي تعرضنا اليها ، للتنديد بالاتفاقية وقطع صلاتها بمصر • اما العراق فقد اكتفى ، شأن الجزائر ، بادانة اتفاقية سيناء من دون أن يقع في الافراط اللفظي ومن دون قطع الصلات مع مصر • وغالبا ما يكون على المرء في العالم العربي ان يفعل كما لو كان في طاحونة تهدر ، اي ان يرفع صوته بالصراخ ليصل الى اسماع الاخرين • والحال هو ان المملكة العربية السعودية غالبا ما تمتلك الكلمة الاخيرة في سياسة هذا المشرق العربي • ولقد شاهدنا مصداق ذلك في قمة الرياض المصغرة (تشرين الاول - اكتوبر ١٩٧٦) وفي الوقف الفوري للهجمة السورية على قواتنا في بحمدون • وقد المح الرئيس السادات الى

ذلك بلباقة ابان انعقاد القمة العربية في القاهرة (في الشهر نفسه) بدعابته المصرية. الامر الذي اثار ابتسامة جميع الحاضرين. وها نحن الان وليس ثمة من يتكلم عن اتفاقية سيناء. فقد تمت المصالحة (السعيدة او البائسة) واختتمت المناظرة.

ولا زلت اعتقد شخصيا انه لو ان المملكة العربية السعودية والدول النفطية الغنية قدمت الى مصر، المهيضة التي افقرتها اربعة حروب متتالية، البضعة مليارات التي تحتاج اليها سنويا من اجل سداد ديونها التي تبلغ ١١ مليار دولار، ومن اجل تنشيط نموها الاقتصادي، فان الاوضاع كانت ستتغير بصورة جذرية على صعيد المواجهة العربية مع اسرائيل وعلى الصعيد الدولي، مما كان سيدعم البحث عن تسوية عربية - فلسطينية - اسرائيلية افضل. وكذلك فان مشكلة **طموحات سوريا السياسية كانت ستحل بمعونة اقتصادية اكثر اهمية وتتيح لها مواجهة ضغوطات الجماهير**. فالجميع مقهورون مستنزفون معتصرون في هذا العالم العربي وثمة مكان للجميع في الشرق الاوسط، لكن ليس ثمة مكان فيه لكل الطموحات. فهناك كثير من التباين بين فقر بعض الدول واثراء بعضها الاخر المفرط. وبالاضافة الى هذا، فانه لا بد لنا من تسوية مشاكلنا مع الاتحاد السوفياتي؛ اذ لماذا ينبغي ان يكون على السوفيات ان يقدموا لنا مليارات الدولارات من التجهيزات العسكرية والمعونة الاقتصادية من دون ان يكون من حقهم استيفاء الثمن؟ فالاتحاد السوفياتي لديه هو الاخر مناطق شاسعة في سيبيريا بل وحتى في روسيا الاوروبية تحتاج الى التنمية.

ثم ان استرجاع لبنان، الذي فصل عن سوريا الطبيعية في العام ١٩١٩ يظل حلما قديما لدى بعض رجالات السياسة السوريين وقد استعاد هذا الحلم عنفوانه لمناسبة الصعوبات السياسية والاقتصادية التي صادفها قادة حزب البعث في دمشق. وعلى اي حال فان الرئيس الاسد قال لياسر عرفات في لحظة وهو يدافع عن عروبة الرئيس السابق سليمان فرنجية. **«انكم تحقدون كثيرا على سليمان فرنجية، لكن فلتعلموا انه الرئيس اللبناني الوحيد الذي يقبل بتوحيد بلاده مع سوريا فورا اذا ما طلبت اليه ذلك»** وبطبيعة الحال، فان علاقات بالغة التعدد والتنوع تربط دمشق بفرنجية الاب والابن وبحاشية قصر بعبدا كافة. ولم يكن مزاج سليمان فرنجية، الذي يجمع الى الصراحة الظاهرية الفظاظة وبعض الحدة، الا ليحدث بعض الجاذبية، بحيث ان القوم في دمشق كانوا يحبونه بالتأكيد. وعلى اي حال، فانا اوافق **على ان فرنجية الرجل، الذي يمتلك ضربا من الحس بالشرف، ومن الصرامة الدموية، ليس بالشخص الكريه ولكن الامر الذي كان يعوزه ولا مراء، هو النصيح الحسن والمستشارون الجيدون**.

ثم ان القادة السوريين وجدوا انفسهم معاقين في الخارج نتيجة لمنافحة العراق وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية، والمعارضة الفلسطينية المتواصلة لهم. كما وجدوا انفسهم معاقين داخليا نتيجة لموقف الرأي العام السوري الذي لم يجد ما يرضيه من انتظاره عبثاً لتسوية تتيح انسحاب القوات الاسرائيلية الكامل او الجزئي من الجولان. فباتوا لذلك مهيئين لمشروع

اتحاد كونفيدرالي - سوري - اردني. ثم بعد ذلك، اي بسبب احداث لبنان، وهو ليس في الواقع سوى فرع لبعث دمشق، ما انفك يتحدث عن هذا المشروع منذ ثلاث سنين. وليس ثمة سبيل للتوصل الى تحقيق هذا المشروع سوى طريق واحد: هو التقرب من الموارنة والظهور بمظهر الحامي الحقيقي للانعزاليين اللبنانيين مع دمجهم في العروبة. ثم الاحاطة بالفلسطينيين واحتوائهم. خصوصا أن موقف هؤلاء المستقل ونجاحهم على الصعيد الدولي (نجاحا تمثل بتأييد مائة دولة لقضيتهم) كان يزعج القوم كلهم لا سيما البلدان التي كان جزء من اراضيها قد احتل في العام ١٩٦٧ من قبل اسرائيل. ولما كان هؤلاء عاجزين عن استعادة أراضيهم المفقودة مباشرة، فأنه كان لا بد لهم من استخدام المناورة والقيام بانعطاف عاجلا ام اجلا. فالبطولة التي تجلت ابان حرب رمضان والتي تلت ذلك، اقتضت انجاز ما اثارته من آمال. **وموقف البطل في هذه البلدان الديكتاتورية هو موقف صعب الاحتواء: فاسطورة العظمة هي شغل رجل الدولة الشاغل والدائم**. ومن ثم فان الاتهامات الموجهة ضد بخل البلدان النفطية ورفضها تقديم معونة حقيقية، ما كانت الا لتزيد الاحقاد.

وثمة عنصر اخر في هذا اللغز التجاري المربك هو ادعاء الملك حسين الدائم بالاضطلاع بمهمة الانتداب والوصاية على الدويلة الفلسطينية المقترح اقامتها على الضفة الغربية لنهر الاردن على سبيل التعويض على اولئك الذين فقدوا وطنهم واراضيهم. فكانت رعاية سوريا ضرورية لتمويه او لتقسيم او لممارسة انتداب كامل على الفلسطينيين الذين يخيفون الملا جميعا بسبب اجتذابهم لكافة التيارات، ان الاجتماعية اليسارية منها او تلك التي تكتفي بتأييد التغيير في الانظمة العربية المنهارة. ولقد اغتنم كيسنجر ذلك السامي الجرماني المتمرس بالجدلية الشرقية وبفلسفة هيغل، وبمعرفة، الاستراتيجيين السياسيين والعسكريين، نقول انه اغتنم الفرصة لبعث الاسطورة وللمقامرة بالحقيقة الموضوعية. وهكذا فقد شجع التدخل في لبنان. وقد باتت مكالمته الهاتفية مع رابين، من اجل تهدئة مخاوف هذا الاخير المتزايدة، من الشهرة بمكان.

ثم ان افاق الارباح المادية كانت تواكب اعتبارات المهابة والنفوذ السياسي. فمنظمة الصاعقة الفلسطينية التي تأتمر بأمر السوريين، مرت مرور الاعصار على بساط بيروت الاخضر. وعلى اي حال، فان نصف اللبنانيين على الاقل راحوا يقلدونها **بسبب الانحطاط الاخلاقي** الذي يعود الى الاثراء السريع او غير المشروع واختلال الدولة ولانبعاث «الغزو البدوي» لدى كافة المقاتلين (ولدى الانعزاليين المسيحيين المتمرسين بالمادية الليبرالية بأكثر مما لدى الوطنيين والمسلمين). وهكذا فسيعاد تموين «سوق الخردة» بوفرة وافرة بكل ما سرق من البيوت والفيلات والمصارف والمخازن ومن مرفأ، وسرايات بيروت. ثم ان ثمن السجاد الفارسي يزداد ارتفاعا مع مرور السنين ... فهو من افضل الاموال توظيفا. ولعله كان ثمة ارادة سلب مرسومة وراء هذا: اذ لطالما عانى لبنان من بعض الحسد، يأتيه من كافة جهات العالم العربي.

واخيرا، فان نزعة دمشق للشروع في اقامة قيادة سياسية وعسكرية

مشتركة مع الفلسطينيين . كانت نزعة ظاهرة وحادة ابدا . لكن هؤلاء كانوا يرفضون دائما الدخول في ترابط توأمي وثيق يسيء الى استقلالهم السياسي ويحد من قدرتهم على المناورة . ولعل هذه الفكرة كانت جيدة ، الا ان تنفيذها كان يتطلب تكافؤا ومساواة في المناقشات : ولما كانت امدادات الثورة الفلسطينية من الملاح تمر عبر الاراضي السورية ، فان ذلك كان بمثابة ضغط واقعي يمارس على منظمة التحرير الفلسطينية . يضاف الى ذلك ان منظمة الصاعقة كانت عنصر تدخل في الشؤون الفلسطينية المحضة . لكن ذلك لم يكن كافيا في نظر دمشق البعثية التي كانت ولا تزال تعتبر كافة الفلسطينيين كجزء لا يتجزأ من الشعب السوري ؛ ففلسطين هي «سوريا الجنوبية» . ولهذا فان التواؤم الرسمي مع الثورة الفلسطينية كان سيتيح في رأي دمشق انحيازا فلسطينيا عاما . ذلك انه كان هناك دائما الكثير من الخرضوات في مخلفات السياسة الشرقية وفي متجر عادياتها .

ولست ادري ما اذا كانت السياسة في اوروبا بمثل تعقيد السياسة هنا . **فثمة كثيرون يأخذون على ياسر عرفات وعلاقاته الحسنة مع العربية السعودية التي تتلقى منظمة التحرير الفلسطينية منها اهم ما تتلقاه من مساعدات** . وهم يأخذون عليه تفاهمه مع كل الفرقاء وعدم انزلاقه الى المشاجرات الرعناء المصطنعة التي تتواجه فيها الانظمة المزعومة انها رجعية او المزعومة انها تقدمية . والحق ، **هو ان كل هذه المصطلحات سفاسف** ، وان ذهب النفط يجعل عيون جميع قادة الدول العربية المحرومة تلتمع . ومن شأن الوصاية ـ التي يطالب بها الجميع ـ على الحركة الفلسطينية ، ان تستدر مزيدا من المال من الدول النفطية التي لا تزال تعاند وتصر على الا تدفع الا الضروري الكافي لكي لا تنهار اقتصاديات مصر وسوريا وبقية البلدان العربية السائرة في طريق النمو ، انهيارا كاملا .

اما الاتحاد السوفياتي ، فقد كان يطل من خلفية الصورة ، عاجزا ـ شأننا نحن في غالب الاحيان ـ عن أن يفهم هذه اللعبة ، ومشمئزا ، شأننا ايضا ، من سياسة العرب المزدوجة ، ومن عجزهم عن الفهم ، ومن السهولة التي يديرون بها ظهورهم ويتخلون فيها عن افضل اصدقائهم . وعلى اي حال ، فان سياسة السوفيات لا تزال في مرحلة تستطيع فيها التخلص من مصالحها في الشرق الاوسط . ولا نزال نذكر المخاوف التي ابداها السوفيات حين جمع الاميركيون اسطولهم السادس في عرض البحر امام لبنان وقبرص . ففي تلك اللحظة بالذات كانت جيوش الرئيس الاسد تدخل من الشرق الى الاراضي اللبنانية مصحوبة بما لا يزيد عن مائة دبابة نشرت في مثلث صغير خلف جسر دير زنون على مبعدة ٣ أو ٤ كيلومترات داخل الحدود اللبنانية . وكذلك فقد ارسلت فرنسا بضعة مراكب حربية الى عرض البحر اللبناني . كان الاميركيون يعارضون التدخل السوري ويأبونه . اما السوفيات فكانوا قد شرعوا في اجراء مناورات لاسطولهم . لا بل انه كان ثمة نية تدخل اوروبي لانقاذ لبنان تقف فرنسا فيه على رأس الحملة العسكرية . غير انه لا الاميركيون ولا الروس كانوا يرغبون بحدوث هذا التدخل . فالشرق الاوسط يجب ان يظل طريدة موقوفة على الجبارين . ثم ان الديغوليين

لم يعودوا في السلطة منذ زمن ، لمراجعة لعبة التأرجح هذه ، وتقديم معونة سياسية حقيقية للبنان . ذلك ان من يحكم فرنسا هو الجيسكاردية بتذبذب تكنوقراطييها ومداراتها للمصالح السياسية الاميركية .

ولا زلت اذكر المحادثة التي جرت بيني وبين موفد الرئيس فورد الخاص ، السفير دين براون . فلقد شكرته على اهتمام الولايات المتحدة بالحفاظ على استقلال لبنان ووحدة وسلامة اراضيه . ثم اعربت له عن مخاوفي بشأن موضوع تغلغل القوات السورية المفاجىء . وكان ذلك في اللحظة التي كان الانعزاليون يتلقون فيها الهزائم على مختلف الجبهات ، في بيروت وفي الجبل وفي مداخل كسروان وفي الشمال وفي زحلة . كانت خطوط جبهتهم تتداعى في كل مكان . وقد اجابني دين براون : «انهم ، لو تدري ، لن يتجاوزوا دير زنون .» ولقد ذكر ذلك ايضا لصديقنا رئيس الوزراء السابق عبدالله اليافي حتى يظن المستمع ان الولايات المتحدة هي التي تحرك اللعبة . وفي تلك اللحظة ظننا الاميركيين صادقين ، لكننا لم نلبث ان وعينا المساومة الاميركية الاسرائيلية التي اجراها كيسنجر . فصرنا لا نسمع باي حديث عن التدخل الاوروبي او عن الانذار الاميركي الموجه الى سوريا . كان الضوء الاخضر قد اعطي الى السوريين للتغلغل في لبنان . وكان كيسنجر ، السامي الجرماني ، قد انفذ شعوذته . ذلك ان



ولا زلت اذكر الحادثة التي جرت بيني وبين موفد الرئيس فورد ، السفير دين براون

مصلحة اسرائيل بالنسبة اليه تتقدم على كل شيء بينما كان يجب في الوقت ذاته الاعداد لمؤتمر جنيف · ولهذا ، فانه لابد من ارضاء السوريين معنويا لجرهم الى كواليس السلام المقبلة · وكما في سابق الاحوال ، **فقد خدعنا وكنا ضحايا الدول الكبرى في هذه «المسألة الشرقية» الشهيرة ·**

اما اسرائيل فقد ساءها التدخل السوري بادىء الامر واقلقها ، الا ان مكالمة كيسنجر الهاتفية مع رابين جعلت هذا الاخير يفهم اللعبة ؛ «انك اذا لا تعلم مايجري · دع الامور تسير ·» وهكذا فقد ترك الاسرائيليون ، الامور تسير على غاربها · واكتفوا بالقول :«هناك خط احمر في جنوب لبنان الليطاني ، وعلى السوريين الا يجتازوه» · وقد ابلغ الاميركيون السوريين الرسالة قائلين «حاذروا من اجتياز الخط الاحمر» ·

ثم ان الموارنة ايضا اجروا حساباتهم · «ان الدولة اللبنانية ليست قادرة على الاقتصاص من الفلسطينيين ، حتى ولو دعمناها دعما عسكريا مكثفا · **فمنذ سنة وهذه المعركة تتجرجر ، ومنذ أن بدأت المعارك في الجبل ونحن نتراجع في فوضى كاملة على كل الجبهات ·»** فالواقع ، هو ان ميليشيا الحركة الوطنية والفلسطينيين ، كانت على وشك ان تجتاز خط ضهور الشوير - بسكنتا - عيون السيمان ، وبالتالي ان توقع بالانعزاليين هزيمة حاسمة · وكذلك فقد **كانت زغرتا وزحلة على وشك السقوط ·** لكننا لم نكن عازمين على المضي في مكاسبنا قدما الى اكثر من ذلك · ثم ان المخاوف التي كان يثيرها تدخل سوريا ، لدى الانعزاليين ، الذين لا يزالون يعتبرونها عدو لبنان رقم واحد ، كانت لا تزال تقض عليهم مضاجعهم على الرغم من التطمينات والضمانات التي تلقوها من الولايات المتحدة ، وربما من فرنسا ايضا بسيما وان الوزير السوري خدام زار باريس عدة مرات · فكان **على سوريا دوما ان تهدىء من المخاوف المسيحية ازاء مشروع سوريا الكبرى الإتحادي ·** واذا كان السوريون قد نقموا علينا وعليَّ انا بصورة خاصة ، فلأنني كنت الباعث والمحرك لمعركة الجبل التي لم تكن تهدف الا الى قطع هذه العقدة المستعصية والخلاص من حرب الخنادق القذرة في بيروت · واذ ذاك اوقعنا الملأ جميعا في الارتباك · غير ان الرئيس السوري اساء فهم نوايانا · ولم يكن ليتقبل الرفض الذي ابديناه ازاء «وقف اطلاق النار» الفوري الذي طلبه منا ابان زيارتنا الاخيرة الى دمشق حيث اظهرنا كلينا ، الرئيس الاسد وانا في خلال المقابلة التي استغرقت ثماني ساعات ، وجهات نظر متباينة تماما · وقد اطلعنا على الضغوطات التي تمارس عليه · ولعلنا لم نأخذها كفاية بعين الاعتبار ؛ ذلك ان رهان الصراع في لبنان - وهو صراع كنا قد انتقلنا فيه من الدفاع الى الهجوم - كان بالغ الاهمية بالنسبة الينا ، ولم يكن في وسعنا ان ندع فرصة تحويل المؤسسات الطائفية المتداعية الى مؤسسات علمانية وديموقراطية حقة ، نقول انه لم يكن بوسعنا ترك هذه الفرصة التاريخية تفلت منا ·

والثورة لا تغفر لك ؛ فلا بد لك من ان تتلقفها ساعة يبدو

القدر مؤاتيا والنصر في متناول اليد · وثمة عنصر مغامرة في هذا كله · لكن اوليست المغامرة المحسوبة المتبصرة جوهر كل حياة ؟ فمن ذا الذي يستطيع ان يعين نصيب الصدفة والتخير في الحياة اليومية ؟ واذا كان لا بد من اخذ السببية بعين الاعتبار ، كما تتطلب المادية التاريخية فان القرار الانساني يظل يتخذ عبر الحدس الحر · ووفق ذلك ينبغي ان يتصرف اولئك الذين هم ، حقا ، رجال سياسة واعون ، وليسوا مجرد سياسيين مبتذلين · وهذا الحدس الذي هو وليد التسامي والذي يصل الماضي بالحاضر والعمل السالف بالخطة المقبلة ، وهو عمل انساني بالمعنى الدقيق للكلمة ، يتخذ في طوية وجداننا الموضوعي ·

وفي تلك الاونة كانت مغامرتنا محسوبة على النحو الآتي ، لقد رفض الاميركيون التدخل عسكريا لصالح الانعزاليين · وقد اخبرنا دين براون بأنه اجاب اجابة سلبية على الحاج الجميّل وشمعون وشركاهما · ذلك ان الوضع الدولي لم يعد كما كان سنة ١٩٥٨ ، عام انزال الرماة البحريين الاميركيين على شواطئنا · وعلى اي حال ، وخلافا لما تقوله النظريات حول الامبريالية ، فان كل ديموقراطية تظل ملاحقة بشعور الذنب لدى تفكيرها في القيام بتدخل عسكري مباشر · وكذلك ، **صار لا يجوز الاعتماد على فرنسا لتهب لنجدة امتيازات المارونية الصلفة المغالية ·** فقد جرت مياه كثيرة تحت الجسور منذ العام ١٨٦٠ · ثم اننا لم نكن نخاف من تدخل فرنسي يتفق ومبادىء سياسة الجنرال ديغول · كان ذلك ولا ريب خليقا بأن يكون ارتدادا لقضيتنا ، لكنه كان لدينا على الاقل يقين بأن حقوق الانسان وحرياته في لبنان لن تكون في خطر وان الديموقراطية ستبقى حتى ولو كانت عرجاء الى هذا الحد او ذاك · **ولعلنا تسرعنا بعض التسرع في رفضنا لعرض التدخل العسكري الذي صاغه الرئيس جيسكار ديستان ابان زيارته للولايات المتحدة ،** لكن ما كنا نخشاه هو النوايا الاميركية وليس نوايا السياسة الفرنسية · **والحق هو ان فرنسا اظهرت ، طوال الازمة اللبنانية ، موقفا متفهما (بقدر المستطاع) عطوفا كريما ·**

واذ قد يتهمني بعضهم بموالاة مفرطة لفرنسا فان في ذلك بعض الصحة · ولكني اقدر ايضا الانجليز كانجليز ، كما اقدر ، بصورة عامة ، كل الشعوب التي تنسجم وتمتثل الى دافعها الروحي ، وبما يشكل فعلا سياقها القومي والمعنوي · وانا لا احب الدول التي لاتريد شيئا غير ذواتها او تسلك طريقة ليست طريقتها · وبهذا المعنى ، فاني اعتبر ان الانجليز والالمان لم يعودوا كما كانوا تماما ؛ «**فالموضة» باتت اميركية** ولعل الامركة او التأمرك يناسب اميركا لكنه لا يناسب الامم الاخرى · فلا بد لنا من ان نبقى نحن انفسنا ، في حين ان اوروبا - بما في ذلك فرنسا - توشك الا تعود كما هي ولا كما كانت ·

واني لاتساءل الى اين تقودنا الحضارة الاستهلاكية هذه ؟ ان

احدا لا يعرف ولا يسعى الى ان يعرف : فما يهم التقنوقراطيين هو الكيفية ·

لنعد الى تحليلنا : كانت حساباتنا هي ان اسرائيل لا تستطيع التدخل من دون ان تطيح بالسلْم المؤدي الى جنيف والذي أنهك الاميركيون وبعض الدول العربية في جمعه وتركيبه قطعة قطعة · لا بل انه لم يكن في نية الاسرائيليين في البداية ان يقدموا العون الى الانعزاليين في لبنان ابدا · وانما استجد ذلك فيما بعد . حين شجعهم التدخل السوري على ارسال اسلحة - او مزيد من الاسلحة - الى الكتائب والشمعونيين والى قسيس والاخرين · كان الاسرائيليون . يؤازرهم في ذلك معلقوهم العسكريون وخطابات رجال الدولة لديهم . وصحافتهم . يندبون حظ الانعزاليين الذين تخلى عنهم العالم اجمع · كانت اميركا تهتم بمصيرهم بصورة غامضة في الوقت الذي كانت ترد عليهم فيه مزاعمهم وادعاءاتهم · واما اوروبا فكانت تراقب من بعيد مهتمة متعاطفة . عاجزة عن فهم طريقة تصرف لموارنة الانعزاليين . ناهيك عن فهم دوافعهم · فعام ١٨٦٠ بات بعيدا جدا والديموقراطية والاوروبية شقتا طريقهما . واما الروح الامبراطورية فقد ولى زمانها ·

وهكذا فقد كان جميع ما يحيط بنا يدعونا الى الثقة ، فالشيخ بشير الجميل جاءني يقدم اليّ تعازيه بمناسبة اغتيال شقيقتي من قبل الانعزاليين الذين كانت تصر على السكنى بينهم · وقد قال لنا «اننا نقبل ببرنامجكم للاصلاح الدستوري ولكنا نجده فاترا وغير كاف · وفيما يتعلق بنا (اي الفريق الانعزالي) فاننا نريد اكثر من ذلك · » لم يكن للطرفين سوى امنية واحدة هي الشروع في الحوار . بحيث ان نهاية النزاع كانت تبدو قريبة الى حد غريب · **ووحدها اصوات رابين ومردخاي غور بيريس وسواهم من شخصيات الدولة الصهيونية ، كانت تشير الى ان احداث لبنان لم تنته بعد ، وان الصراع الجهنمي سيستمر ·** ووفقا لاقوال صحافتهم فان الصهاينة كانوا يتصرفون «بكثير من الارابة والمهارة» ثم . وبينما كنا على وشك الاعتقاد بأن الحرب قاربت من نهايتها . وان الطاولة المستديرة ستجمع الملأ كله . وان السلام سيعود . **اذ بالجيش السوري يبدأ بالتغلغل هنا وهناك ، متقدما بصلابة وان ببطء ، على طريق بيروت وصيدا ، متوجها في الشمال نحو طرابلس · وبدا ان البلاد تصادر قطعة اثر قطعة ·**

لكن كيف السبيل الى تفسير ذلك ؟ لقد كانت المسألة بالنسبة لسوريا مسألة نفوذ ومقام فلم يكن بوسع نظام دمشق على ما يبدو . ان يريق ماء وجهه ذلك انه **كان قد اوغل في التورط في هذه القضية التي كان رهانها الاساسي هو كبح حركة التحرير الفلسطينية ، وتقويم مسيرة اليسار والمسلمين المتمردين · كان السوريون يريدون** ان يطبق «حلهم» هم للمشكلة اللبنانية . لا برنامج الحركة الوطنية · وباختصار فقد كانوا يريدون فرض «الرسالة الدستورية» التي اصدرها

الرئيس سليمان فرنجية والتي تترسم بعض الاصلاحات على استحياء · كما كانت تشتمل على مادة (جزائية قانونية) لارهاب رجال الصحافة · كان العذر الواهي الذي املاها هو جعل هؤلاء الصحفيين مسؤولين ومستقلين في ان معاً · **غير ان فرض مشيئة «فيليب المقدوني»** كان يقتضي ان تحتل جيوشه بيروت · **والحال هو ان كل شيء كان يشجعه على ذلك ، من صوت اسرائيل ووشوشات وزارة الخارجية الاميركية وتلميحاتها المهموسة ، بل وحتى رغبات بعض السياسيين المسلمين التقليديين الطرابلسيين او البيروتيين ، بعدما وجد هؤلاء انفسهم مطوقين ومحاصرين بالنفوذ السياسي المتزايد للحركة الوطنية اللبنانية ·**

وبجانب الارادة في فرض المهابة والنفوذ . فانه لا بد ان نشير الى طبع الرئيس الاسد القليل الميل الى المغامرة · فالنظام السوري لم يبدأ مسيرته الا بعدما اطمأن الى مساعدة او رضى كافة المعنيين بالمسألة اللبنانية والى صمت اسرائيل (باستثناء التحذير المتعلق بالخط الاحمر في جنوب لبنان) · واثر كل اندفاعة عسكرية لمسافة كيلومترين او ثلاثة داخل الاراضي اللبنانية . كانت القوات السورية تتوقف لكي يقوم سياسيو دمشق باستطلاع اتجاهات الرأي العام العالمي وتسجيل مواقف القوى العظمى والمتوسطة · كان عليهم ان يسكتوا بلا كلل ولا انقطاع جميع المخاوف . **وان يضللوا مختلف الشكوك ، قاضمين - في الحين ذاته وبحنكة بارزة - البلاد والعباد قضمة قضمة وقطعة قطعة ·** وكان وزير الخارجية السوري يلازم الطائرة في غالب الاحيان متنقلا من دمشق الى باريس . ثم . الى العربية السعودية خصيصا والى بلدان الخليج العربي والاردن الخ ... وكان ثمة اتصالات دائمة مع الولايات المتحدة وكان لزاما على الرئيس تيتو - وهو المترصد ابدا لجميع المخالفات الدولية لمبدأ حق الشعوب في تقرير المصير . والمستعد ابدا للتنديد بها - ان يطالب النظام السوري ببعض التفسيرات حول تصرفاته المخالفة لهذا المبدأ في لبنان · ومن هنا كانت الزيارة التي قام بها الرئيس الاسد لبلغراد اثر زيارته لباريس ·

ووحده . الاتحاد السوفياتي . كان يعقد حاجبيه ويبدي قلقه مما كان يحاك في لبنان ، وكان هذا القلق ينعكس في مقالات البرافدا والازفستيا وبيانات وكالة نوفوستي . وفي تبادل الرسائل الشخصية بين الرئيس الاسد والسكرتير العام للحزب الشيوعي السوفياتي ليونيد بريجنيف . وفي زيارة رئيس الحكومة السوفياتية السيد كوسيغين لدمشق · وقد اضطر هذا الاخير ان يصطبر يومين في العاصمة السورية قبل ان يتباحث مع الرئيس الاسد · **وكانت الجيوش السورية قد دخلت الاراضي اللبنانية قبل وصول رئيس الوزراء السوفياتي بيومين او ثلاثة ·** ولهذا فان الاسد اراد «بتنطير» كوسيغين . اثبات . استقلاليته والبرهنة على ان المصلحة السورية مقدمة على اي اعتبار او اي مبدأ من مبادىء القانون الدولي · وكان رد فعل

الروس على عدم اعتبار السوريين لهم هو الفيظ المكتوم . لكن هؤلاء الاخيرين كانوا يعتبرون . ولا ريب . انهم . في النهاية . اخر قلاع التحالف السياسي مع الاتحاد السوفياتي في الشرق الاوسط وانه سيكون من العسير . بالتالي . على السوفيات ان يقدموا «الانتصار الديموقراطي» اي انتصار الحركة الوطنية اللبنانية على اعتبار ومهابة مثل هذا التحالف الذي كانوا يغذونه وبقوة . وبكل انواع وفئات الاسلحة . وبمعونة تقنية مهمة . ثم ان تهيئة جنيف كانت لا تزال - ايضا وابدا - تلوح في الافق : والرأي عندي

ان **السوفيات اخطأوا الحكم في هذه المرة . ذلك ان انتصار الحركة الوطنية اللبنانية ونجاحها في اقامة ديموقراطية تمثيلية عريضة في لبنان** ، كان من شأنه ان يسهم في تغيير الانظمة العربية . كما كان من شأنه ان يؤدي . فوق ذلك . الى تدعيم العلاقات العربية السوفياتية ودعم عافيتها .

غير ان النظام السوري اخطأ ذاته في الحكم . فقد فضل القادة السوريون الحصول على بعض المغانم المباشرة وعلى بعض المصالح الوهمية الخادعة (كما سيثبت المستقبل ذلك) وضحوا من اجل ذلك بالتحرر الديموقراطي لشعب بكامله . وهو تحرر كان سيلعب - شأن ما فعل في القرن التاسع عشر في بقية العالم - دور الرافعة القادرة . في تقدم الديموقراطية و «الاشتراكية الحقة» في الشرق الاوسط كله . ويبقى ان نعرف ما اذا كان النظام السوري قد قدر وقيم هذا التطور ... اذ الواقع هو انه كان اقرب الى الخشية من ذلك . فقد بات الشعار المرفوع في دوائر البعث الدمشقي هو التالي : **«ان كمال جنبلاط رجل خطر وهو اخطر من كميل شمعون وجميع الاخرين ، لانه سيقودنا الى مجابهة جديدة مع اسرائيل ...»** لكن ذلك كان سخفا فكريا وحماقة محضة وافتقارا تاما للحس الجدلي .

والحق ان بامكاننا التساؤل عما اذا كانت كافة هذه الانظمة «التقدمية» العربية في المنطقة ترغب حقا في اقامة الديموقراطية والاشتراكية . فحتى على الصعيد الاقتصادي يظل الجواب مشكوكا فيه : اذ ماهي هذه الطبقة من المليونيرية التي بدأت تطل علينا (من تجار الاراضي وملاكي العقارات ومديري المصارف والفنادق والمتعهدين وما هب ودب من المتجرين ؟) ان استقلالنا مشفوعا بوجهة نظرنا في الديموقراطية السياسية التمثيلية وفي الاشتراكية والاقتصاد الاشتراكي يرعب الملأ كله . وكذلك الامر بالنسبة الى منحانا نحو البقاء مستقلين على صعيد العروبة وصعيد مفهومنا للوحدة الاتحادية على الطريقة الهندية . او الاميركية او السويسرية والتي لا علاقة لها بالمشاريع المزيفة «للوحدة العربية» التي يطلقها بين الحين والاخر اهل الحل والربط . الهاء للشعوب . ومخادعة لها . انها من قبيل مشاريع التعاون الجاهزة سلفا . والتي تقتصر على تحقيق هدف سياسي بائس على الصعيد الدولي . او المعدة لمجرد التخلص من بعض الصعوبات الآنية او لاتقاء هذه الدولة المنافسة او تلك اتقاء مؤقتا . او للتأكيد على

شعار الوحدة من دون تحقيقه مطلقا . فالرغام والذهب . والعملة الجيدة والنقد المزيف . والفريسية والصدق . هي عناصر تختلط وتتمازج جميعا في هذه الفوضى السياسية العربية . المبهمة المحيرة . **انه لأمر يدمي القلب .** ثم . وفي خلفية ذلك كله يتراءى الخوف من ان يسبقك سواك ويبزك في العمل ، **انها الأنا القبلية ، والأنا الحزبية والأنا الوطنية .**

ولم يكن امر فهمنا في لبنان . يقتضي الا القليل من روح التحليل الحقيقية والقدرة على الاستشراف وبعض الحس الجدلي الحقيقي . كما لم يكن اصدقاؤنا الخارجيون والقادة السوريون يحتاجون الا لقليل من روحية المغامرة . **فالثوري الذي تعوزه روح المغامرة سينتهي كثوري .** وقد باتت هذه الخطيئة عيبا يعتور غالبية الانظمة والاحزاب الشيوعية . لا بل انها الخطيئة والعجز الاساسي لدى كثير من الانظمة المزعومة انها «تقدمية» في العالم العربي . حيث كممت افواه الشعوب بحجة الاشتراكية . وحيث راحت حكومات عديدة في المقابل تكرس نفسها لسراب جنيف - الذي نشره في الافق الاميركيون والسوفيات كلاهما - ولسياسة «الوفاق» بين الكبار . وفي سوريا خصوصا . كان القادة يبالغون في الاكتفاء بسليقتهم مبدين اقل ما يمكن من روح المغامرة . ولو كان لديهم - قبل هذه الايام . اي في العام ١٩٦٧ - شيء من الروح الثورية او روح المغامرة . او لنقل انه لو كان لديهم شيء من المتطلبات الثورية . **لحولوا الجولان الى فردان عربية مدوية باصداء اسطورية وتاريخية ، بدلا من ان تنتهي بالانسحاب من التحصينات التي كان بوسعها ان تصمد شهورا ، انسحابا يوشك ان يكون بغير قتال . كان يلزمهم «جوفر» سوري .** ذلك ان الحماية الحقيقية للنظام «التقدمي في سوريا» . تكمن في مثل هذا التحدي التاريخي . كان من شأن الشعب كله ان يلتف حول هذا النظام بحماس . لكن **هذه الروح اخلفت الموعد مع التاريخ** ، ولهذا فان المغامرة اللبنانية(على الرغم من انها لم تكن تظهر لنا كمغامرة في تلك الحقبة من صراعنا) كانت تبدو وكأنها لا تهم احدا . وكان من البدهي انها تزعج الطمأنينة البرجوازية لدى «الدول الشقيقة» كما تزعج كل مخططات التريثية الانتهازية السياسية العربية .

وتلك هي النقطة الثانية التي اود الوصول اليها . ففي الرياض كما في دمشق كما في مختلف العواصم العربية . لم يكن القوم يهتمون بالمشكلة اللبنانية الا من بعيد جدا وبصورة مبهمة . فقد كان سراب استرجاع الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل لا يزال يحتل المرتبة الاولى والصعيد الاول . ولهذا فان دلالة موقفهم منا كانت تعني أن **«لقد طفح كيلنا بمشكلتكم اللبنانية»** . وفي خلال اجتماع لجنة الجبهة العربية المساندة للثورة الفلسطينية . والذي عقد في دمشق في بداية المعارك . بلغ الامر بممثل حزب البعث السوري . الى حد اهمال الاشارة بصورة اساسية الى دراسة الازمة . والاشارة الى دعمه لاهداف الحركة الوطنية اللبنانية . فقد كان يريد ان يقبع مرة جديدة في عملية التطبيل الانتقادي لاتفاق

سناء · غير اننا تمكنا في النهاية . وعلى الرغـ من كل شيء ، من حمل الموجودين على تأييد وجهة نظرنا بفضل بقية الاحزاب العربية الاخرى ·

اما النقطة الثالثة التي اريد الرجوع اليها في تحليل موقف القادة السوريين ازاء الازمة اللبنانية ، فهي شيمة الرئيس الاسد بالذات ، الذي كان يظهر ابان الازمة كثيرا من المشاعر الانسانية ومن التضامن المتوجع والشفقة ازاء جميع ما كان يجري في النزاع الدموي في لبنان · فالحق ان الرئيس الاسد ـ ونحن مضطرون للايمان بذلك للصراحة والصدق اللذين كانا يبدوان عليه ـ كان يعبر بصورة ثابتة عن اشفاقه من اعمال الفظائع والتدمير التي ارتكبت في خلال المعارك . متمنيا ان يوضع لذلك كله حد باسرع ما يمكن · ولقد كان ذلك شعورا لائقا كريما جديرا بالاحترام . نشاطره اياه · غير انه ما كان يجب ان ننسى **(وسط هذا المستنقع والحماة من الدم والضراوة والتدمير والعار)** رهان الصراع الحقيقي ، **فقد كانت حكومة دمشق ترفض بصورة لا واعية الاعتراف بصراعنا ـ صراع الحركة الوطنية ـ كثورة حقيقية بسبب يعود بالتأكيد الى ان البعث السوري لم يكن ممثلا الا بصورة اقلية بالنظر الى ضيق حيز تأثيره الشعبي · ولأن صراعنا الذي كان ثورة حقيقية ديموقراطية شعبية تحذو حذو الجزائر واليمن الجنوبي يثير خوف القادة السوريين الذين تقلدوا السلطة عبر انقلاب عسكري ، ويدفعهم الى عدم قبوله او الاقرار به · وتلك حقيقة ساطعة لا سبيل الى اخفائها ؛ فمن شأن** ثورة شعبية ناجحة في لبنان ان تعكر اجواء الانظمة العسكرية ـ التقدمية في المنطقة ·

ولقد نصحت الرئيس الاسد بصراحة بالغة وقلت له: «اناشدكم ان تسحبوا القوات التي ادخلتموها الى لبنان· وتابعوا ما شئتم تدخلكم السياسي ووساطتكم **ودوركم** التحكيمي· فانتم على وشك ان تنجحوا. لا بل ان المرء يستطيع ان يقول انكم نجحتم فعلا· لكنكم تريدون الاجماع . والاجماع مستحيل· ان الفريقين كليهما يريدان السلام الان وهما على وشك الاتفاق عليه· وبذا سيصبح تحكيمكم السياسي اوفر ضمانة في النجاح اني لا انصحكم بالوسائل العسكرية. فنحن نريد ان نكون مستقلين· ونحن لا نريد ان نكون دولة ذنبا. ولا نريد الاتحاد على النحو الذي يبشر به ممثلو حزبكم البعث في بيروت· ذلك ان اسرائيل ستنقلب في النهاية على هذا الاتحاد. وتقوم اما بغزو جزء مهم من لبنان الجنوبي (وقد بدأ التدخل الاسرائيلي فعلا بانشاء مسورة مسيحية على الحدود) لتوجد لنفسها حدودا آمنة كما تزعم. ثم لا تسمح لكم بالاحتفاظ الا بجزء صغير من لبنان. مع دولة مارونية تقام في مكان ما من الجبل. او انها تهاجمكم مباشرة لان سوريا الكبرى تشكل خطرا عليها· يضاف الى ذلك ان اوروبا لن تقبل بسهولة باقتسام بلدنا الصغير وتحويله الى بولونيا جديدة او الى

تشيكوسلوفاكيا جديدة»· ثم اوضحت بعد ذلك كلامي وقلت **«ولا تظنوا اننا اخصام الوحدة العربية، بل على العكس· فنحن الحزب الوحيد الذي قدم برنامجا اتحاديا ودستورا فيدراليا عقلانيا الى مختلف رؤساء الدول العربية· لكنه اتحاد في الحرية· فنحن لا رغبة لدينا في السجن السوري الكبير· وعندما تسلكون سبيل الديمقراطية السياسية في سوريا، وحينما تقيمون ديمقراطية حقيقية على الغرار الغربي، فاننا سنكون اول من يطالب بجعل لبنان جزءا من الاتحاد السوري ـ اللبناني»·**

ولعل كلامي ازعجه بعض الشيء. الا انه الكلام الذي كنا نقوله في كل مكان· ففي كل مرة كنت اذهب فيها الى مصر لدى الرئيس السادات الذي تربطني به صداقة تعود الى عهد بعيد (الى العهد الذي كان فيه رئيس المؤتمر الاسلامي ثم بعد ذلك رئيس الحركة الافرو ـ آسيوية) كنت اشدد ابدا على الاهمية التي نوليها لتطبيق الديموقراطية في مصر وفي المشرق العربي· وعلى اي حال. فان الرئيس السادات بدأ حركة ليبرالية «عريضة» صحية· فثمة ثلاثة احزاب في مجلس الشعب المصري الجديد (مجلس النواب) ولا اقل من ثلاث شرائح (او منابر) في الحزب الواحد (الاتحاد الاشتراكي) هي اليسار والوسط واليمين· وقد منحت الصحافة المصرية حرية نسبية. بل لعلها تصير في بعض الاحيان ـ شأن ما كان الحال عليه سابقا في لبنان ـ فضفاضة بعض الشيء· واعتقد انه مع ارتقاء مصر الى الديموقراطية. فاننا نستطيع الحفاظ على ديموقراطيتنا اللبنانية على الرغم من قانون التكميم النسبي للصحافة. الذي فرضته سوريا علينا·

وثمة تفصيل بسيط نورده هنا عرضا: لقد بشرتنا اسرائيل بصوت رئيس وزرائها اسحق رابين. ورئيس اركان حربها مردخاي غور. بان العاصفة على وشك الانفجار وذلك قبل ان يحين زمن العواصف بثلاثة شهور· كان الصوت الاستفزازي المتنبىء يقول لنا: ستكون ثمة اضطرابات ستنشب حرب داخلية فيما بين اللبنانيين انفسهم وفيما بين اللبنانيين والفلسطينيين «··· ففي لبنان سيكون انتقامنا من الفلسطينيين. وسيكون انتقاما غير مباشر. بل عبر اثارة حرب اهلية ضدهم»··· وقد حدثت الحرب الاهلية· ولانزال نتابع ابدا وبعناية. تصريحات وملاحظات السلطات الاسرائيلية. لنعلم اين اصبحنا. متابعة المترقب. لنشرة الاحوال الجوية· فعندما كانوا يقولون . ولعدة مرات في خلال هذا النزاع الطويل «ستكون ثمة فترة سلام» فاننا كنا على ثقة باننا سنتمكن. ولو لشهر على الاقل. من تضميد جراحاتنا· وعندما يقولون ان الحرب ستعود الى سابق عهدها. فاننا كنا نتيقن بان الحرب ستنفجر مجددا·

اما موقف الاتحاد السوفياتي، فيجب ان نقول بصراحة انه لم يكن واضحا تماما في البداية· فقد كان يتردد ـ كما اشرت الى

ذلك - **ويوارب في اتخاذ موقف.** والحق هو ان ذلك امر مفهوم: ذلك ان المشاكل اللبنانية كانت تبدو بالغة التعقيد للجميع. وبطبيعة الحال فان الاتحاد السوفياتي كان يشعر بان الحركة الديموقراطية اليسارية التي هي الحركة الوحيدة التي تعد حقيقة بالخير في العالم العزبي، قد ولدت في لبنان. **ولعل السوفيات لم يكونوا بالغي الرضى والارتياح ازاء نزعتنا الديموقراطية القوية، على صعيد المؤسسات السياسية.** الا ان ثمة اليوم كثيرا من الاحزاب في العالم كله - بما في ذلك الاحزاب الشيوعية - تجد الكثير من المآخذ ازاء التطبيق الموسكوبي للاشتراكية الماركسية، وتلك مثلا هي حالة الشيوعيين الفرنسيين والايطاليين. فقد بات مفهوم الكتلة التاريخية الجديد يحل هنا وهناك في الممارسة، محل نظام، ظل يرتكز حتى الان - وحصرا - على البروليتاريا ومبدأ **ديكتاتورية السلطة الثورية**، ذلك المبدأ الذي يلقى حاليا معارضة قوية. وقد يكون بوسع المرء ان يقبل بامكان تبرير حكومة آمرة ومتحكمة على كل المستويات، شريطة ان تظل تحترم حريات الانسان الاساسية. ذلك ان هذه الحقوق والحريات تمثل بالنسبة الى الانسان مكسبا ذا اهمية لا تقدر، في صراعه التاريخي التحرري، ان على الصعيد الفردي، او على الصعيد الجماعي. **ويقيننا انه ليست للسلطة الثورية ولا ينبغي لها ان تضع نفسها، على هذا الصعيد، في وضع رجعي متقهقر يوازي الاعتداد الى روحية القرون الوسطى.** وبطبيعة الحال فانا لازلنا بعيدين عن هذا المطمح، لكن سيأتي اليوم الذي تتبنى فيه مختلف الاحزاب الشيوعية والاشتراكية في العالم، وجهة النظر هذه. اذ ما جدوى الخبز بدون الحرية؟

فاذا تعدينا هذا، فانه يمكن التأكيد بان الاتحاد السوفياتي كان ينظر نظرة رضى الى هذا التعاون العملي الذي لا دغمائية (جمود عقائدي) فيه، بين الحزب التقدمي الاشتراكي اللبناني وبين الحزب الشيوعي اللبناني وسائر الاحزاب والفصائل اليسارية. ولعل «برغماتيتنا» او واقعيتنا الثورية وروح المغامرة المحسوبة لدينا كانت **تحنقهم**، بمثل ما كان يربكهم صديقنا القديم الرئيس الاسد وعدد من قادة العالم العربي الذين اندفعوا - وكأن الامر محض مصادفة في حين انه انتهازية سياسية - الى الاشتراكية وهووا اليها. لكن ذلك حكاية اخرى... **الا ان صداقتنا للاتحاد السوفياتي والعالم الشيوعي، تظل صداقة ثابتة ابدا.** كنا نخاطر بعدوى البلدان التقدمية في العالم العربي، بميكروب الحرية، وهو ميكروب حري بان يوقظ - كما رأينا في مصر - عملاق القومية العربية التوحيدي، وروح الانعتاق لدى الشعوب الخاضعة لانظمة القوة هذه التي تفضي الى المستنقعات السياسية المعلومة. ثم ان موقفنا الحازم في استقلاليته، وطريقتنا في الهجوم هنا وهناك، غير عابئين بروح التسوية التي تسود العالم العربي والتي تشكل جوهر الاتفاق مع الدولتين العظميين.

كانا من شأنهما ان يجذرا الرأي العام العربي بصدد مشروع حل المشكلة الاسرائيلية - العربية - الفلسطينية. كان في وسعنا ان نهز جميع هذا العالم الذي تعيقه وتعرقله «مشدات» الانظمة العربية العسكرية المتحكمة - واوشك ان اقول الفاشية. فهذا العالم العربي، الاعزل الذي اخمده افيون الايديولوجيات الحاكمة، والغاز الخانق المنوم، عنينا روح الانتهازية والتسوية الخرقاء، والتي سبق ان عرضنا لها بالنقد، نقول ان هذا العالم العربي كان سيصاب بعدوى تطلعنا الى الحرية السياسية، بحيث انه سيصبح حينذاك قادرا، على الاقل، على المطالبة بالتطبيق الكامل لقرارات الامم المتحدة لعام ١٩٤٧، اي لعودة جميع هذا الشعب من اللاجئين الفلسطينيين، مصحوبا بحقوقه السياسية، الى بلاده في اسرائيل ، اي الى الـ٤٦ بالمائة من فلسطين التاريخية وليس الى العشرين او الخمسة والعشرين بالمائة التي يخصصونها اليوم نفاقا ومراءاة، لاقامة الدويلة الفلسطينية العربية. **واذا فانه كان سيعاد النظر بكل شيء وربما بجنيف كذلك...**

كان الاتحاد السوفياتي ينصحنا دائما بالابقاء على صلاتنا الحسنة بسوريا، مع الاحتفاظ بافضل العلاقات مع الثورة الفلسطينية. فقد كان هذا التحالف الثلاثي يشكل في نظر السوفيات ضمانا للسلام والتقدم في هذا الجزء من المشرق. ولقد تابعنا هذه السياسة طويلا من دون ان يؤدي بنا ذلك الى قطع علاقاتنا بمصر والعراق والبلدان العربية الاخرى. **وظللنا على هذا الحال الى الحين الذي انقلبت سوريا فيه بالكامل على الحركة الوطنية اللبنانية، انقلابا لا يوازيه في ابهامه، الا فجائيته، حتى ولو كنا نحن احزاب اليسار اللبناني، ومنذ زمن بعيد، الابن المزعج لهذه المنطقة العربية.** كان الحزب التقدمي الاشتراكي قد اوقف الحديث عن الامبريالية بمناسبة وغير مناسبة وعن ايرادها مرة كل ثلاثة او اربعة اسطر في خطبه على طريقة الذين يمارسون الايديولوجية الخادعة السطحية الجارية. وكذلك، فان عددا من اصدقائنا الاشتراكيين او الشيوعيين قد تعافوا على غرارنا نحن من هذا التزمت اللفظي. فحين ينبغي الحديث عن الامبريالية، فاننا نفضل التسمية الصريحة: اي الولايات المتحدة والقوى المعنية الاخرى.

ولقد بذل الاتحاد السوفياتي قصاراه، فيما يبدو، لدعوة السوريين الى الحكمة وتقريبهم من وجهة نظرنا. كما فعل الامر ذاته، فيما بعد، حين حاول تسكين غضبهم علينا لرفضنا ان نكون مجرد بيادق على رقعة شطرنج العالم العربي، وتأجيلنا الموافقة على المقترحات السورية الاخيرة بشأن المهادنة - من دون ان نرفض هذه المقترحات واصدقاؤنا جميعا على ذلك شاهدون - **كنا متمسكين بمبدأ ان اللبنانيين اولى بمعالجة**

شؤونهم الخاصة مباشرة من السوريين: فهم ادرى بالموضوع واعرف. وبطبيعة الحال **فاننا كنا نعلل النفس بامل وطيد هو ان يتحرك السوفيات ذات يوم لدعمنا بصورة اقوى من العادة. كنا ننتظر دائما موقفا مبدئيا وعمليا من جانبهم، يكون اكثر حزما وقطعا ومؤكدا رسميا ولا سيما حين عبرت قوات «فيليب السوري» حدودنا.** وقد كنا نورد في تلك الفترة هذه المقارنة بين السوفياتي وبين الدب القطبي فنقول: ان الدب القطبي يتأخر حتى ينتفض. ولكنه اذا ما فعل ونهض يسير. فقد قضي الامر وكان الله في عون من يقف في طريقه. ومن المعروف كم كان تعلق لينين بنظرية وتطبيق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها. **وكنا نأمل كشعب اسطوري** (افلا يزال العرب الى اليوم ابطال الاسطورة؟) **ان نرى الى الصوفي الروسي وهو يهوي بقبضته على الطاولة ويقول للسوريين غير آبه باحد: لا ولا، ولا.** اذ كيف كان للشيوعية، من دون التصوف الروسي السلفي (او ما كان لينين يسميه الاندفاع او الحمية الثورية الروسية)، ان تضرب بجذورها في الاتحاد السوفياتي؟ واذا فان الاسطوري فينا (افليس ان الاشتراكية والشيوعية والقومية العربية اساطير؟) كان يؤمل من الصوفي الروسي وفيه. **وكنا في كل اسبوع تقريبا، نوجه الى السوفيات بيانات سياسية وصورا عن الموقف.** وكانت مناقشاتنا مع ممثليهم **واضحة وصريحة.** لا بل ان احد اعضاء المكتب السياسي في الحزب الشيوعي اللبناني قام بزيارة موسكو. **كما تدخل الحزب الشيوعي الفرنسي لصالحنا.**

وفي النهاية فان موقف الاتحاد السوفياتي ازاء السوريين، اصبح اكثر تصلبا نسبيا، لكنه ظل دون الحزم المبدئي الذي كنا نؤمله. ربما لاننا كنا مثاليين باكثر مما ينبغي، او اكثر سذاجة مما يجب وكلا الامرين سواء، او أننا ظننا ـ ومن حق كل ثوري ان يخلي بين نفسه وبين مثل هذا الظن ـ أننا سويداء قلب هذه المنطقة من العالم. وعلى اي حال فان المنذور كان يستحق النذر. غير ان السوريين ما كانوا ليقبلوا ذلك منا الا كارهين. فقد كان في تقديرهم ان بوسعهم ان يتصرفوا تصرف ابناء السوفيات الاثيرين لاسيما بعد فقدان النفوذ السوفياتي في مصر الساداتية. والروس عاطفيون. وقد اصابهم التحول المصري عنهم، في الاعماق. ويبدو انهم لم ينسوا شيئا. وان كان ذلك سيؤدي الى تعريض واحراج قدر مهم من دبلوماسيتهم في الشرق العربي. ذلك انه لا يزال صحيحا ان مصر تظل، اذا ما جرى تعهدها، بصورة افضل، وفهمت على نحو اوفى، وزودت بالرساميل والاسلحة على وجه اكمل، نقول انها تظل محورا اوليا ومركزا قادرا على الاستقطاب والجذب في الاطار العربي والشرق اوسطي بل والافريقي. اما مصر

الساداتية فقد كان عليها هي الاخرى، ان تكون اكثر صبرا واوفى تفهما. فالسوفيات مضطرون لاخذ مصالحهم كدولة كبرى بعين الاعتبار، اضطرارهم لاخذ «عالمهم الثالث» السيبيري في الاعتبار ذاته. وبالتالي فانهم محتاجون الى الرساميل النفطية، حاجتهم الى «الكهرباء» التي تحدث عنها لينين. واذا كان وضع السوفيات لا يزال غير مربح في الشرق الاوسط، فان **خطيئة ذلك كانت ولا تزال تقع على عاتق الذين يبدون التخوف اللامتبصر من الشيوعية وتحفظهم ازاء كل ما هو سوفياتي.** فالروح الاسطورية العربية تلعب في هذه الحالة الخاصة، دورا مضادا للمصالح الحقيقية للشعوب العربية. فالبرغماتية الاميركية هي التي تحصد عمليا الارباح من دون ان تعيد البذار، في حين ان الشيوعية الماركسية بصدد التغير تغيرا بطيئا لكنه ثابت واكيد. **والطفرة الفجائية النهائية، قريبة. وسينتهي الامر بالحرية الى الغلبة، تحملها ايدي الشريحة الجديدة الواسعة من انتليجانسيا العلماء والفنانين والمثقفين على مختلف الاصعدة، ثم يتبعها المواطنون انفسهم.**

ولقد كان ينبغي للسوفيات الذين حملوا الينا الكثير، ان يجازوا في المقابل بشيء من العرفان بالجميل ومن الامتنان، اوفى مما جوزوا به. فذاك ادنى **متطلبات الاخلاق.** لكن هيهات. فما من دولة او من امبراطورية عبر التاريخ، قبضت بيديها على مقادير من المال والقدرة والطاقة والمهابة والنفوذ بقدر ما تهيأ للدول النفطية العربية التي كان يشرفها ان تستخدم هذه الطاقات في القضاء على الفقر والتخلف والبؤس في مصر واليمن والسودان وفي كل مكان من افريقيا او اسيا. وثمة مئات الملايين من المعدمين في مختلف انحاء المعمورة ينتظرون ان تخلصهم البترودولارات من الجوع. وانا اتحدث هنا عن عون كثيف مبرمج، لا عن تلك الصدقة الحقيرة من بضع المليارات او من بضع المئات من الملايين من فتات موائدهم. ونحن كنا ولانزال نعتقد انه يجب الخلاص من مشهد اصحاب المليارات العرب المعيبه، الذين يلهون لهوا فاضحا شأن المجانين اللانسانيين، او الذين ينفقون أموالهم تبذيرا شأن فيبار او فيسباسيان (الرومانيين) اللذين كانت لذاذاتهما في أكل اطباق من محض السنة الدجاج. وهذا الذهب الذي يحتاج اليه مليارا انسان حاليا على سطح الارض، يعيب العرب ويزري بهم في ناظري كل وجدان صاف، عربيا كان او غير عربي. واية رافعة كان بامكان هذا الذهب وهذا النفط ان يكوناها لتحرير فلسطين كلها ـ سلما أو حربا ـ واقامة اتحاد عربي ـ يهودي على كامل امتداد ارض الميعاد.

ويبقى انه من اللحظة التي تنازلت فيها أوروبا والولايات المتحدة عن

دورهما، ووضعنا جانبا مبادىء القانون الدولي العام الاساسية والغالية على العالم الثالث، من اجل اتباع سياسة مصالح على الفرار المترنيخي، فان الاتحاد السوفياتي يظل بالنسبة الينا الضامن الوحيد للبنان المستقل، والداعم الامين للحركة الفلسطينية والمدافع عن حركات التحرر في العالم اجمع بما في ذلك حركتنا الوطنية اللبنانية. وفي ما ذكرنا ما يوضح كم ازعجنا القوم وكم ضايقناهم. لكن لنطو كشحا عن طلباتنا التي ذهبت من غير طائل الى الاتحاد السوفياتي لكي يرسل مركبا مدنيا صغيرا مشحونا بالمواد الغذائية ليخترق الحصارات البحرية الاسرائيلية والسورية التي كانت ممتدة على طول شواطئنا وتأخذ بمجامع انفاسنا. كانت مقالات البرافدا والازفستيا تسهم في تشجيعنا وتعزيتنا. لكننا - واكرر ذلك - **كنا ببساطتنا الساذجة نطالب اولا ببيان مبدئي حازم واضح من جانب حكومة الاتحاد السوفياتي، اي بضرب من الانذار الذي كان سيضع حدا للاحتلال السوري.**

ولا بد من التذكير باننا كنا نشعر **بأن الملأ كله تخلى عنا، وان الارض التي حررناها تقلصت تقلص الوجه الكئيب، ثم لم تن تضيق وتتحجم، ومع هذا فان الاتحاد السوفياتي ترك هذا الوضع يتفاقم. ذلك ان كل دولة كبرى هي في النهاية اسيرة مصالحها القومية المباشرة.** وفي ذلك من التعاسة ما فيه، ولكنه كذلك هو الواقع، ان مصلحة السوفيات الحقيقية كانت في دعمنا دعما كاملا، اولا لتأكيد مبدأ، وثانيا لرؤية الولادة التدريجية في لبنان لاول مجتمع اشتراكي حر. **لقد كنا الرافعة التي كان بوسعهم ان يغيروا بها وجه العالم العربي واسترجاع الصداقة المفقودة لدى كثير من الدول العربية، وتدعيم علاقات التعاون مع الشرق الاوسط.** فقد كان بوسع لبنان ديموقراطي ذي اشتراكية معتدلة ان يشكل - فيما يتعدى الماركسية - ثورة حقيقية بالنسبة الى مختلف البلدان العربية، لانها كانت ستكون الثورة الاشتراكية الحقيقية، لا اشتراكية كافة هذه الانظمة ذات الطغم العسكرية، النيوفاشية، من كل ما هب من الجهات ودب من الاحزاب. فالنظام العسكري لا يمكن ان يكون نظام ديموقراطية اشتراكية. ولا يمكن للروس او الاوروبيين او الاميركيين الا ان يفيدوا من الدعم الذي يقدمونه في المشرق العربي للديموقراطية السياسية، في حين ان الانظمة العربية التي يدعمونها هي نسخ رعناء غير مستقرة، عن فاشية جديدة اقلية عسكرية تنتحل الاشتراكية. والهر يظل هرا ابدا ويستحيل ان يصبح فأرا. فلماذا اذاً الاقبال على أمر لن يكون على المدى الطويل إلاصفقة خاسرة ؟

والحق اني لا ادري ما اذا كان السوفيات يتمنون حقا وصدقا

ترسيخ الاشتراكية في المنطقة. وعلى اي حال فالى اين كان سيمضي السوريون، لو ان السوفيات كانوا عازمين حقا على فرض احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها معترضين صراحة على اي احتلال لارضنا؟ فكل سلاح السوريين سوفياتي كما انهم مدينون بقرابة ٤ مليارات للروس. غير ان الاتحاد السوفياتي لم يفهم في النهاية ان السياسة السورية كانت قد باتت في منتصف الطريق المؤدية الى المعسكر الاخر.

واذا، فهل حققت المؤامرة اهدافها؟ اني لا اظن ذلك. اذ لا يزال امامها نزع سلاح اللبنانيين والثورة الفلسطينية وتكميم الرأي العام. وحرية الرأي والديموقراطية في لبنان هما عائق يقف في سبيل اية تسوية جزئية للمشكلة الفلسطينية، وكل ذلك بهدف واضح هو توطيد نظام دمشق والبلدان التي تستعد للمباخسة على القضية الفلسطينية.

وفي الافق يلوح مؤتمر جنيف والتقسيم المحتمل للبنان. فالمؤامرة مستمرة.

... وكان الدُّروز

... وانا درزي تتصل ارومتنا اللبنانية بالمختارة تلك القرية الشوفية الصغيرة التي يقع فيها قصر عائلتنا. وغالبا ما اسمى انا هنا «بسيد المختارة» بحيث ان البعض يضع في التسمية ظلال سخرية كما لو كان ذلك يتناقض مع واقع كوني زعيما تقدميا. وانا اقبل هذا النعت واطرح النوايا. فلا بد للمرء من ان يكون سيدا بالمعنى الحقيقي للكلمة. ذلك ان معنى كل حياة هو ان يكون المرء سيد نفسه.

والمختارة المتشبثة بصخورها هي مقر بني على مراحل عبر مائتين وخمسين سنة من التاريخ. فقد حل اجدادنا الذين هبطوا من شمال سوريا اول ما حلوا في مزرعة الشوف لاجئين في مغارة صغيرة. حدث ذلك بعيد قيام احد اجدادنا وهو الامير جانبولاد (الاسم الكردي لعائلتنا) بانشاء امارة كبيرة، اي مملكة صغيرة في شمال سوريا تشمل حمص وحماه وحلب ودمشق وجزءا من تركيا الاناضولية. وقد افلح في الحفاظ على استقلال امارته بضع سنوات. وعقد عدة معاهدات مع الفاتيكان ودوقية توسكانا واسبانيا والدويلات المسيحية التي كانت قائمة انذاك. متلقيا في مقابل ذلك دعما سياسيا. وعسكريا كالمدافع وبعض الاسلحة الاخرى. ظلت المعاهدة التي عقدها مع دوقية توسكانا في العام ١٦٠٧ شهيرة في تاريخ هذه المنطقة الصغيرة. كما كان يبدو على اوروبا الاهتمام بقيام هذه الامارة على حيز من المكان طالما اكتسى اهمية استراتيجية كبرى عبر التاريخ. كان جدي علي جانبولاد اول من منح مسيحيي سوريا في الشرق حصانة واولاهم الحقوق ذاتها والحريات نفسها التي كانت لبقية الرعايا العثمانيين. وكان يستقبل السفراء في بلاطه كما سك النقود باسمه. ولكنه عزل في النهاية بعدما هزمه جيش تركي قوامه ٣٠٠,٠٠٠ جندي يقوده رئيس الحكومة نفسه الصدر الاعظم. وهكذا وجد نفسه لاجئا في مزرعته الشوف مع عائلته الصغيرة. واصبح اعزلا مجردا من كل شيء. ذلك انه جرت مصادرة مختلف املاكنا في سوريا ولم يبق لنا سوى مقر اسلافنا من العائلة الجانبولادية؛ غير ان جدا اخر من «اجدادنا» هو رباح جانبولاد عاد فتزوج من فتاة ثرية من آل القاضي كانت وحيدة ذويها الذين كانوا دروزا ويسيطرون على كامل الصقع اجتماعيا ودينيا. وبعد وفاة والد تلك الفتاة، افضت ايلولة ذلك كله الى يدي علي جانبولاد بحيث بتنا نتملك قليلا من خيرات هذا البلد. ثم ان جدا اخر من اجدادنا هو الشيخ علي جانبولاد اكتسب بعد ذلك نفوذا كبيرا... فقد كان رجلا حكيما . كما كان الى ذلك «شيخ مشايخ» وفقا للتسمية التي تطلق على الرجل المقدم من رجال الدين الدروز، بمعنى انه كان رئيس المشايخ الاربعة الاخرين. ومن هنا جاء لقب شيخ عقل الدروز. وقد حقق لنفسه بعض الشهرة نتيجة لعاداته الدرزية الاصيلة وتقاه وحكمته، الامر الذي اتاح له ان يحظى بوزن سياسي مهم؛ فقد كان اقرب الى ان يكون حكما بين امراء تلك الحقبة، اي بين **الامراء الشهابيين**، الذين لم يكونوا ينفكون عن الشجار والتناحر فيما بينهم. وكان يوفق في بعض الاحيان الى ان يفرض السلام في وادي الشوف الكبير الذي لجأ الدروز اليه تدريجيا عبر التاريخ.

فقد كان الرواد الاوائل قد استقروا في وادي التيم، اي في منطقة راشيا - حاصبيا، وهو واد كبير اخر يقع على سفح سلسلة جبال لبنان الشرقية. ويشكل هذا الوادي استمرارا لوادي البقاع في الجنوب، وجد الدروز فيه المهد الحقيقي الذي احتضن مذهبهم. ومن وادي التيم، راح الدروز يتغلغلون باتجاه هذه **المنطقة الشوفية** مزيحين عنها الشيعة الذين كانوا قد سبقوهم اليها. ثم ان بعضا اخر من اجدادنا جاؤوا منذ القرن الثالث عشر، استقروا في منطقة سن الفيل القريبة من بيروت منتشرين حتى المتن لاعلى ووادي حمانا الذي احتلوا كلا جانبيه. الى حدود **منطقة كسروان** التي تلي بكفيا وبيت مري. وقد عاشوا هناك بضعة عقود من السنين قبل ن ينهمر عليهم مماليك ابراهيم باشا والي مصر ويثخن فيهم. **كان ذلك ي العام ١٥٨٥ حيث لاقى نحو من ٦٠,٠٠٠ درزي حتفهم.** الا ان عددا اخر من الدروز اتخذ لنفسه في تلك الحقبة ذاتها موطىء قدم في منطقة الغرب المحيطة بعاليه. وهكذا، فقد راحوا يتغلغلون في الجبل في حوالي سنة الف...

وقد بدأت عائلتنا بحكم لبنان في ايام الامير فخر الدين. ثم راحت تزداد بعد ذلك قوة على قوة. لكن متى تراها اعتنقت المذهب الدرزي؟ انا لا نعرف لذلك اجلا ثابتا. ذلك ان العقيدة الدرزية بالغة الوضوح بهذا الصدد. فمن المتعارف عليه، انه ليس لمن لا ينتمي الى هذه النحلة الباطنية ان ينتحلها ويصير درزيا. ثم ان باب الدعوة لم يفتح الا ابان خلافة الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله في حدود السنة الف. ثم اقفل باب الدعوة بعد ذلك... واذا فلعل اجدادنا كانوا قد سبقوا الى المذهب الدرزي يوم كانوا لا يزالون يعيشون في منطقة حلب. ومن شأن هذه الفرضية ان تفسر وجود نحو من ٦٠,٠٠٠ درزي في هذه المنطقة من الاناضول في جنوبي تركيا، ووجود ٢٠,٠٠٠ درزي اخر في الشمال السوري (جبل علاء).

وانطلاقا من عهد الامراء الشهابيين - اي لثلاثماية سنة خلت - بدا الجنبلاطيون الخوض في غمار السياسة اللبنانية بصورة نشطة؛ اذ الواقع هو ان هذا الامر كان قد اصبح سنة متبعة في العائلة. والى ذلك، فقد كان بعض من ابنائها ائمة واحبارا (حرفيا بطاركة) من احبار المذهب الدرزي. **فقد اكتسب جدي الاعلى، علي جنبلاط، بنقاء سيرته، شهرة في التزهد الديني بحيث بات ينسب اليه عدد من المعجزات، منها مثلا اعطاء الحوامل خرقة من قميصه تساعدهن في الوضع....** فبوسع كل انسان ذي نزاهة ازاء نفسه وازاء ما يسمى بنه، ان يجترح آية اصيلة تتوافق وحقيقته. وهذا ما يطلق عليه عادة اسم المعجزة. **واذن فقد لعب اسلافنا دورا كبيرا ابان الحقبة الشهابية.** بل الواقع هو انهم هم الذين كانوا يحكمون لبنان حقيقة ابان حكم الامراء الشهابيين، على شاكلة ما كان الامر بالنسبة الى ريشيليو في فرنسا. ومرد قناعتهم بهذا الدور هو ان الامارة تقتضي الانتماء الى سلالة الامراء الذين يحكمون لبنان. ولقد ضحكت لهم الايام في بعض الاحيان، كما انقلبت عليهم في

احايين اخرى عبر تاريخ هذا البلد الصغير. وهكذا لعب الدروز، عبر جنبلاطيين، وبعض العائلات الاخرى، دورا رئيسيا في تكوين ما يسميه الاب يواكيم مبارك «استخلاص الفكرة اللبنانية». اذ الواقع هو ان هذه الفكرة، وهذا النزوع الى الاستقلال انما هو عمل الدروز، باعتبار ان هؤلاء كانوا يستطيعون ان يبيحوا لانفسهم - باعتبارهم نحلة من النحل الاسلامية - بعض الحرية ازاء الاسلام وازاء الامبراطورية العثمانية. الامر الذي كان يمكنهم من تنظيم ضرب من الدولة الصغيرة المستقلة عن تركيا تلك الايام. **كما ان كفاءاتهم القتالية فرضت احترامهم على الجميع.**

وانما وضع اولى مداميك لبنان السياسي المستقل بنو معن وبنو تنوخ، وهما عائلتان درزيتان حكمتا لبنان كلتاهما منذ الالف الاول للميلاد.

ولم تكن العائلات الدرزية دائمة الاتفاق فيما بينها. الا ان المتنافسين كانوا يسرعون الى التحالف بمجرد ان تطرأ امور تتهدد مصير الدروز ومصير لبنان الذي كان في طور التكوين. فاذ ذاك تصبح هذه الاسر كتلة واحدة. وقد اباحوا ولوج الموارنة خصوصا والمسيحيين عامة، الى مناطق كسروان والمتن في شمالي جبل لبنان والى منطقتي عاليه والشوف اللتين يشكل الدروز بنيتهما السياسية والقتالية. وكان يصل ما بين هذه الامارة نصف المستقلة وبين الاسلام السياسي، خضوعها للباب العالي وذلك في الوقت ذاته الذي كانت تتمتع فيه باستقلال ذاتي واسع. وكان شأن هذا الاستقلال انه كان يتسع او ينحسر بحسب المنحى الغالب وبحسب قوة او وهن الامبراطورية العثمانية، وبحسب توازن القوى في المنطقة. وهكذا فقد



ولعب الدروز دورا في تكوين ما يسمي الاب يواكيم مبارك « استخلاص الفكرة اللبنانية

لعب الدروز دورا مهما في كل ما كان من شأنه الحفاظ على ضرب من ضروب الاستقلال. كما كانت وظيفتهم هي حماية الساحل والحفاظ على مرافىء صيدا وصور وبيروت من اي هجوم خارجي.

ولقد كان ينبغي لهذه الفكرة السياسية الدرزية عن لبنان، اي لبنان متعدد الطوائف بغلبة سياسية درزية ومحمدية، ان تكون في اساس ما سينشأ لاحقا ويطلق عليه بعد العام ١٩١٧ لبنان الكبير. كما كان ينبغي للبنان ان يقوم على اساس ذلك المفهوم من الاستقلال الذاتي الذي تمتعت به الامارة العربية عبر التاريخ. **لكن الامور لم تجر على هذا المنوال بل جرى انشاء نظام طائفية سياسية احل غلبة مارونية لا مبرر لها بدلا من اقامة دولة علمانية. وقد كان ذلك بلية كبرى وطامة عظمى. والانتداب الفرنسي مسؤول الى حد بعيد عن هذا الزلل...** ثم ان الموارنة حسنوا الادارة في الامور الخاصة، واساءوا في الامور العمومية اذ تمتلكهم ذهنية الطائفة والنحلة والمصلحة والربح. اما الدروز، فانهم لما كانوا ارستقراطية «محاربة» فانهم استدعوا الموارنة للعمل في اراضي منطقتهم الشاسعة، وبهذا اصبح المسيحيون يشكلون بصورة عامة اليد العاملة الزراعية والمزارعة، وامتهنوا الحرف الصغيرة والتجارة. واذا فقد كانوا في تلك الفترة بروليتاريي لبنان الحقيقيين وان كانوا ينكرون اليوم تحدرهم هذا. ولا يعود مرد هذا الوضع الى عجز الدروز عن ممارسة الزراعة بل الى قلة عددهم التي ترتبت عن مجازر العام ١٥٨٥ واضطلاعهم بدور يتجاوز اهميتهم العددية بكثير. واذا، فلم يكن ثمة ما يكفي من الدروز لزراعة كامل هذه الارض اللبنانية، او جبل الدروز كما كان يسمى في التاريخ. ويطلق الصهاينة على الدروز اسم «اقلية القرون الوسطى المقاتلة» ذلك ان تاريخهم كله انما هو عبارة عن حروبهم فيما بينهم او صراعاتهم مع الشعوب الاخرى لاجل الحفاظ على هذا المبدأ او ذاك او لضمان التحالف مع هذا الوالي الذي يحكم دمشق ضد ذاك الوالي الذي يحكم صيدا. وقد لعبوا دور المشاة - المستنفرين ابدا - على هذا الساحل. ويعود السبب في اهميتهم السياسية الى وظيفتهم «الحربية» فعندما كان يصيب هذه الوظيفة بعض التهور، فان ذلك كان ينعكس على اهميتهم السياسية.

وفي لبنان، كان بنو جنبلاط بين اوائل من انشأوا احزابا سياسية على مدى يشمل كافة مناطق البلاد من شمالها الى جنوبها. وكان محازبوهم يدعون جنبلاطيين. وفي مواجهتهم كان هناك اليزبكيون وهم حزب اخر ترأسه بنو عماد الذين كانوا يقطنون الباروك. وقبل الجنبلاطيين واليزبكيين كان هناك الامراء الدروز من معنيين وتنوخيين ومحازبوهم القيسيون واليمنيون. وكان مرد هذه الحزبية في تلك الفترة هو نوع من التحالف الذي قام بين سادة المناطق، الا ان مختلف اللبنانيين - سواء اكانوا مسيحيين ام سنة ام شيعة - كانوا متفقين على اعتبار هذه الاحزاب بمثابة التشكيلات السياسية الشعبية الاولى. وذلك بالنظر الى انها لم تكن

تشمل الدروز وحدهم، وانما ابناء كافة الطوائف الاخرى ايضا. وكانت هذه الحركات ترهص وتمهد لنوع من علمنة السياسة اللبنانية. غير ان هذا التمهيد توقف في اواسط القرن التاسع عشر نتيجة لظهور الموارنة المفاجىء ظهورا شوفينيا منكودا داخل هذا المشروع الحكيم. ولهذا السبب، فان المرء يجد بين الدروز ابدا اناسا ليبراليي العقلية، فخورين في الوقت ذاته بطائفتهم وبميراثهم الديني والثقافي والسياسي من دون ان يورثهم ذلك الشوفينية او التعصب. فلقد طالما عرف الدروز عبر التاريخ بعقليتهم الليبيرالية.

ثم جاءت احداث السنوات الممتدة بين ١٨٤٢ و١٨٦٠، وهي احداث تشبه الى حد كبير احداث هذه الايام، اذ ان ما حدث يومها كان هجمة شنها الموارنة بقيادة الكهنوت بغرض اكتساب امتيازات لم تكن لهم قبل ذلك، ولا سيما لجهة السلطة السياسية. وقد انتهت تلك الاحداث في العام ١٨٦٤ بتفتيت لبنان وتكوين مركز ماروني صغير، يومها، هو لبنان الصغير ذو الوجه المسيحي. غير ان هذا الصراع كان يرتدي في الآن نفسه طابعا اجتماعيا: فالمزارعون والغالبية العظمى من الفلاحين الموارنة كانوا يتطلعون الى الانعتاق من نير الدروز. **ولهذا فان هذه الحروب كانت حروبا دينية واجتماعية في آن معا. غير ان سوء الحظ يشاء ان يكون الجانب الديني هو الذي غلب في النهاية، ومن هنا كان تقسيم البلاد. ولقد شهد العام ١٨٦٤ - اثر التدخل العسكري الفرنسي لصالح الموارنة المغلوبين عسكريا - تفتت الملكية الكبرى الدرزية. فقبل ذلك كان البقاع كله ملكا لهم ومعه قسم كبير من جنوب لبنان والمتن ومنطقة سهل بعبدا، بالاضافة الى جزء كبير من بيروت التي لم تكن يومها اكثر من مدينة صغيرة يتراوح تعدادها بين ١٠،٠٠٠ و١٦،٠٠٠ نسمة. وبمواكبة هذا التفتت الذي لحق بالملكية الدرزية الكبرى اداة سيطرة الدروز، فان العام ١٨٦٤ شهد كذلك اختفاء ما كان يسمى بامارة لبنان التي كان الاقطاع السياسي قاعدتها ودعامتها الاساسيتين. واذا فان هذا الضرب من الثورة - او بالاحرى من هذه العامية الصغيرة - قد اتخذ وجها طائفيا بالنظر الى ان الرؤساء السياسيين الموارنة دفعوه نحو هذا المنحدر الذي لن يستطيع لبنان الخروج منه ابدا. واذا العام ١٨٦٤ شهد وفاة البنية الاساسية للفكرة اللبنانية، اي فكرة لبنان ذي نزعة ليبرالية دينامية ويتعاطى في كافة شؤون الشرق الاوسط، مخاصما هنا وهناك، حاضرا في كافة الحروب، مشاركا في كافة «الطبخات» السياسية في المنطقة. فقد اضاع لبنان حيوية سياسته الخارجية، كما خسر في ذلك كله الآن ذاته بنيته الداخلية التي تؤمن الحرية لكافة ابنائه، بعدما حلت محل ذلك كله الفكرة الطائفية المارونية التحزبية الضيقة، واخلت الامارة المقاتلة مكانها للبنان صغير يكون ملاذا مسيحيا**

«للاجئين النفسانيين». **وعشنا نحن قوميا على هذه الفكرة المشوهة حتى يومنا هذا.** ولقد نزل بنا الفرنسيون فلم يطبقوا مبادىء ثورة عام ١٧٨٩ الفرنسية الكبرى في بلادنا. بل اكتفوا بالحفاظ على توازن كانوا هم اكثر من ساهم في انشائه.

اما الدروز فانهم لم يحتاجوا يوما الى حماية. ومع هذا، فانه كانت لقسم منهم صلات جيدة مع الفرنسيين. فقد استند هؤلاء طوال فترة انتدابهم على الموارنة اول الامر. ثم على هذه الشريحة من الدروز التي لا بد لنا من الاعتراف بانها كانت مهمة. وكان هدف هذا الدعم للدروز هو احياء تحالف تاريخي يكون من شأنه انشاء قاعدة سياسية تستقر الدولة اللبنانية الجديدة عليها. وهكذا، فقد جرى بعث لبنان الكبير، المتحدر من سنن وتقاليد قديمة ومن ارادة الجنرال غورو والبطريرك الحويك وبعض زعامات مارونية تلك الايام من امثال اميل اده وبشارة الخوري. وعلى الرغم من ان لبنان الجديد هذا، كان اكثر امتدادا من الناحية الجغرافية من سلفه، الا انه ظل مرتكزا الى هاجس الحفاظ - بصورة غير مباشرة - على الموئل والملاذ الماروني الذي كان يمثله لبنان الصغير. وانما امكنت المحافظة على هذا الموئل الديني - السياسي بفضل ضرب من التمييز في المشاركة في السلطة السياسية، وخصوصا في نظام التمثيل الوطني. وكانت تلك خطيئة الفرنسيين الذين لم يكونوا يتوخون سوى بقائهم على هذا الشاطىء. ان كافة اوجاعنا الحالية نابعة عن هذه الطائفية السياسية. واحداث هذه الايام هي الجواب عن احداث سنوات ما بين ١٩٤٢ و١٨٦٠، ولكن في وجهة معاكسة. **فما يجري اليوم هو حملة صليبية يشنها المسلمون قاطبة، والمسيحيون الوطنيون من اجل علمنة الدولة اللبنانية والغاء الطائفية السياسية وانشاء دولة موحدة على اساس مدني.** ولهذا السبب فان احداث هذين العامين (١٩٧٥ - ١٩٧٦) - وهي الجواب عن **احداث العام ١٨٥٩ - تمثل بالنسبة الينا ضربا من ثورة ١٧٨٩، ولكن على الطريقة اللبنانية بحيث تمتزج فيها البطولة بالبشاعة. والحق هو ان التقسيم الحالي للطوائف السياسية والدينية اللبنانية، تذكر بالتقسيمات القديمة الى ما كان يسمى بالطبقات في فرنسا ايام النظام القديم فهناك الكهنوت والارستقراطية والعامة. فنحن حاليا ازاء تمرد العامة والبرجوازية الصغيرة على البرجوازية العليا المارونية الحاكمة.**

... وفي اقل من قرن ، انتقل الدروز من وضع المسيطر الى وضع المسيطر عليه . والحال ، هو انهم كانوا لعبوا عبر تاريخهم - حتى الان - دورا اهم بكثير من عددهم النسبي . فأما ما أتاح لهم هذه العقبة ، فهو انهم كانوا حينذاك امة منظمة فخورة دينامية محاربة . وينبغي لنا الا ننسى انهم كانوا يمثلون الكنه اليوناني للنظام . ذلك ان الدروز ورثوا في كتبهم المقدسة المستورة من فلسفة فيثاغورس وسقراط وافلاطون والافلوطينية المتجددة . فهم اخذوا عمن يعتد به . ولنضف الى ذلك ان العثمانيين كانوا يستندون ابدا

الى البنية الاقطاعية الدرزية من اجل أن يحكموا البلاد بصورة غير مباشرة . وعندما انتشرت الافكار الديموقراطية مع مجيء نابليون الى المشرق ، وخصوصا ، بعد انشاء مدارس الارساليات في البلاد وافتتاح جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين والجامعة الاميركية . فعند ذاك وعى المسيحيون قوتهم الجديدة في وسط الامبراطورية العثمانية المريضة . وبدأوا باكتساب الثقافة الغربية . وقد اسهم نشوء طبقة مثقفين (انتليجانسيا) مسيحية جديدة اسهاما كبيرا في التغيير. السياسي الذي سوف يتبع بعد ذلك . وبموازاة هذا ، فان اقتصاد البلاد كان يتطور . فقد تحول الاقتصاد الزراعي المرتبط بالارض في لبنان ابان القرن التاسع عشر - شأنه في كل مكان - الى اقتصاد تجارة وحرف والى اقتصاد سوقي . نصبت البرجوازية نفسها فيه طبقة مسيطرة . ففي تلك الحقبة ازدهرت زراعة الحرير والتبغ وانتشرت المغازل انتشارا واسعا . وسيكون من شأن اتصال بيروت بدمشق عبر سكة حديد وطريق سيارات معبدة أن يزيد من تنشيط هذا التغيير الذي وجدت برجوازية المال والتجارة نصيبها الاوفى فيه . ثم ان توسيع مرفأ بيروت بحيث يصبح منفذا حقيقيا للداخل السوري والتغيرات الاقتصادية والسكانية التي نبعت عن استقرار الموارنة في وسط لبنان وفي المتنين والشوف ، كل ذلك مهد الطريق امام قيام نظام سياسي جديد . وبالاضافة الى ذلك ، فان المعونة المالية والسياسية التي تلقاها الموارنة من اوروبا عامة ومن فرنسا خصوصا ، كانت اشبه بالوسيط الحافز ، الذي اتاح لنجم هذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي التألق واللمعان .

وهذا باختصار ، عرض موجز حول مساهمة الدروز والعائلة الجنبلاطية التي كانت اقوى افخاذ هذه الارستقراطية السياسية المقاتلة - في تاريخ هذا البلد .

فاذا ما عدنا الى المختارة ، فان اسمها يعني « القرية المصطفاة » . وهو اسم يذكر بصورة غريبة باسم احدى المدن الصغيرة في جنوب العراق والتي كانت موئل الثورة الاجتماعية الكبرى التي قام بها الزنج ، اي العبيد السود . ويقال ان وراء هذا العصيان تعاليم الصوفية . ولا سيما تعاليم الصوفي الشهير : الحلاج . ولست ادري سبب اطلاق تسمية المختارة على قريتي الصغيرة . ولا العلاقة التي يمكن أن تكون بينها وبين « سميّتها » الخليجية . ويزعم احد كبار الجامعيين الالمان أن بيتنا أو دارنا - كما نقول بالعربية - قد بني على موقع قلعة صليبية قديمة . وقد كان بنو جنبلاط يملكون فيما مضى كافة الاراضي الممتدة بين عالية والشوف . كما ان كافة العائلات الدرزية الكبيرة كانت تمتلك ملكيات كبيرة . قرية أو قريتين أو عشرة ... من حدود كسروان حتى جزين ، ومن هناك الى البحر غربا فالحدود السورية مشرقا . بل وحتى ضواحي دمشق في بعض الاحيان . اما اليوم ، فلم يبق لنا حول المختارة سوى مساحة تتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين هكتارا . وكان لنا فيما مضى دائرة املاك كبيرة قرب البحر ولكن وزعنا قسما كبيرا منها على المزارعين (المحاصصين) . **ولعلنا لا نزال**

اكبر الملاكين في المختارة ، لكن كل الناس فيها يملكون شيئا ما . وثمة ملكية كبيرة اخرى في المنطقة يملكها المشايخ من آل حصن الدين الذين كانوا في ايام اجدادنا رؤساء الديوان في القصر الجنبلاطي . وقرية المختارة هي قرية مسيحية في نصفها ودرزية في النصف الآخر . وفي ذلك ما يشهد بالاهتمام الذي كان لأسلافنا في اقامة المسيحيين بين ظهرانيهم . فقد كان بعضهم موكلا بادارة املاكهم وبمساعدتهم في اعبائهم السياسية حينذاك . وقد كان اصحاب الاقطاعات الدروز يتوسمون فيهم الذكاء وروح الخدمة . ولعلهم كانوا يجدونهم أكثر تقدما من الناحية الثقافية من الآخرين . **والحاصل هو أن تكافلا وتعايشا بين المسيحيين والدروز والسنة والشيعة ، اي بين الطوائف الدينية الكبرى في البلاد ، كان في طور الاختمار .**

وفي ايام الآحاد يتحلق اهالي الجوار حولنا في دارتنا . وافدين الينا من كل مكان ليسائلونا . كيف حال السياسة ؟ « وهل ثمة جديد ؟ » فأنا في النهاية اقرب الى ان اكون جريدتهم الناطقة والمحرر الذي يحتاجون اليه . وهم يفدون ليستشيرونا في شؤونهم الخاصة . ويقدمون الينا شكاواهم . أو لانهم يريدون تحقيق هذا المشروع أو ذاك في قريتهم . ويطلبون رأينا في كل المجالات . بما في ذلك المجال الطبي في بعض الاحيان . كما انهم يؤملون كثيرا في معونتي . **فبالنظر الى انى نائب وأمتلك بعض النفوذ في الدولة ، فانهم يعتمدون عليَّ في انجاز هذه المدرسة أو تعبيد تلك الطريق أو جر المياه الى تلك القرية ، اي باختصار ، في كل ما يتعلق بالخدمة العامة** . وهناك كذلك اسئلتهم العائلية فهم يأتون لطلب المشورة لأنهم يثقون بنا . وثمة آخرون يفدون من الخارج يدفعهم الفضول الى النظر . ذلك ان هناك ثمة مهابة أو وقار الباطنية الدرزية التي تختلط فيها الحكمة بالواقعية . فنحن شعب ترجع عراقته الى خمسة آلاف سنة من التاريخ . وهو سليل هرمس المثلث الحكمة الذي يعرف هنا باسم ادريس . وانت هنا في بلاد يقرأ الناس فيها سقراط وفيثاغورس او افلاطون ... ويقولون السلام عليه . انها ضربٌ من يونان صغيرة انـ انوية . او ساحة من الساحات القديمة في مدنها التي يهتم الناس فيها بكل شيء .

وبخلاف املاكنا في المختارة . فان لنا ملكية قرب البحر تبلغ ٤٠٠ هكتار . الا انها لا تعطي شيئا لان الماء قليل قرب البساتين والمال اللازم لاستغلالها قليل ... اما الملكيات البعيدة فيعتورها سوء الادارة لان لدينا ما يشغلنا عنها ... ثم اني ، **شخصيا ، قليلا ما اهتم بالمال . فبمجرد ما أن يتحصل لديَّ القليل منه ، حتى يتسرب . فأنا اعلم ان هذه الاوراق تتشبث بالاصابع فأتخلص منها سريعا . ثم ان المال يصبح مكروبا مفسدا اذا لم يسهم في مساعدة الآخرين** . والملكية وظيفة اجتماعية . لذا تراني استخدم المال بأكثر ما يمكن من اقتصاد . فلا

انفق منه الا الضروري الضروري الذي لا بد لي منه في قضاء حاجاتي الشخصية . كيما يذهب الفائض دائما الى الاخرين . قانعا بالحياة حياة الرجل الشريف شأن سواد الناس . فأبخل على نفسي وأجود على الآخرين . **فالمحتاج هو وجه الله ذاته ، انه الاخ . وهكذا يعيش الدروز .**

وأخيرا ، فان المختارة لا تعيل سوى قليلين . فهناك الوكيل والناطور وبعض العمال الذين يعملون فيها بين الحين والآخر . أي ما مجموعه عشرة اشخاص . فالزيتون لم يعد يعطي شأنه قديما . كما ان زيت الزيتون أصبح يزداد تعرضا لمنافسة بقية الزيوت النباتية . تلك المنتجات الشنيعة التي تدخل فيها مواد الهيدروجين كزيت الفستق مثلا . ثم ان كرمنا لم يعد ذا مردودية . **وبالاجمال ، فانني أعيش من تعويضي كنائب في البرلمان ، ذلك ان ناتج ارضنا لا يعيل سوى عدد قليل من الاشخاص . وليس لدي خدم في المنزل ؛ بل طاه وخادم فقط .**

وأنا لست من الغنى بقدر ما يقال ، وان كنت أحب ان اكون كذلك لامضي في الاقتسام قدما ، معطيا اغنياء هذا العالم امثولة . وأنا اعتبر انه ينبغي للمرء ان يعيش عيشة متواضعة ذلك ان الحياة البسيطة تصنع الغبطة . اما اصحاب الامتيازات . فليسوا سوى « قيمين » لدى الاخرين . وسواء أكان للمرء ملكيات كبيرة أم لا ، فان كل ما يتجاوز النفقات الضرورية يجب أن يذهب الى الاخرين . **فأنا لا أؤمن بهذا المجتمع العبثي البشع ، مجتمع الاستهلاك** . اذ انه سيفضي بالناس الى ان يستهلكوا هم انفسهم ماديا . **ولا بد من أن ينجز في لبنان اصلاح عقاري بحيث تزول الملكية الكبرى ويتمكن كل لبناني من امتلاك قطعة ارض صغيرة . ولقد وزعت انا نفسي على فلاحيَّ قرابة مئة هكتار من الارض في سبلين قرب البحر فكان ذلك مناسبة ادخلت فرحا حقيقيا على قلوبهم هم وعلى قلبي أنا ايضا . فالملكية الكبيرة نقيض الطبيعة فهي تفسد معنى التملك** . ذلك أن جميع الناس تحب أن تمتلك شيئا لأن التملك هو امتداد الحواس والايدي والجسم والشخصية . وتلك احدى مطالب حزبنا ، اي أن يكون « كل لبناني ملاك » . والملكية الصغيرة أو المتوسطة تحول الناس . فهي تساعدهم على اتخاذ موقف اكثر استقلالا واشد صلابة وابلغ مسؤولية ازاء القوة العمومية . فروح الارض هي حب الحرية وكنه المسؤوليات .

من هم الدروز ، أن اساس عقيدتهم قائم على طلب الحكمة فليس سوى الطالبين بمستطيعين قراءة الكتب المقدسة التي تسمى « كتب الحكمة » ، انها امتداد للمدارس الهرمسية اليونانية أو المصرية ـ مدارس السنة الباطنية ـ التي انتقلت الى التصوف الاسلامي . وفي أيامنا هذه فانه ليس

لغير الدرزي ، الذي عرف « الرسالة » في حياة سالفة أن يتلقاها . وهذا اذا كان أهلا لذلك . ولا بد لنا هنا من أن نذكر بأن الدروز - اي اصحاب المذهب التوحيدي ، الذين يشبهون الهنود من اصحاب كتاب الفيدا - منتشرون تحت تسميات اخرى في كافة اديان العالم ، يمثلون بالتالي أكثر من ربع البشرية . **وسيفتح دور طلب أو طلاب جديد في حدود سنة ٢٠٠٠ بتجل الهي ، وظهور حكيم جديد . وعند ذلك يفتح الطريق من جديد ويصير بامكان جميع الناس في كافة اصقاع العالم سلوكها ، فهدف الحياة الانسانية هو معرفة الحقيقة وتحقيقها .**

جنبلاط يخاطب الصحفي الفرنسي فيليب لابوسترل ، أمل أن تكون حيا حينذاك ، فحينذاك يمكنك أن تتلقن الحكمة اذا شئت) .

وانا لست رئيسا دينيا بالمعنى المتعارف عليه لهذه الكلمة ، لكن دراستي للمذهب الدرزي كانت من الكفاية بحيث تتيح لي الشروع في عمل تحليلي . والحق ، هو أني فهمت هذا المذهب على هدى تعاليم الفيدانتا أدفيتا الهندوكية والفلسفة اليونانية اللتين اتاحتا لي اكتشاف مفاتيح الاسرار الدرزية ، ذلك أن العرفان الدرزي هو ذات العرفان (الغنوصية) الذي تجده في كل مكان من العالم والذي تجده لدى كبار حكماء الهند وحكماء « الاوائل » . ثم ان معارفي هذه تعطيني ضربا من السلطة الروحية لا الدينية . وهكذا فان المشايخ والطالبين يفدون لرؤيتي فنصلي معا ونقوم ببعض التأملات معا أحيانا ، فأقرأ لهم من « احاجي » الفكر الأدفيتا لهندوكي القديم الذي جرى استخلاصه بطريقة دقيقة عبر العصور ، وأفسر لهم الافكار الاساسية في هذا التيار الروحاني ، الانساني والتاريخي . انها لقراءة يسمو بها طالبونا . فأنا نفسي تلقيت هذا التعليم في الهند على يد حكيم كبير كان بمثابة سقراط وفيثاغورس - بالنسبة إليّ - في آن معا . **وعلى اي حال فأن الدروز يعتقدون ان التجلي الاول ، اي تجلي حكمة العلي - قد حدث في مدينة جيم ما تشين (الخيالية ؟) في الهند منذ بضعة ملايين من السنين . فاذا كان الغربيون يحسبون بالالف من السنين ، فانا نحسب نحن بالملايين وعشرات الملايين من الاعوام .**

ولقد كتب الدكتور روجيه غوديل - وهو رجل علم متضلع باليونان القديمة - كتبا بالغة الاهمية حول كل ما له صلة بهذه التجربة التحريرية (وقد كان صديقا لعالم النفس الشهير يونغ الذي كان يهتم هو الآخر بالشرق) فهو يرى انه ليس ثمة انقطاع ، فالحكمة الهندية والحكمة اليونانية هما حكمة واحدة وشيء واحد والفيدانتا - هذا المفتاح السحري - تؤدي الى كافة الاحاجي ، وتوصل الى كافة كتب الحكمة في هذا الجزء من الشرق الادنى ، ان بالنسبة الى قدامى المصريين أو بالنسبة الى اليونان الاقدمين أو بالنسبة الى الصوفية . وبامكان المرء ان يفهم افلاطون وسقراط وافلوطين وبقية ائمة الحكمة - بما في ذلك

هيراقليطس - على هدي الفيدانتا ادفيتا بصورة افضل بكثير . وعلى اي حال فقد كتبت انا نفسي عن هيراقليطس عملت فيه اكثر من ثماني سنوات وسأقوم بنشره قريبا :

والدرزية هي ملة الوحدة الاساسية بين الاشياء والكائنات ، انها وحدة الكون الجوهرية في صيغته الروحية والطبيعية الفيزيقية في آن معا ، اي كما لو كانت العناصر ترى من ذات الخلفية ومن ذات الجوهر الباطن . ففي بدء الاشياء كلها ، لم يكن الله والعالم والروح يشكلون الا كلا واحدا . **وقد ساهمت انا في جعل الدروز يعاودون اكتشاف هذه الوحدة الاساسية البسيطة التي تعبر عن نفسها في كتب الحكمة والتي تغيبت عن ابصارهم بعض التغيب عبر العصور .** ولقد اشتغلت حوالي اثنتي عشرة سنة لأعرفهم ببعض من كتبهم المفقودة ، ولاجعلهم ينسخون - بواسطة نساخ اجاويد - الكتب الاصلية التي عثرنا عليها . ذلك ان للكتاب المخطوط « سلطانا نفسانيا » اعظم من الكتاب المطبوع . فالجهد والتوتر الذهني الذي يقدمه الناسخ ، يولي الكلمات قدرة على ايحائية عظيمة ، بحيث ان ذلك كله ينعكس من عقل الانسان بما يشبه السحر . اضف الى ذلك أن التأمل وتفهم من يكتب ، يغمر الورق انه ضرب من التبليغ غير المباشر للفكر ، بل وربما أكثر من ذلك .

انها ديانة تامليين ، ديانة اعطت ، شان الفلسفة اليونانية القديمة ، معنى للحياة وللمجتمع وللمصير البشري . افلا يقول احد حكمائنا - ارسطو - ان هدف الحياة هو تأمل العقل ! انها اذاً ليست ديانة كسائر الديانات ترتكز الى الايمان شأن المسيحية أو الاسلام . فالمهم بالنسبة الى الدروز ، انما هو الاقتناع الداخلي ، هو أن « ترى » وتحقق الحقيقة الداخلية ومعرفة الذات والتعرية الذهنية لكل شيء ، من أجل معرفة المطلق . انها ديانة زهاد روحانيين ، وعرفانيين (غنوصيين) يمارسون الحياة . انها ديانة اخلاق بقدر ما هي ديانة معرفة . ومقالة «اعرف نفسك بنفسك » التي تصدر ذهنية الحقيقة عنها ، هي احد مرتكزات هذه الديانة . ومن هنا كان هذا البحث الاساسي الذي يواصله الدروز عن الاصالة الكاملة .

ولقد كنت اول من ارتحل الى بلاد الهند ، ذهبت اليها لاستكمل معارفي . ومنذ ذلك الحين ذهب اليها فصيل من المريدين من جبل الدروز (جبل العرب في سوريا) . وقد اختار احد هؤلاء البقاء هناك وعدم العودة ، اذ لبس ثوب الرهبنة الامغر اللون ، ثوب « السامينياسن » (الناسك) وظل هناك مجاورا لشخصية هندية من اصحاب الخوارق والمعجزات ، هو سي بابا ، صانع المعجزات الخارق . وأنا لا أدري لماذا يصنع سي بابا المعجزات . فعادة الحكماء هي الامتناع عن انتهاك قوانين الطبيعة ، النفسانية منها والفيزيقية على الرغم من قدرتهم على ذلك . ويقول سي بابا انه يصنع المعجزات على الرغم منه تقريبا ، اي طيبة منه وصلاحا واعانة للناس على الاقتناع . وانا لم الق شخصه وان كان لا يزال

جيا حتى الان . ولكني عرفت ثري اتماتندا وذهبت اليه اكثر من ثماني مرات . كما حاضرت سانكراشرغا في رانسبورام . وكنت امضي هناك اسبوعا او عشرة ايام وربما خمسة عشر يوما واحيانا شهرا . واني لاسف لكوني لم استطع البقاء هناك شهورا وشهورا بل وسنوات . فقد كان العمل يجبرنا على السعودة . وكانت دار ثري اتماتندا « تكية » (اشرام) لانه كان حكيما لم يعتزل العالم ولم يكن ناسكا ،(سامنياسن) . ذلك أن معلمه الروحي ، أو شيخ طريقته ، شرى يوغاناندا ، آمره بذلك . ولقد عرفته بالسماع أول الامر ، ثم بواسطة روجيه غوديل وزوجته ، وبواسطة الكاتب الهندي راجاراو الذي كان شديد الاهتمام به . واخيرا ، فقد جاء الى فرنسا مدعوا من قبل تلامذته الفرنسيين ، ويومها قدر لي أن ألتقيه في طريق عودته في مطار القاهرة . ولم أره يومها الا نصف ساعة . كان مذهلا ... وراح يتكلم ولكني لم اعر انتباهي شكليا لما يقول ، اي للكلمات ... فقد كان ذلك ضربا من الغوص الداخلي ، حتى لكأن المطلق في شخصك ينكشف عليك ، أو كأن الحقيقة فيك تتصل بالحقيقة فيه . وانجذبت اليه ... فقد كان بالغ القدرة وان كان يجمع الى ذلك البساطة والتواضع . وأعتقد انه أحد اعظم تعابير الهند في مختلف العصور . فكتاباته تكمل تعليم آدي شانكرا وراما وكريشنا وآخرين . كانت احاديثه ذات نورانية خارقة ، فاليونان كانت تنطق بفمه ، وكان الحديث يسيل عن لسانه عندما يتحدث عن الحقيقة ، كما لو أن الحقيقة تسيل من منبعها . وانها للحظة اخاذة هي تلك اللحظة ، ذلك الاتحاد وتلك النشوة ، نشوة الفهم التي تتحقق في مواجهة حكيم . انها معرفة تأتي مما وراء الحواس ، و مما يتمدى العقل ولا ريب ، انها الوجد الحقيقي (سامادي) .

وقد كنت سأعرفه مباشرة من دون سابق رؤية له . ذلك انه حين يجسد امرىء الحقيقة فأنه يشع بها ، أو كما كان المهاتما غاندي يقول ، فأنه يصبح صديقا . فحتى جسمه ذاته يصير حقيقة . وتلك امور تعصى على التفسير ... فعندما كنت انظر اليه ، فان مرآه كان يتغير في كل ثانية كما تموج الصور التي تتعاقب فيه وتتالى في ابدية ذاتها . كان يعكس حضور السرمد في هذا الدفق من التغير الحسي والعقلي والجسمي . وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه صراحة . ذلك انك تشاهد الالهي حقا ومحاضرة . بل انك ربما ترى الى الله بلحمه ودمه ، أو ما هو أكثر من الله ، ذلك أنه اذا كان الله تصورا من تصورات الذهن ـ وارقاها ولا ريب ـ فان الحكيم هو حقيقة الله ، انه يحقق ويعبر عن حقيقة الله هذه ، اي عما هو حقيقي عبر ما هو حقيقي . انه ابصار مباشر للحق وللكائن .

... وانما صنعت الموجودات جميعها من الطبيعة الالهية ـ اذا جاز لنا تسمية الاشياء على هذا النحو. ذلك ان الالهي ليس موجودا الا على صعيد عقلنا وفي علاقة وتناقض مع ما هو الهي او مادي او غير ذلك. غير ان الواقع هو ان كل كائن انما يتكون فيزيقيا ونفسانيا من هذا القوام او من

هذا الجوهر الالهي. وعندما حقق شري اتماتندا او رامانا ماهاشيري الحقيقة فان جسمهما حققها هو الاخر كما حقق جوهره في آن معا. ذلك انه لم يبق لهما جسم: فجسمهما يتلاشى... فلا حضور له الا ازاء حواسنا التي تعطيه صورة. وان كان هو يتعالى على كل صورة. لانه حقيقة محض: واذا فان جسمهما ايضا يتألق في هذا الوعي، للكائن. ان ذلك يعصى على التعبير مرة اخرى. لكن هذه الامور كانت تتراءى بوضوح في ذلك اليوم لدى شري اتماتندا في مطار القاهرة. فحتى الاناس العاديون اخذهم الفضول ازاء حضوره. وان لم ينل منهم ذلك. لانْ اشعاعه يؤثر في الكافة والمادة نفسها. فهناك اللاواعون او كبار النيام في الحياة (او اهل الكهف). والناس جميعا نيام ولا تلازم اليقظة الا قلة. ولهذا فان المرء يستيقظ ويصحو الى ذاته الحقيقية لدى رؤيته الحكيم. وبالتالي فانه يصير يقظا في الحكيم. وهذه اليقظة هي التي تعطي الحكماء هذا المرأى المتألق.

وتقول احدى السير الصادقة من سير القديسين. انه اذا جلس الحكيم تحت شجرة، وكانت الشجرة على وشك اليباس الكامل والموت، فان الشجرة تعاود الازدهار - وبزهو - للمرة الاخيرة. بذا نفهم الى اي مدى يمكن للناس ان تحب الحكيم - ومنذ البداية - حتى ولو حدث بعد ذلك ان طواه في ذاكراتهم النسيان.

وليس لدينا كنيسة ولا مسجد بالمعنى المعروف للكلمة. بل لدينا «المجلس» اي الموضع الذي يجتمع فيه الاجاويد كل مساء خميس ليصلوا معا. غير ان المجلس بالنسبة الى الدروز ليس موضعا مخصصا للعبادة على وجه الحصر. كما ان الذهاب اليه ليس الزاميا. فبوسع الطالبين الصلاة في منازلهم. وبوسع الدرزي ان يذهب الى المجلس او يتخلف عن الذهاب اليه. انه حر. وهناك بخلاف ذلك، «الخلوة». وهي ضرب من الرهبانية يعتزل المتعبد فيها العالم ليقرأ او ليتأمل. ولدينا قريبا من هنا في الشوف خلوة القطالب، وهي ابعد بقليل من عين قني، ويفد اليها بخلاف جماعتنا، طالبو جبل الدروز. ان في زيارة عابرة، او للاستقرار والعيش فيها حياة النساك (السيمناسن) وهؤلاء الوافدون هم في العادة اناس بسطاء سليمو الطوية ويطمحون الى القداسة.

وتتوافق عقلية الدروز الليبرالية هذه مع تطور مختلف المجتمعات المعاصرة، حيث يبدو ان الطقوس والشعائر باتت هملا فيها مهجورا. فنحن لا يربط فيما بيننا رابط الدين، بل علاقتنا الاجتماعية وعاداتنا وثقافتنا. فهذا الرابط هو ما يميزنا عن غير الدروز. انه رباط متحدي واخلاقي، وهو اقرب الى القومية او الى الوطنية ـ حتى ولو كانت غامضة فضفاضة ـ منه الى التعصب الديني والطائفية الدينية.

والدرزي لا يختلط على احد. فكينونته الاجتماعية، هي شأن ملامحه

تجعل هويته واضحة. والدروز يقظون نشطون ولكنهم يتصرفون في الآن ذاته في المجتمع بكثير من الكرامة والادب. وهم مهذبون ويستخدمون كلمات خاصة لترجمة انفعالاتهم وتفسير افكارهم. وينطقون العربية بافضل مما يفعل الاخرون - ولا سيما المسيحيون الذين لا يلفظون الحروف الصوامت - الامر الذي ينم عن جذورهم العربية الاصيلة. وذلك باستثناء بعض العائلات التي وفدت من المغرب او من الاناضول. ثم انهم اكثر تكتما ورزانة من الاخرين. وهم على الرغم من شدة استقلاليتهم يتحسسون بالمسألة الاجتماعية والعائلية والمتحدية، بأعمق واحد مما يفعل الاخرون. وحتى وجوههم تختلف. فلو كان هناك درزي بين عشرين رجلا لأمكن التعرف عليه مباشرة. ذلك ان التاريخ لم ينل من هذا العرق. باعتبار ان العرف حظر على الدروز الزواج من غيرهم او الزواج اليهم. ولم تشذ عن ذلك الا الندرة.

وتترصع لغة الدروز بالامثال وصيغ المجاملة بعبارات باتت وقفا عليهم. وقد جمع الموفد الفرنسي الى جبل لبنان ايام الانتداب، وهو السيد بارت، هذه العبارات في مصنف؛ فمن بعضها مثلا قولهم: «الله يقدرنا على مكافأتك» او قولهم «عليم الله» اي ان الله يسبر القلوب ويعلم صدق القول وما يخفى، وقولهم «الله يرحم بيك او امك» او قولهم «كيفك على الفضل».

ولا يزال الدروز يحافظون على حس الشرفه ولا ينسون خدمة اسديت اليهم. ومن هنا كان اطلاق اسم «بني معروف» عليهم. اي اولئك الذين يذكرون الصنيع الطيب . فهم اهل لان يذكروك بصنيعك معهم حتى بعد مرور عشر سنوات او ثلاثين سنة عليه .

والشخصية الدرزية الكبيرة لا تبالي بالحياة الخارجية ولا تحفل بها. فالمظاهر هي المظاهر. وقد قيل عن الاميرين الكبيرين فخر الدين الاول والثاني انهما ولدا درزيين وعاشا مسيحيين وماتا مسلمين. الا ان هذا الحال ليس حالي. صحيح اني اعرف الانجيل خيرا من غالبية رهبان النصارى واستشهد به كثيرا. الا ان ذلك لا يعني انني استطيع ان اعتزم الانتماء ولو للحظة واحدة الى هذه الفرقة المسيحية او تلك. فانا امقت الانتماء الى جماعة مقفلة سواء اكانت دينية ام غير ذلك. وانا اعتقد ان الانسان من ارومة الله وعليه ان يسعى وراء ماهية الحقيقة عبر شتى الديانات، ولكن بأن يتجاوزها جميعها. وهذه الطريقة هي طريقة انموذجية في التفكير لدى الدروز، فهم غير متزمتين ولا يتمسكون بالشكليات. بل انهم ليبراليو الذهن براء من كل نظرة تبشيرية. فلا جدوى اذن في أن تعرض على اي كان ان يصبح درزيا. فكل انسان يظل على ما هو عليه. **اما الروح الدرزية فانها تنتقل بعد الموت وتتقمص في جسد درزي، ثم في جسد درزي اخر، وهكذا دواليك الى اخر الزمان.** غير ان الدرزي ليس اسما وقفا على من نسميهم الدروز، اي على هذه النحلة الموجودة في

لبنان وفي جبل العرب بسوريا وفي اسرائيل او في تركيا او حتى في شمال باكستان. بل الدرزي هو كل توحيدي، اي كل من يعتقد بوحدة اديان العالم كافة، وكائنا ما كانت طقوسها وشعائرها اي انه اسم ينصرف الى مسيحيين وبوذيين ومسلمين وهندوكيين... اي ما يشبه وضع جماعة «وردة الصليب» او «الروز كروا» الذين يجدون مشايعين لهم وتابعين في شتى الاديان. وعلى كل حال، فهم يدعون انهم «دروز الغرب». والحق ان ثمة تماثلا كبيرا بين معتقدهم ومعتقدنا. فاجلالهم لفيثاغورس واعتقادهم بتقمص الارواح، هما نقطتان جوهريتان تقرب فيما بيننا وبينهم. على الرغم من ان مفهوم الدروز للتقمص مختلف عن مفهومهم؛ اذ نعتقد نحن ان الروح تستقر بعد الموت مباشرة في طفل قيد الولادة، وانها تلج الى الجسد عبر النفس. والجنين لا يعيش في احشاء امه الا حيوانيا ولا تستقر الروح فيه الا متى بدأ التنفس. وعلى العكس من ذلك فان جماعة «الروز كروا» يعتقدون ان الروح تستطيع ان تظل لفترة من الزمان في حالة يرقانية او اثيرية قبل ان تعبر من جسم الى جسم آخر، وان ثمة ضربا من حال الكمون يقف بين حالي الموت والولادة الجديدة.

وبالمناسبة فقد صادفت شابا مسيحيا خارقا من جنوب لبنان وكنت اجده عندما اتطلع اليه يستغرق في التفكير ساعات طويلة شأن من توارى عن بصيرة نفسه. وذات يوم جاء الي يقول:

«اسمع. لقد قررت الموت. فانا انسان تلاحقني حياتي السابقة. وعندما استيقظ كل صباح، اقضي ساعة او ساعتين في اقناع نفسي بأني اعيش الان حياة اخرى غير تلك التي عشتها سابقا. لقد انهكتني هذه الحياة السابقة التي تلاحقني بكافة هذه الصور التي يختلط بعضها ببعض. كان يتذكر حياته في ميونيخ منذ ما ينوف عن القرن بقليل. وعندما ذهب الى هناك فانه عثر على منزله وقبره وكافة ما كان مألوفا لديه...

يبقى بعد ذلك ان الدرزية الحقيقية هي الحكمة العرفانية (الغنوصية) في اليونان ومصر وفارس والاسلام في ان معا. انها وفقا للكلمة التي اوجدها روير «بقعة » او «موقع» مختلف الديانات، هذه الديانات التي تصبح باطلة اذا اخذت منفردة منفصلة عن بعضها بعضا.

ومن بين مشاكلنا كدروز، **هناك مشكلة وجود جماعة درزية في اسرائيل.** وهؤلاء الدروز ليسوا - كما يحكي البعض - خدما اوفياء للدولة اليهودية، ولكن الدرزي من الحكمة بحيث انه لا يتخلى عن ارضه متى جاء المحتل. .

والواقع هو انه شديد الارتباط بأرضه وبمرابع طائفته. ثم لماذا الهرب؟

فخير للمرء ان يبقى على ان يترك موضعه للاخرين وهذا هو المبدأ الذي طبقه الدروز عام ١٩٤٧ و١٩٤٨ عندما حاول الاسرائيليون طرد العرب. فالدروز عقلانيون حقا. ذلك ان «الحس اليوناني» يغلب عليهم وهو الذي جعلهم «يستقرون». ان لديهم الحس بالزمان. ويعلمون انه سيأتي يوم يتغير فيه كل هذا. لانه لا ثبات لشيء تحت الشمس. ان فكرهم يذهب الى البعيد وباختصار فانهم يملكون فضيلة الامل. ذلك ان ما يبرر الدرزي حقيقة امام ناظري نفسه. انما هو تفاؤله الوطيد الذي يبديه في بحثه الابدي. وبهذا المعنى. فان الدروز هيراقليطيون. فهم يرون انه ما من فرح الا وهو مختلط بالغم والعناء وما من هبوط الا ووراءه صعود. وما من موجة تنحط الى القرارة الا ودسر موجة اخرى يستعد للوثوب. وليس ثمة من موت بالمعنى الحقيقي للكلمة. لان الميت لا يفعل سوى ان يبدل لباسه الجثماني: فتبديل الاجسام كتبديل القمصان. او كما جاء في كتاب الحكمة: «ولا تخافوا من تمزيق اقمصتكم» اي ولا تخافوا من تمزق جسدكم. وجاء فيه ايضا «ولا تخشى عدوك. فان خشيتك له تعطيه سلطانا عليك».

وإذن فان الدروز بقوا هناك وتدبروا امورهم بحيث لا يستولي القوم على الكثير من اراضيهم وبحيث يتمكنون من تحمل هذه الحياة المشتركة مع الاسرائيليين. **واعتقد شخصيا انه لو ان الآخرين قلدوا الدروز بدلا من الهرب، اذا لما كان هناك مشكلة اسرائيل، لانهم ما كانوا سيتركون هذا الفراغ الذي يبلغ حجمه ١،٢٠٠،٠٠٠ انسان. وتأمل معي في اسرائيل يقطنها ١،٦٠٠،٠٠٠ عربي درزي ومسيحي وسني...** اذا لما كان الاسرائيليون سيتمكنون بادئا من استجلاب الكثير من اليهود من الخارج. كما ان الفلسطينيين كانوا سيشاركون بسهولة وعلى مستوى واحد في اقتصاد اسرائيل وبالتالي في السلطة السياسية. كانوا سيشاركون في الحكومة ويكونون اقلية قوية فعالة في البرلمان. اي ما يوازي اغلبية صغيرة. ذلك ان اليهود منقسمون فيما بينهم ولم يكونوا قادرين - فيما اعلم - على تشكيل حكومة اغلبية حقيقية من دون اللجوء الى تحالفات غير متجانسة. **وعلى الرغم من الهجرة الجماعية، فان الوطنيين الدروز قاموا بواجبهم في اسرائيل، فقد قاوموا استيطان اليهود سياسيا وعسكريا وشاركوا في مختلف ثورات فلسطين.**

وقد شارك كثير من الدروز في تلك المعارك. فما من قرية من قرى الشوف الا وقد خسرت ثلاثة او اربعة او خمسة او عشرة قتلى من بين اولئك الذين قاتلوا في فلسطين. كما ان كثيرين من الدروز معتقلون في اسرائيل بسبب افكارهم الوطنية. وثمة كثير من الشعراء الفلسطينيين - بل ومن اشهرهم - هم من الدروز: كسميح القاسم مثلا.



وتتوافق عقلية الدروز الليبرالية مع تطور مختلف المجتمعات المعاصرة

واذا فان الدروز قاموا بواجبهم بتعقل - ربما كان اوفى من تعقل الاخرين - بانتظار ان يبين متى وكيف سيكون منقلب الامور. فهم يعلمون انه لا جدوى في الهجوم على طواحين الهواء. وانا اعلم تماما ان اخصامنا يرمون بعض الدروز بالتعاون مع الجيش الاسرائيلي. لكن هذا البعض جرى تجنيده بالقوة. وقد طلبت غالبية الدروز - ولا سيما منذ عام ١٩٦٧ - بأن تعفى من الخدمة العسكرية وعلى اي حال فمنذ ذلك الحين وهناك حالة توتر تسود بين الاسرائيليين والدروز تعود بصورة رئيسية الى وضع الاسرائيليين يدهم على ثلث الممتلكات الدرزية بحجة انها اراض جبلية. وقد بلغ الامر بهم انهم

صادروا نصف الاراضي في بعض القرى، ولا سيما اكثرها خصوبة. ان شقيق شيخ العقل مسجون هناك الان بسبب الاحتجاجات التي واجه بها الدروز بعض الاجراءات الاسرائيلية الجائرة على نحو خاص.

واعتقد ان الدروز بدأوا يحسون بنبضات القومية العربية التي بدأت توجه ضربات جادة. فلقد كانوا ابدا اقلية من دون ان يستحوذ عليهم حس الاقليات، بخلاف الموارنة، الاقلية التي يستولي عليها حس الاقلياتية. ومنذ ما ينوف عن القرن وهم يشاركون دائما وابدا في الدعوة الى القومية العربية كأكثر دعاتها حماسا، فالتحقوا بالجمعيات الاولى التي تأسست للدفاع عن العروبة والحرية السياسية . لا بل ان بعضا من هذه الجمعيات كان يقودها دروز بارزون كالامير محمد ارسلان رئيس لجنة التحرر الشهيرة .

كما شارك دروز كثيرون بالثورة ضد تركيا الى جانب الشريفين حسين وفيصل. وكان لهم نصيبهم في كافة الثورات، متأهبين دائما للاستجابة للنداء التاريخي. وثمة امر غريب حقا. ففي العام ١٩٢٥ قاتلوا ضد الفرنسيين طوال سنتين. ولا ريب في ان السوريين مدينون للدروز ولبعض الرؤساء الوطنيين الاخرين، بنيلهم الاستقلال. فقد كان الدروز اكثر القوم بذلا لدمهم.

وللأسف، فانا لم نعد نتصل بالثلاثين الف درزي في اسرائيل منذ زمن بعيد، اما في الماضي، اي عندما كانت فلسطين حرة، فانهم كثيرا ما كانوا يفدون الى المختارة. انهم بعيدون عنا الان ولكن لديهم رئيسا روحيا رفيعا يقودهم، وهو لا يزال على الرغم من سنيه الثمانين، امثولة في الحكمة والتعقل. ذلك - والحق احق ان يقال - ان التعقل هو احد السمات العميقة في الطباع الدرزية فهو ما يميز الدرزي عن سواه، فالدرزي لا يطلق كلماته جزافا وهو يقظ ابدا، اذ لا بد من ملاحظة الجوار لسبر ما يقال وتقدير ما ينبغي ان يقال وقياس ما نستطيع ان نقول.

التحدّي الماروني

يعود احد الاسباب العميقة للازمة الحالية، الى التاريخ اللبناني والى التحول الذي انعطف بمجراه. وعام ١٨٦٤ هو التاريخ المصيري الذي قدر علينا ان نشاهد فيه تفتت ووفاة لبنان قديم يدعو الى السياسة الليبرالية على مذهب الانكلو - سكسون. فقد كانت العائلات الدرزية - كما ذكرت - وامراؤها ذوو الروحية العقلانية والحس الليبرالي، هم المسيطرون على لبنان. ولقد اقتضى ذلك منهم كثيرا من الصبر، وهم الذين اشبه ان يكونوا بروتستانت الاسلام او صاحبيته (كويكرز) . لكنها فترة ولى زمانها. اما اليوم، فان المسيطر هو حكم العدد وليس قانون النوعية. فنحن الآن في ديموقراطية القرار فيها لاغلبية النصف زائد صوت واحد. وقد اصبح الدروز اقلية، بعد هجرة كثير منهم الى سوريا او الى جبل الدروز، ولاسيما اثر مجازر عام ١٥٨٥ ولم يعد بامكانهم ادعاء لعب دور مسيطر في هذا البلد عنينا دورهم التاريخي. واذن فقد حدثت قطيعة عام ١٨٦٤ حين ابتدعت اوروبا لبنان الصغير وراحت ترعاه الى حين الاحتلال العثماني للجبل عام ١٩١٤ والغائها ذلك الضرب من الاستقلال الذاتي الذي كانت البلاد تنعم به. وفي خلال هذا الانقطاع التاريخي - او هذه الفجوة التاريخية - اعتاد المسيحيون او بالاحرى الموارنة، على ان يتمتعوا في داخل متصرفية الجبل ببعض السلطة. كانوا يسيطرون يومها على لبنان الصغير ذاك، ولكن بصورة معتدلة نظرا لان التمثيل الدرزي داخل مجلس ادارة المتصرفية: «مجلس الادارة الكبير» كان من الاهمية بمكان. واذن فان هذه الفترة التي تشبه الجملة الاعتراضية والتي دامت خمسين سنة، لعبت لدى الموارنة دور الذاكرة التاريخية المكتسبة حديثا، والمنشئة لنزعة جديدة تنحو الى ارادة حكم البلاد بصورة دائمة. فمهروا انفسهم اذذاك ببني طائفة سياسية، في حين انهم كانوا قانعين، حتى ذلك الحين، بأن يكونوا مجرد طائفة دينية - لها مطامعها السياسية بالتأكيد - ولكنها مطامح مستورة مكبوتة . غير ان الانتداب الفرنسي كرس تطلعات الطائفة المارونية عندما اعطاها شكلا معينا ووهبها السلطة، تلك السلطة التي لم تكن قد مارستها قبل ذلك لا مباشرة ولا مداورة. فقد كان الموارنة، قبل ذلك، كتابا مجيدين ورجال أدب ومؤرخين وشعراء كما كانوا في الحين ذاته عمالا مهرة وتجارا حاذقين وزراعا. ولكن ذلك هو كل ما كانوا عليه. اما الانتداب، فانه القى اليهم بمجاميع السلطة السياسية هبة خاصة خالصة ما كانوا اهلا لها. وقد اثبتوا هم انفسهم ذلك على كل حال.. ونقول نحن الدروز «الماروني حاكم بطال» فهو يفتقر الى حس الحكم وتراثه (وهو رأي كان يراه الاتراك ايضا).

والحق . ان ذلك صحيح. فليس بمستطاع احد ان يحكم حقيقة وهو خاضع الى تصور خاطىء للامور والى الرغبة بالحسابات الحقيرة الهينة،

اضافة الى ذهنية المراوغة: كالعمل في اتجاه والرغبة في سواه، وقول شيء غيره. ولم يمض طويل زمان على هذه العاهات حتى وسمت ادارة لبنان الكبير عام ١٩٢٢ بميسمها. فهذا الامتداد او التمدد الاقليمي الجديد لم يكن لينسي الموارنة لبنان الصغير السالف، فظلوا يواصلون الخفاظ على روحيتهم الطائفية الضيقة في داخل الحكومة. وهكذا، فان الترسيخ والتمكين السياسي للطائفة المارونية، انما تحققا نهائيا وبوضوح في حقبة الانتداب الفرنسي الذي اعطى «الانعزاليين» - كما اطلقنا عليهم منذ ذلك الحين - شعورا بالنجاح شبيها بشعور الاسرائيليين ابان الانتداب البريطاني في فلسطين، ثم بعد ذلك في خلال اعلان الاستقلال.

والانعزاليون بالنسبة الينا هم اولئك الذين يريدون عزل لبنان معنويا واجتماعيا، بل وفصله قوميا بعد ذلك عن العالم العربي. انهم اولئك الذين لا يؤمنون بغير القومية اللبنانية ذات الطابع المسيحي او بالاحرى الماروني. فكان لا بد لهذه «القومية المارونية»، كما يشير المؤرخ حتي من ان تتعارض في يوم او في اخر مع القومية العربية التي تكتسب شرعيتها من التاريخ والتي تتكون عندنا هنا من مركب من العروبة والوطنية اللبنانية المحلية. وفي فترة الانتداب، غرق الانعزاليون في تعصبهم الطائفي بعدما اصبحوا الفرقة او الطبقة ذات الامتيازات في النظام، على شاكلة النبلاء ايام الملكية الفرنسية. كانوا ابناء المستعمر المدللين. كما كانت فرنسا بالنسبة اليهم «الام الحنون». وليس في هذا ما يثير الغرابة والاستهجان: فمؤسسات الانتداب اتاحت لهم ممارسة روحية التمييز السياسي الذي يتصفون به، فقد ادخلت بالفعل تقييدات على ممارسة الديموقراطية، لعل اكثر الامثلة عليها سطوعا كان تقسيم الندوة النيابية اللبنانية بنسبة اربعة نواب مسلمين في مقابل خمسة نواب مسيحيين. ثم بعد ذلك، اي قبيل العام ١٩٤٣ اصبحت النسبة خمسة نواب مسلمين في مقابل ستة نواب

مسيحيين ويزيد عدد النواب المسيحيين حاليا في مجلس النواب على نواب المسلمين كافة بأحد عشر نائبا. والحق ان هذه القسمة لم تكن لتستجيب لتوزع سكاني فعلي. **ولهذا، فان المسيحيين عمدوا اثر قيام الانتداب مباشرة، وبالاتفاق مع الفرنسيين، وبعدما شعروا باقليتهم، الى زيادة عددهم باستدعاء الارمن الذين طردوا من تركيا. ثم فعلوا الامر نفسه مع الاشوريين والكلدانيين المسيحيين، الخ...** الا ان الارمن، ويا لخسران الانعزاليين، رفضوا الاشتراك في حرب الاخوة التي عشناها هذه، مظهرين بذلك موقفا ليبراليا ووطنيا حقا. **والواقع، هو انهم عرفوا كيف يوفقون بين قوميتهم الارمنية وولائهم للبنان. انهم عرق كريم المحتد، جسور ومنظم للغاية.** وعلى اي حال . فان عقليتهم المغامرة بدأت تقلق الدوائر

المارونيه، سيما وانهم ولودون (كثيرو الانجاب)، مما يزيد القوم قلقا على قلق. وهم يملكون في بيروت مخزنا من كل خمسة مخازن، ويضعون ايديهم على كامل الصناعة المتوسطة تقريبا. ولم يحدث ان رئي ارمني يتسول قط. ولا درزي كذلك. فهو يطرد، اذا ما انحط الى فعل مثل ذلك. **فعندما يكون المرء في فاقة وعوز، فالاصل ان يفرض الاعتراف بحقوقه لا ان يتسول.**

وقد فرض علينا دستور وقانون انتخابي يولي الغلبة السياسية للموارنة. لا بل ان الموارنة فازوا لدى تقسيم المقاعد بين المسيحيين بحصة الاسد. **والحقيقة ، هي ان لبنان الكبير انشىء لاجل الموارنة.** وعلى اي حال فان الفرنسيين لم يكتموا ذلك كما ان الموارنة كانوا يصيحون من على السطوح: «لو لم نكن هنا، لما كان هناك لبنان مستقل عن سوريا». والواقع هو ان لبنان يشكل تاريخيا جزءا من اطار سوري ما، هو سوريا الطبيعية، التي تندرج هي الاخرى في الاطار العربي. فحتى والد الشيخ بيار الجميل كان يكتب على بطاقته الشخصية: «بكفيا، سوريا»، وكانت الرسائل المرسلة الينا تعنون «مختارة، سوريا»، واذن فان هذا التعصب الطائفي كان سما نفثه الموارنة في جسد لبنان الكبير الجديد منذ ولادته. وقد اصبح هذا الشر او هذه الاوضاع ـ التي كانت محتملة في لبنان الصغير المتجانس ـ جرحا مفتوحا في العام ١٩٢٢. اذ لا يمكن تنظيم دولة على

ساس مثل هذه القسمة الى طوائف مصنفة بتصنيف سيء، وعلى اساس روحية دينية لا تحملها بقية الطوائف. فها هنا طائفة اقلية نالت امتياز الاغلبية. ولا ريب في ان مختلف الفئات عاشت، عبر تاريخ لبنان هذا العبور اللاشعوري من الطائفة الثقافية الى الطائفة السياسية. فنحن «موزاييك» فيه من مختلف النزعات الدينية ومن جميع النحل ومن عموم الفلسفات التي نشأت اتفاقا عن كافة الفرق وجميع البدع المسيحية منها والبيزنطية او الاسلامية. والدولة اللبنانية تعترف رسميا بست عشرة طائفة متمايزة. ولكن ثمة عددا آخر من الطوائف الموجودة من دون ان يكون لها وضع قانوني، كالعلويين مثلا. كما يتوالى ظهور طوائف جديدة بلا انقطاع: كالداهشية او «شهود يهوه» والاسماعيلية والبهائية تلك النحلة التي ظهرت في القرن التاسع عشر وتجمع حولها حاليا نحو مليون من المريدين في الولايات المتحدة... المجد «للطوائفية»! فهذا الخليط وهذا التعدد في الاديان لم ينفصلا عن الخاصية الثقافية العميقة مطلقا، وذلك بخلاف ما حدث في الغرب. فالهيلينية، والثقافة الفارسية، وكل الحضارات القديمة موجودة فيها. فقد التقى الاسلام هنا ببيزنطة وبالعالم المصري ـ الفينيقي وبالعالم المصري الاكادي وبالعالم العراقي ـ الايراني ثم بالهيلينية اليونانية، اما بطريقة مباشرة واما عبر المسيحيين البيزنطيين او مسيحيي

فلسطين. فهل كان يسوع نفسه سيوجد من دون هيلينية الرومان العبرانية والنبي محمد (صلعم) من دون الثقافة الابراهيمية او التأثير الفارسي؟

لا بل ان الموارنة انفسهم ينحدرون من ثقافة آرامية، هي تلك الثقافة التي كانت سائدة في فلسطين لدى ميلاد وقيام دعوة يسوع المسيح. وقد احتفظوا باللغة الطقوسية الآرامية بصورتها المتطورة كما تتبدى في السريانية بشكلها المتطور. ولا ريب في ان موسيقاهم، بايقاع اناشيدها الخاص هي انعكاس لهذه الثقافة.

وثمة مثال اخر على الدين ـ الثقافة، هو الدرزية، التي تفرعت عن الامتداد ـ التاريخي لكامل الخليصة المصرية ـ اليونانية المصحوبة بتذكرات ايرانية. فحمزة بن علي، «قديس بولس» الدروز ومقدم رسل المذهب، كان ايرانيا. فالدرزية هي الهيلينية الممصرة. والغريب، هو انك تجد ابدا شخصا ايرانيا الى جانب مؤسسي الملل. فأيام يسوع كان هناك المجوس، والى جانب محمد كان هناك سلمان الفارسي، الايراني الاصل، والولي الذي يجله الشيعة والدروز.

فاما الرومية الارثوذكسية، فانها تمثل بأبهتها وليبراليتها وروحيتها الامبراطورية، الارث الثقافي البيزنطي. والروم الارثوذكس كالروم الكاثوليك فرع لأصل ثقافي واحد. **ولم تصبهم عدوى التعصب الماروني الارامي اي ذلك المكروب المتأصل الذي يتعهده وجود اسرائيل القريب، تلك الدولة هي صورة اخرى عن الدولة العنصرية القائمة على القومية الدينية.** والموارنة اكثر قربا، من الزاوية الارامية، مما يظنون من الفلسطينيين الذين يحاربون.

ولننه هذا الجدول بالشيعة. انها تمثل ضربا من البروتستنتية الايرانية ـ الاسلامية، وتقع عاصمتها وفاتيكان ثقافتها في النجف الاشرف بالعراق على مقربة من ايران، دولة التشيع الاولى بلا جدال. اما السنة فتمثل ـ الى هذا الحد او ذاك ـ صراطية البدوي، انسان الصحراء، امام الله في كامل عرى الانسان التاريخي انها تعكس المطلق وتزدهر في مجتمع نصف ابوي (بطريركي) مساواتي وديموقراطي. وهي تؤلف دائما وابدا بين الفردية بالمعنى الجماعي وبين الروحية الكونية في مفهوم دار السلام او ارض الاسلام. وفي ذلك تراصية ونزعة تجمعية يعصى فهمها على غير المسلم. غير ان السنة هي قبل ذلك كله الشريعة وحرفية القانون. واهل السنة عرق ثقافي بالغ الغنى يعود ثراؤه الى كافة ما تمثله هذه الطقوس تاريخيا والى الصوفية بوجه خاص. فالاسلام هو عالم الكشف والنماذج الاصلية.

وهكذا، فان لبنان هو بلد اعظم تنوع ثقافي. وكان يمكن ان يكون اكثر غنى، وبما لا يقاس، لو انه تعرف الى نفسه. وكان بوسعه ان يعطي العالم امثولة، وان يكون وطن التوفيق بين الثقافات ورمزا ضروريا اكثر

من مفيد لانه انساني حقا. ولكنا اعطينا معنى جديدا للمساكنة الانسانية، وقدمنا للمجتمع الحديث مثلا عن جماعة مختلفة ليست مجرد حشد من الافراد على الطريقة الغربية بل تجمعا من الثقافات، او قل عصبة امم صغيرة. وقد سبق للامبراطورية العربية الاسلامية ان لعبت هذا الدور حين الفت بين اناس واعراق ثقافية ولغات مختلفة محدثة نهضة ثقافية خارقة. فلا يزال ثمة اكثر من مليوني مخطوطة كتبت في تلك الحقبة ولم تنشر بعد. كما ان عددا اخر اعظم من ذلك، تلف ابان الغزو المغولي والتتري والصليبي حيث احرقت صروح بكاملها ومكتبات بكل ما فيها. **والرأي عندي هو انه كان يمكن للصيغة اللبنانية ان تكون مثالية فيما لو انا قبلنا الامتزاج ورضينا التكافل قلبا وروحا داخل امة واحدة انسانية بالتراث: اي لو اننا ارتضينا التنوع في الوحدة لا الكثرة فيها.**

فهل يمكن تحقيق هذا الحلم في عالم اليوم؟ **افلايزال بامكاننا، لسوء الحظ، ان نقول ان الدولة الحديثة هي بنية انسانية؟ ان المتحدثين عن الحداثة ليتحدثون عنها وكأنها مثل اعلى او اسطورة عدنية.** فلا بد من معاودة التفكير في الدولة الحديثة. فكثير من آلامنا واوجاعنا جاءتنا من المذهب المساواتي كما صاغه روسو، ومن الفردية الضارية التي تقطع الانسان عن جذوره الثقافية التاريخية، وعن اسرته ومتحده الثقافي والديني وعن ريفه او قريته. وفي هذا النطاق ذاته من الافكار **فان الجنرال ديغول كان يتمنى، هو كذلك، العودة الى كيانات المناطق لإنقاذ ما لايزال يمكن ان يكون كيانات ريفية او قروية...** انه يعرف ماذا يستبقي من الازمنة القديمة. فالقرية التي وجد كل ما فيها على قياس الانسان، تشكل عرقا او اصلا متخصصا متميزا. افيمكن للدولة التي لم تكتسب خصائص خاصة بها حقيقة ان تكون قابلة للحياة؟ افيمكن للبشر ان تحيا فيها بصورة شريفة؟ افيمكنهم ان يتنفسوا فيها؟

واذن، فان خطيئة لبنان الرئيسية (او كبيرته) هي روحية التعصب (التي حملها الموارنة) واسهمت في تدمير الصيغة السياسية الثقافية ذات المنحى التعددي. ولعله كان من الصعب، والحق يقال تشجيع هذا الوجه الخاص ببلادنا والحفاظ عليه، بالنظر الى تأثير المنحى الآخذ بالحضارة الغربية. فقد نزل بنا هذا المنحى الغربي الذي اسيء فهمه، ثم من بعد ذلك الامركة التبسيطية المتسلطة صامدين ازاء البرغماتية اللااخلاقية، مثلما نزلت نوازلها بكافة شعوب العالم الثالث. وانما كنا نؤثر البقاء صامدين ازاء غزو التقنوقراطية البربري هذا.

ولقد عرف الموارنة كيف يتكيفون مع العروبة في خلال فترة من الزمان، واظهروا الكثير من الجرأة بشهادة العرب جميعا، فاسهموا في اعداد

الادارات في كثير من البلدان العربية، وفي تشجيع الثقافة وانهاض الصحافة والكثير من المهن الحرة. فهم خير معاونين لكنهم رؤساء رديئون لانهم يغلون انفسهم بالمصلحة الشخصية والمربح والترف الدنيوي... انهم نقيض زهد الرهبان القديم، او لعل ذلك رد فعل تاريخي على سلوك رهبانية وفكر مار مارون الرهباني. فليست لديهم فكرة الدولة ولا فكرة الامة... **والمال يتصدر كل شيء ويا للاسف في هذا الجزء من المشرق بحيث ان الملأ كله على هذا النحو.** وقد تترجمت هذه الازدواجية في الفكر والسلوك الى العادات بشيء من اللبس والابهام. فثمة هوة قائمة، لدى كافة المسيحيين ، بين التصور والفعل وبين القصد والارادة. ثم ان هذا كله موسوم بسمة الفريسية والعبرانية المنحطة. ولقد عشنا على هذه الاعراف وهذا التعايش الكاذبين سنينا. وكان ثمة رؤساء تقليديون مسلمون ومعهم بعض من المثقفين المسيحيين يعلنون ـ تسترا على هذا التهرؤ ـ ان لبنان هو امثولة حياة وان الناس فيه متحابون ويرون الخير لبعضهم بعضا، وانه وطن الصداقة الاجتماعية والمحبة الحقيقية والحب. ولعل في المستطاع اكتشاف بعض من الجوانب الايجابية، في هذا الكلام.

الا ان هذا الكلام بمجمله بعيد عن الصحة. **فالناس تتكاذب في هذا البلد، حتى بصدد ميثاق عام ١٩٤٣ الوطني واستقلال لبنان.** كانت هناك كذبة اساسية فكان لا بد للعنف من الحلول، اذ العنف عادة ابن الكذب. والرجل الشجاع الصادق لا يمكن ان يتردى الى العنف، اللهم الا ان يكره على الدفاع عن نفسه. **ويجد الناظر في هذه الضراوة التي تجتاح لبنان عادات بعض العبرانيين عندما دخلوا فلسطين بنصيحة الههم يهوه واغتالوا الرجال والنساء والاطفال والخيل والحمير والبغال واتلفوا المحاصيل وقطعوا الاشجار ونهبوا منازل اعدائهم.** كان يجب الا يبقى شيء. انه البدوي الهائج المنفلت العقال والبربري الذي يعيش عصر الغزوات... والاحداث الحالية هي تكرار لتعصبية وبداوة ما مضى. **اليس في ذلك دليل على ان الموارنة هم اكثر عربا في اصولهم مما يحسبون؟** فنموذج العشيرة الاصلي لايزال قائما لدى اللبناني الحديث المتحضر. وقد باتت اعراض العنف والتوحش اكثر صراحة واشد ظهورا نتيجة لاستلاب الجماهير المعنوي، ولاسيما الاجيال الجديدة، وبسبب التوتر والامراض النفسية الذهانية التي خلقتها وعززتها الحضارة الجديدة.

ثم ان الانعزاليين كانوا يعتقدون من الناحية الاخرى، ان الدستور قدس اقداس وشيء كشريعة موسى. (ماذا حل بالمسيحية؟). وقد كان هذا الرفض للتطور السياسي، السبب المادي المتأصل الذي فجر الازمة. فرفض التطوير الديموقراطي للمؤسسات هو رفض للعيش مع الآخرين ورفض للتنازل والتسوية اللذين لا غنى عنهما في العلاقات الاجتماعية. كما ان رفض

التطور الحقيقي من قبل الموارنة، هو معنويا وخلقيا. بمثابة رفض لله ورفض للانسان.

وثمة سبب آخر لما جرى، هو ان طبقة الاقلية السياسية المستغلة، اي المسيحيين، كانت تريد الابقاء على طابع لبنان «كملاذ وملجأ» وتعارض كل تطور من شأنه ان يتيح تجميع اللبنانيين في امة واحدة **وشعب حقيقي**. ويضاف الى ذلك، التناحر بين مفهوم - متجر الشرق الاوسط، وبين تطلع المواطنين، ولاسيما الشبيبة، **الى امتلاك وطن**. وكان الخيار بين الوطن وبين «الدكان التجاري ». غير ان هذا كله لم يكن ليبرر مطلقا هذا الحمام الدموي وهذه المجزرة الشبيهة بمجزرة «سانت بارتيلمي».

ومع هذا، فان قادتنا هؤلاء، طالما انتشروا في زوايا الكون الاربع مشيدين بالصيغة اللبنانية. لكن، لعل هذه الصيغة لم تكن سوى اسطورة جديدة من الاساطير التي تروج عن هذا البلد. الا انها كانت على اي حال اسطورة احسن توطيدها والتمكين لها على نحو خاص. فهكذا يحدث بالنسبة الى بعض البلدان، اذ تشاد على كذبة اجتماعية، ثم تكتسب هذه الكذبة عبر الدعاية شيئا من القوة؛ قوة الواقعة لا قوة الاقناع. افكانت هذه الرابطة المهيضة التي نشأت في لبنان في الكذب محكومة بالتقصف ذات يوم او بالزوال بسبب التعصب الذي لم تشأ الطوائف ان تفارقه؟ افتكون هذه النزعة نزعة خاصة بالشرق؟ بل الغرب عرفها مع النحل البيزنطية ثم مع البروتستانت خاصة والاثينية الكاتارية ، الا انها حقبة انقرضت من تاريخ اوروبا ومن عقليتها. اما هنا، فهيهات، ذلك ان القوم لايزالون يتشبثون بها بسبب تأخر التطور المعنوي والاخلاقي ولا ريب.

غير ان التطور جرى في اتجاه ليبرالي، ذلك انه كان لثورة ١٧٨٩ لفرنسية الكبرى اثر خير في هذا المجال حين جاءت بفصل الكنيسة عن الدولة واقامت قانون نابوليون المدني. كما ان الفلسفة بوجه خاص حملت الكثير الى ممارسة الليبرالية السياسية. اما في الاسلام فان المرء لا يصادف فلسفة. فقد انطوى ابن رشد وابن سينا وسائرالذين مثلوا شيئا من الفكر في الاسلام في الماضي، على انفسهم، وخنقتهم الصراطية المستقيمة، فلم يكن لهم من تأثير في عادات الازمنة الحاضرة. وتلك ثغرة خطيرة، لان الفكر الفلسفي كان ذا اثر حاسم على العقول وبالتالي، على العادات في جميع الازمنة كما برهنت ذلك مصر القديمة واليونان والهند والصين...

... واذا كان لبنان قد عرف فترة سلام مدني طويلة مديدة، فلأن الطوائف قد نجحت في بعض الاحيان، واعتبارا من قيام لبنان الصغير في العام ١٨٦٤، في ان تتقاسم السلطة بصورة عادلة الى هذا الحد او ذاك. فقد كان ثمة ضرب من التعايش بين الدروز والموارنة كان يحفظ في ذلك السياق شيئا من الغلبة النسبية للدروز. سيما وان رئيس السلطة التنفيذية، اي متصرف جبل لبنان، كان تركيا من الاقلية المسيحية غير المارونية.

وبصورة عامة من افراد طائفة الروم الكاثوليك الصغيرة أو الطائفة الارمنية وكان يعين من قبل الباب العالي ويستفيد من حماية الدول الاوروبية الست العظمى التي كانت تضمن نظام لبنان والتوازن بين المواطنين. وهكذا فقد عشنا في ضرب من السلام السياسي، المرتجل في كل لحظة، ولكن القلوب لم تكن نقية طاهرة. فقد كان الموارنة ابدا فريسة لعطش لا يرتوي من اجل توسيع مناطقهم وتضخيم نفوذهم، منكفئين على انفسهم منغلقين عليها داخل الخوف من التطويق والمحاصرة. وفي ذاك مافيه من عظيم الشبه بالصهيونية. وعلى اي حال فان نتيجة الموقفين تقبل المقارنة؛ الا وهي استحالة التعايش (مع الاغيار) في دولتهم المارونية قد تبنت، على غرار الصهيونية، فكرا امبرياليا عنصريا وطائفيا. لا بل انه بقي للصهاينة اليهود، احتكاكات بالفكر الاوروبي، وحافظوا على سننهم وتقاليدهم، بل وعلى عدد من صوفياتهم السلفية، وعاشوا بصورة ليبرالية الى هذا الحد او ذاك في الاوساط الاوروبية وتبنوا عقلية هذه الاوساط. ولهذا فانهم لا يتسمون بالقدر الذي يتسم به الموارنة من تعصب طائفي حاد، عال ومرضي. ولم يرتكب اليهود ازاء العرب ما ارتكبه الموارنة الانعزاليون من افراطات ازاء المؤمنين من المسلمين. وتلك آية حالة نفسية يجب تحليلها عن كثب لسبر غورها وتكنهها.

وقد كانت البنى الدستورية اللبنانية من التناقض مع مبدأ دولة المساواة والديمقراطية، بحيث انه كان لا بد للنظام الطائفي من ان يتصدع ذات يوم، جارا البلاد كلها معه الى الانفجار. كان انهاض لبنان في دولة صغيرة امرا اقرب الى ان يكون ضد الطبيعة. فاذا كان هذا البلد قد تمكن من الاستمرار عبر التاريخ، فلأنه كان على شكل امارة صغيرة ذات منحى عربي، وتلعب دور الجبل الاسود في المنطقة. وقدره يشبه قدر الجبل الاسود. اي ان يتوارى، ولا مراء، في تكوين طبيعي اكثر اتساعا؛ هو في رأيي سوريا الطبيعية.

غير ان تقطيع الفرنسيين والانجليز في العام ١٩١٩ لاوصال سوريا الطبيعية هذه، كان عملا فيه بعض البربرية واسهم في القضاء على التشكيلة اللبنانية ذات الاساس الطائفي، في مهدها. ويجب الا ننسى ان البلد كان يتحرك، ايام كان تحت حكم الامراء اللبنانيين نصف المستقلين، في اطار سوريا الطبيعية ويعمل لصالح علمنة واستقلال سوريا كلها. ويقول المؤرخ الاب لامنس في المحاضرة التي القاها في العام ١٩١٩ عشية اعلان الجنرال غورو انشاء لبنان الكبير: **«حذار من تقسيم سوريا» فانها كقميص المسيح، نسجت من خيط كتاني واحد، فاذا ما قطعت تلفت وضاعت».** وكان يلمح بذلك الى الفرنسيين والانجليز الذين كانوا قد شرعوا في اقتسام المشرق. ويقول ايضا: «او تريدون سوريا؟ حسنا، فليأخذها احدكم، ولكن بكلها وجميعها ولا تقسموها». والحق، ان التقسيم

كان اصطناعيا محضا· وكان ينبغي لفلسطين الانتدابية ولبنان الانتدابي والاردن الانتدابي، ان تكون دولة واحدة· كما كان بامكان كافة الاقليات في اطار كهذا ـ ان تتخلص بالكامل من مراودة التعصب الطائفي لها عن نفسها وان تسلك سبيل القومية السورية ـ العربية التي كانت ستمثل جوهر وخميرة مختلف الصراعات الاستقلالية القائمة منذ ١٢٠٠ سنة· واعتقادي ان هذه القومية هي القومية الوحيدة القابلة للحياة في هذه المنطقة· فقد جرى اصطناع قومية لبنانية واخرى فلسطينية وثالثة سورية؛ الا ان ذلك كله كان معاديا للقومية ويسير عكس وجهة فلسفة التاريخ السياسية· فليس بالامكان كتابة تاريخ لبنان، بل تاريخ سوريا الذي يشتمل على تاريخ صغير هو تاريخ لبنان· **فلبنان العلماني التقليدي المتجرد من الطائفية هواللبنان الوحيد القادر على البقاء· اما لبنان الطائفي فمحكوم عليه بالموت·** واذا كنا اليوم نتراجع امام اية صيغة **اتحاد مع سوريا، فبسبب تعلقنا بالديمقراطية ـ وربما بسبب جمال بلادنا ايضا ـ فالحرية هي كرامة الانسان·**

ومن جهة اخرى فانه لا بد لنا من الاقرار باننا عرفنا في بلاد الاسلام حقبات تراجع ونكوص تتسم بالتطبيق الصارم الحرفي للشريعة؛ ولاتزال مثل هذه الاندفاعات الرجعية مرئية في اكثر من بلد عربي، حيث لايزاله القانون المدني غير مطبق لاسيما بالنسبة الى الاحوال الشخصية والقانون الجنائي؛ فلاتزال قاعدة العين بالعين هي السارية التطبيق· وهذه الارادة في تمديد الماضي واطالته، وفي الحفاظ على مؤسساته التي ولى زمانها،

وتطبيق احكام الاسلام بصفته دولة ودينا في ان معا، وانحطاط تأويل الشرع في اتجاه التضييق، كل ذلك جعل مسيحيي لبنان يشعرون بانهم مهددون· الا ان خوفهم هذا كان في حقيقة الامر خوفا وهميا، فقد بالغوا في توهم الخطر· **ثم ان بعضا منهم، من المحافظين والانتهازيين ورجال الدين المنافقين او المدنيين الكاذبين، استغلوا ذلك عمدا لنشر مرض الخوف الذهاني·**

غير ان المسيحيين كانوا يملكون مختلف الاوراق من اجل لعب دور المجددين الحقيقيين· فهم في الواقع رجال دعاية ممتازون فيهم المشاهير من القصاصين والشعراء والمؤرخين؛ كجبران وميخائيل نعيمة والريحاني وعمر فاخوري والدكتور حتي وكثير سواهم· لقد كان بامكانهم . بل كان يجب ان يكونوا باعثي نهضة جديدة، وادخال ما يمثله الغرب من تطور عقلاني ومن استمرار يوناني الى لبنان، متوسلين فلسفة الحوار السقراطي، وفلسفة الليبرالية الانسانية الكاملة، اي بالاجمال ادخال وجودية العصر الجديد اليه· وانا اتكلم هنا عن الغرب الذي يجب ان يكون بالنسبة اليهم، كما هو بالنسبة الينا، غربا غير مفصول عن اليونان، اي عن الغرب

الحقيقي، لا الغرب الذي يجرجر نفسه الآن وراء الولايات المتحدة والرأسمالية العليا· واذا فقد كان بمستطاع المسيحيين الكثير، فتعريف العالم العربي بعقلانية اوروبا وبفكر النهضة وبمختلف فلسفات الوجود والسلوك، كان سيساهم مساهمة قوية في هز الاساطير وفي تنمية محيطهم روحيا· وفوق ذلك، فقد كان بامكانهم كذلك تعريف مسلمي اليوم، بتراث الاسلام ذي الاثر التمدني الغني بماضيه· كان ذلك سيكون عملا طويلا، لكن ما كان اكثر نفعه واعظم فائدته واجزل ثمراته بالنسبة للجيل المقبل·

وبدلا من ان تتصدى لهذه المهمة النبيلة، **فان المارونية الانعزالية انقبضت على نفسها انقباض الاميبيا حين تلتقي مثيلتها، رافضة العمل في مجالها الحيوي الخاص، الذي هو على كل حال، مجال المسيحية اللبنانية كلها: عنينا العروبة·** ان مهمة نشر الفكر الغربي · ومهمة احياء التراث العربي البالغ الثراء والانسانية ، هما مهمة بعث، هما واجب اللبنانيين الاساسي مسلمين ومسيحيين انى حلوا وأنّى هاجروا· غير ان الموارنة اداروا لسوء الحظ، ظهورهم لهذه المسؤولية، ففروحية الطائفية مستحوذة عليهم، وقيمتها كاسطورة تغشي ابصارهم· طائفية ضد طائفية، الا ان كل الطائفيات في النهاية سواء···! فكان لا بد من توقع المواجهة· **غير ان للحرب بالتأكيد اسبابها الاجتماعية والاقتصادية ايضا·** اذ طالما عاش هذا البلد ليبرالية خداعة لا تحدها حدود وقوانين ولا تقيدها قيود وعوائق، ولا يردعها رادع اخلاقي ولا وازع انساني ولا تحرز ضمير· كان كطنجة الامس او كهونغ كونغ اليوم· **بل ان مملكة الاتجارية (المركنتيلية) المجنونة المستأثرة والمحتكرة على الطريقة اللبنانية· الا انها الروحية الفينيقية!···** كان الناس يغتنون بلا سبب وبأية وسيلة اتفقت وفي غالب الاحيان تأتيهم الثروة تعسفا وبعدا عن الخلق· الامر الذي اسهم في انهيار الاخلاق التي كانت حتى ذلك الحين اخلاقا فعلية فعالة وحية في العادات وتترجم نزاهة واستقامة في الاعمال ولا ريب من انها كانت اخلاقا قروسطية الى حد ما، ولكن فيها سليقة الثمن العادل والاجر العادل والمكافأة العادلة· اما المضاربة على الاراضي فقد تكفلت بالبقية الباقية· ففي الماضي كان الناس يستخدمون اثمانا ثابتة منمطة، اما الان فقد انتهى كل ذلك· وخربت اخلاق الماضي فلم يبق منها الا بعض الآثار هنا وهناك في قرى الجبل·

ومن جهة ثانية، فان هذا الاثراء غير المشروع افضى الى فساد عام· فقد كان اثرياؤنا متواطئين مع امراء ومشايخ واقطاب المال ···

فكنا نرى، على سبيل المثال، هذا الملياردير اللبناني او ذاك يقف ساعات وساعات في المطار ليستقبل شيخا ويحمل له حقيبته· وذلك هو الخزي والهوان في عبودية المال·

ومن جهة ثالثة، فان هذه الثروة التي تدفقت على لبنان تدفق ذهب ومعادن هنود الانكا الاميركيين الثمينة على اوروبا - قد انشأت مجتمعا بشعا. مجتمع ظلم اقتصادي واجتماعي برغم ديناميكيته شبه الاميركية. **فأربعة بالمئة من الناس يملكون بمفردهم ستين في المئة من الدخل القومي القائم في حين ان الستة والتسعين يتقاسمون الاربعين الباقية. كان هناك فعلا الكثير من الفضائح.** فالفيلات الباذخة، والقصور التي تنشق الارض عنها فجأة. وطريقة الحياة والغذاء والراحة فيها، كل ذلك كان بمثابة فضيحة بالنسبة الى اواسط الناس والجيل الجديد. كان كل شيء نقودا. وانمحى التمييز بين الربح الشرعي والسرقة. كنا نعيش في زمان المئة عائلة، وهي عائلات مفرطة الثراء وتأتي بين اغنى عائلات الشرق. فقد كان هناك فارق عظيم في المداخيل يفصل العامل اليدوي البسيط او العامل الزراعي الذي كان اجره يتراوح بين ٧ و١٠ ليرات في اليوم، عن رجل المال او الاعمال الذي يستطيع ان يكسب ٣٠،٠٠٠ ليرة في اليوم.

ومن ناحية رابعة، فان هؤلاء الاغنياء الذين يملكون «مال قارون» لم يكونوا يدفعون ضرائب. فقد كانوا يفلحون في الافلات منها نتيجة لفساد الادارة العام. والواقع هو ان الادارة كانت خاضعة لرغباتهم شأنها في ذلك شأن مجلس النواب والدولة. وكانوا يملكون قدرة سياسية عظيمة ومباشرة، ان في مجلس النواب وان في داخل الحكومة: فهم - عمليا - الذين ينتخبون رئيس الجمهورية بحيث ان قليلا من الانتخابات شذت عن هذه القاعدة. فالسلطة هي سلطة الاوليغركية (حكم الاقلية الغنية). حتى ان الرئيس شهاب كان يسمي ذلك «جدار المال»... واذا فقد كانت لديهم الامكانية لصياغة التشريع الذي يجنبهم دفع الضرائب.

والى جانب ذلك، **كان المواطن يكابد كل انواع الجور والتنكيد،** فبدلات الايجار باهظة لانها كانت شبه حرة بحيث ان عامة الناس كانت تقاسي من ذلك شيئا رهيبا: و٣٠ الى ٥٠ بالمئة من اجور العمال او من رواتب الموظفين تذهب ايجارات سكن.

وهكذا فقد تنظم حول بيروت ما دعي بـ«**حزام البؤس**» الذي راح كثير من الناس يتجمعون فيه لتعاطي كافة انواع النشاطات حيث يعيشون من لا شيء تقريبا. **وبوسع من يشاء ان «يتفرج ويعجب» على عينة من ذلك في النبعة التي سقطت في ايدي «الابطال الكتائبيين» او في الكرنتينا او الشياح او برج البراجنة، الخ....** بل كان ثمة ست عشرة منطقة بؤس في داخل بيروت ذاتها حيث لا مجارير ولا كهرباء بل ولا مياه شفة في الغالب من الاحيان... حتى ان

المرء ليظن نفسه في اوروبا القرن التاسع عشر ايام انبعاث مدن الصفيح. ولم تكن الرساميل وخيارات الدولة الاقتصادية تتجه مطلقا وجهة التثميرات التي تخلق فرص عمل للناس على نطاق واسع اي وجهة الزراعة والصناعة. بل كان لا بد من صراع ضار حقا لسن قانون انشاء مديرية عامة للصناعة ثم وزارة صناعة؛ ولولا ان عددا من التجار وظف ماله في بعض الصناعات، لما جرى التصويت على مشروع القانون. **واذن فقد كنا ابدا وفي كل شيء تحت رحمة التجار ورجال المال.** كانت اسعار الاراضي ترتفع وتنخفض بصورة معيبة: حتى ان قطعة الارض الصغيرة في بيروت باتت اغلى ثمنا من مثيلتها في الشانزيليزيه. ولم يكن هناك من يفكر فعلا بحياة الجماهير: **كان الرئيس شهاب قد شرع في اثارة الاهتمام في هذا الاتجاه، ولكنه لم يستطع ان ينجز عمله.** الا انه القى اسس سياسة اجتماعية ولا ريب؛ ومن المأثور عنه قوله في نهاية عهده: «اذا استمر الاغنياء في الحفاظ على امتيازاتهم ضد كل شيء وضد كافة الناس، فان ثورة اجتماعية ستنشب في لبنان». وها نحن اولا نعيش هذه الثورة، الديمقراطية والاجتماعية في آن معا. ولكم كان من المفيد اكمالها (ولكن سوريا لم تترك لنا وقتا لذلك ولا وسيلة).

وينبغي ان نضيف الى هذه اللوحة العامة ان الاقطاعية الاكليروسية ظلت كما هي لم تمس ولم تتغير. فالكنيسة تملك ثلث او حتى نصف بعض الاقضية، كما هو الحال مثلا في كسروان وجبيل والبترون. ويقال ان ٢٠ بالمئة من اراضي لبنان الزراعية تخص الاكليروس. وكان «**الراهب الاحمر**»، الاب لوبريه الذي درس المشكلة الاجتماعية اللبنانية يقول: «**في مقابل كل راهب، هناك ملكية تصل قيمتها الى مليون ليرة لبنانية**». وقد ارتفعت الاثمان منذ ذلك الحين، وقل عدد الرهبان. بحيث بات يجب ان نحسب الآن ان كل رأس حليق من رؤوس الكنيسة يملك ١٠ الى ١٥ مليون ليرة. وهكذا فان رجال الكهنوت هؤلاء، بمن في ذلك المطارنة والبطاركة، يملكون اراض شاسعة ذات غنى لا يقدر. ولم يشاؤوا ان يبيعوها برغم الايعازات المتكررة من قبل البابا الذي كان يأمرهم بالقول: «يا عمي بيعوا واستخدموا المال في اعمال البر وفي الحقل الاجتماعي...» الا ان لاكليركيي لبنان هالة من ذهب!

واذا فان الملكية الكبرى العقارية، وملكية الاكليروس الماروني خاصة، تظل مشكلة ضخمة في لبنان. ولكنها ليست مشكلتهم وحدهم. اي مشكلة اقطاعيي الكنيسة، سيف الله وسلطانه. فهناك املاك بعض كبار الملاكين في سهلي البقاع وعكار. ذلك ان ما يزيد على نصف اراضي البقاع هو ملك لخمس عائلات. تضاف الى ذلك، الامتيازات الاميرية ولا سيما بعض ممارسات المزارعة والربح الاقطاعية التي ترجع الى القرون الوسطى. فضلا عن اعمال التنكيل والتنكيد التي يوقعها عدد من كبار الملاكين ومن

الرهبان احيانا. بالعكاريين. والتي لا مبرر لها اطلاقا. حيث يعاني خدمهم من ابسط الناس من ذلك الكثير (ويترجمون ذلك في بعض الاحيان الى تمردات)؛ ولا بد من الاشارة - فوق ذلك - الى الملكية الكبرى التي تملكها الشركات العقارية التي تنتزع من صغار ومتوسطي الملاكين قطع ارضهم الصغيرة. وفي خلال الانتداب. نجحت فرنسا في ري حوالي خمسة آلاف هكتار من الاراضي بين صور وصيدا. **الا ان كبار تجار بيروت وسماسرة الاراضي، تمكنوا هنا ايضا من طرد الفلاحين والملاكين المحليين.** وهكذا فقد اختفت جنائن الحمضيات والموز الصغيرة. ويقينا ان الاوضاع الجغرافية - السياسية كانت احدى الاسباب الرئيسية في الثورة الاجتماعية - السياسية التي تطورت في لبنان. (ولم يمنعنا عن تحقيق اهدافنا المشروعة ووضع حد نهائي لهذا الوضع المعيب سوى تدخل جيراننا العسكري)؛

وزاد من سهولة المضاربة العقارية. ان هذه الاراضي، في الجبل او في المناطق الاخرى، لم تكن تعطي من المردود ما يذكر. لان اصحابها لم يكونوا يملكون الامكانات المالية لاستغلالها. فليس ثمة مصرف جدي وفعال للاقراض الزراعي في لبنان. ولهذا فان بيع هذه الملكيات المتوارثة كان يجري بدافع الافادة المباشرة. وهكذا. فلا يزال ثمة قرى كبيرة قائمة في الجبل والبقاع وعكار، ولكن الاراضي المحيطة بها باتت ملكا لاثرياء بيروت. ولا بد لنا من ان نأخذ بعين الاعتبار الاراضي التي تمتلكها الابرشيات والاديرة. والمبرات الخيرية والاجتماعية المزعومة في مدينة بيروت نفسها وفي ضواحيها وفي الجبل. على هامش مشاركتها في شركات الربح العقارية. وفي بعض الصناعات كالترابة الاسمنتية مثلا... بعد هذا. يبقى ان الرهبان مضاربون فاشلون. **وسبب ذلك ولا ريب هو انهم غالبا ما يشغلون انفسهم بالسياسة، او ربما لانهم يكثرون التفكير في رفاهيتهم وفي «مطعمهم» وفي النبيذ الفاخر وفي لعب دور المتسيدين في القرى،** بأكثر مما يفكرون بالعمل الاجتماعي الطيب. والحق ان الاكليروس كان فيما سلف جاهلا تماما. فقد كان الفلاحون كثيرا ما يلبسون مسوح الرهبان او الكهنة لانه كان يؤذن لهؤلاء في تلك الحقبة بالزواج. فلم يكن الارتسام في الكهنوت امتحانا صعبا. وبطبيعة الحال فان هذا الجانب من الامور. كان يقرب الكاهن من رعيته. فيتعاطى في شؤون حياتهم الدنيوية خاصة؛ وتلك هي ميزة الكهنوت الشرقي؛ فالرهبان هنا يهتمون بلبنان. بأكثر مما يهتمون بالمصالح الروحية وبالحياة الاخرى... وغالبا ما كانت الكهنوتية «قضية مربحة».

... وهناك سبب اخر من اسباب النزاع هو انبثاق الافكار الجديدة في

لبنان ، عنينا الايديولوجيات الاشتراكية والماركسية الغيفارية والمادية . فقد كانت مختلف حماقات الدنيا تختلط بالمشاعر الطيبة . وهكذا فقد تكونت عشرات دوائر الدراسة حيث يجتمع فيها شباب . يجتذبهم بريق الجديد . لدراسة الماركسية أو النظريات الاخرى التي كان بعض منها نظريات غريبة خرقاء . وثمة ظاهرة اخرى اسهمت في هذا الاندفاع الثقافي . هو ضخامة عدد الطلاب ؛ فقد كان هناك حوالي ٦٠,٠٠٠ طالب في الجامعات الخمس ، وهو عدد ضخم بالنسبة الى مدينة كبيروت . وكان ذلك كله منغمسا غارقا في وسط الثورة الفلسطينية . فكنت تسمع الحديث عن الثورة آناء الليل واطراف النهار . بينما كانت مثالية الشباب السليقية تتكفل بالباقي . فالتطلع الى الثورة والى القيام بدور ثوري كان أمرا دارجا . واذا فان التمرد كان في الهواء الذي نتنشقه كما يقال . بحيث ان الشبيبة كلها كانت تريد التغيير . وازاء ذلك وجد جماعة اليمين ولا سيما الشيخ بيار الجميل ورفاقه . انفسهم في حيرة من أمرهم اذ ادركوا ان الشبيبة تفلت من أيديهم . وعند ذاك ادخلوا الفاشية الى المدارس ونشطوها في المجتمع المسيحي البرجوازي بغرض منع الافكار الجديدة التقدمية من اكتساب النفوذ والتأثير . فكانوا يجهدون في سجن هذه الشبيبة التي تتطلع الى التغيير وتصطدم بالبرلمان والدستور والادارة العاجزة الفاسدة وحكومة الاوليغركية الحاكمة . وبينما كانت القطيعة بين الرأي العام وبين الدولة تكتمل . كانت الانتلجنسيا تنشر الافكار الجديدة . وكانت هذه الافكار تجري بسرعة كبيرة . ويروج لها كثير من اساتذة الجامعات والمعلمين والموظفين ... بنشاط . **وقد أسهم هؤلاء جميعا في خلق بؤرة معنوية للثورة ، فشاهدنا ولادة « كتلة تاريخية » جديدة وفقا لمصطلح روجيه غارودي .**

غير ان هذا التمرد لم يرد . ولا ريب . في اللحظة المناسبة تماما ؛ فقد كانت بدايته سيئة لأنه انفجر عرضا وكأنه هبط فجأة من السماء بمناسبة الاشتباكات مع الفلسطينيين . **ولقد كان يجب انتظار سنتين أو ثلاث سنوات لكي تنضج هذه الثورة السياسية والاجتماعية ثم تعلن عن نفسها على طريقة الثورات الاوروبية الكبرى** واذا كان لبنان قد شهد اختلاط الظاهرات الدينية والطائفية بآلية (ميكانيزم ؛ الايديولوجية الحقة . فبسبب هذا الانطلاق السابق لأوانه . كان ما خبث من النبات يختلط بما طاب منه . وبين التأثيرات الايديولوجية التي تنحو نحو التقدم . تندرج كنيسة يوحنا الثالث والعشرون والبابا الحالي بولس السادس . كما ان تأثير الاب تيارد ده شاردان لم يكن بالتأثير الهين اليسير . فبعض المثقفين اللبنانيين كانوا قد قرأوه قبل نشره . مطبوعا على الالة الكاتبة منذ عام ١٩٣٦ . وكان كثير من الكهنة والرهبان والاساقفة يؤيدون التغيير ويبشرون بـ « الكنيسة الجديدة » . بل كان بعض من ابناء الملاكين يحلمون بالانجيل والماركسية او بتيارد ويرغبون بقيام نظام جديد على الارض . مؤيدين بذلك جدلية التناقض بين الاجيال . والنزاع التقليدي بين الاباء والابناء الذي سبق للجغراسي (الجغرافي السياسي)

الكبير والفيلسوف العربي ابن خلدون ان استشفه في القرن الرابع عشر · لا بل انه كان ثمة اناس بين رجال المال والملاكين انفسهم، بعض مسيحيين - وبالمعنى الحقيقي للكلمة - من المستنيرين وبعيدي النظر، يرفضون النظام القديم · غير ان الرفض والاحتجاج كان ينمو خصوصا لدى نبيتات الحياة الجديدات بتشجيع من ندرة نادرة من الاساقفة وبعض الكهنة · وبالغا ما بلغت برقشة وتعدد ألوان المجموع، الا ان ذلك لا يمنع انه كان طبقة متمردة تطالب بعصر جديد · ولا ريب في ان اكثر التيارات اثارة للاهتمام كان ذلك الذي يدعو الى ضرب من الخليصة - الاسلامية - المسيحية المركبة ·

ففي البترون كان احد الكهان يبدأ قداسه بـ « الله اكبر » أو « بسم الله الرحمن الرحيم » · وثمة كاهن آخر، عمل كمحاضر كبير واستاذ في السوربون، كان يلقي مواعظ حول المتصوفة المسلمين في قلب كنيسة مار جرجس في بيروت، داعيا الى انهاء الطائفية، والى اندماج الثلاث عشرة أو الاربع عشرة نحلة من النحل الموجودة حاليا في المشرق في حضور مسكوني واحد والى العودة الى ما أسماه بالفكر الفلسفي الذي استخلصته جامعة انطاكية القديمة والذي اخرج فكرا كاثوليكيا شرقيا، طواه لسوء الحظ النسيان منذ ذلك الحين ·

وهذه الفكرة قريبة من مدرسة الاسكندرية التي تحدرت عن اللقاء المتناغم المتجانس بين الفكر اليوناني والفكر المسيحي ومدت بتأثيرها الى المذهب الدرزي والى الاسماعيلية والى سوى ذلك من المفاهيم العقلانية، بل والى بعض متصوفة الاسلام · وهذه العودة الى الاصول - ان المسيحية منها أو اليونانية - الشرقية، تبدو - على الرغم مما يلاك حولها - اكثر توافقا مع الازمنة الجديدة وتستجيب بالتأكيد لحاجة عميقة لدى المسيحية اللبنانية · وثمة مزيد ؛ فلقد سلف وأثرت في هذا العرض مسألة نزاع الاجيال، وهي ظاهرة اكثر وضوحا في اوروبا ؛ فأطفال هذه الايام باتوا اقل تعلقا بالتقاليد وبكثير من آبائهم · وهم يتلقون في المدرسة تربية مختلفة ويبدأون بالخضوع للتأثير والتكيّف الذي يفرضه التلفزيون والسينما عليهم منذ نعومة اظفارهم، أي من السن الذي تستطيع فيه التقنيات السمعية البصرية والقراءات، ان تغمر عقلياتهم حقيقة · واذ ذاك تصبح هذه الاجيال الجديدة اميل الى الانفصال عن العائلة والى السير ضد التيار الذي تمثله · كما يزيد من حدة وضعها هذا انه ليس ثمة محرمات (تابو) اجتماعية ودينية تمسكها وتعقلها ·

ولسوف ترون في يوم ليس ببعيد ردة فعل مماثلة لهذه تنبعث في البلدان الشرقية فقد بدأ ذلك ولكن في الاتجاه المعاكس لردة الفعل الغربية · فثمة في الشرق رفض للمادية المسيخة، وبعث للتصوف الروسي السالف يظهر على شكل معاودة اهتمام بالمشاكل النفسانية وميادين التخاطر والاتصال الروحي (الباراسيكولوجي) والبحث عن تفسير لاصول المادة والعالم الطبيعي (الفيزيقي) · ولعل ماركس كان على حق، الا انه لم يعد كافيا ؛ لذا فان العرفان يبعث حيا · **فليس بالخبز وحده**

يحيا الانسان، وهو حين يشبع جوفه فان روحه تسترعيه · واذاً فقد بدأت تظهر في الاتحاد السوفياتي والبلدان الشرقية ردة فعل من قبل الشبيبة والمثقفين والاكليركيين والعمال المتبرجزين (فالبروليتاري بات مفهوما من مخلفات الماضي) ومتفرغي الحزب انفسهم، ضد المادية التاريخية التي لم تفهم حق فهمها ؛ ذلك انه اصبح للماركسية على الطريقة السوفياتية مظهر التقليد والسُنّة · اما في بلادنا فان ردة الفعل تمضي أكثر ضد التقليد والسنن · فالشبيبة تتشوق الى الجديد، حتى ولو كان الجديد سيئا · وتمرد الشباب هذا امر طبيعي، فهم يخضعون في ذلك لقانون تاريخي لا بد من اخذه بعين الحسبان واليوم اكثر من أمس · ولقد سبق ان ألمح افلاطون الى ذلك الا ان ما كان فجوة في ايامه صار اليوم هوة تعصى على العبور والعابرين · وعلى أي حال فان ردة فعل الشبيبة كانت من السطوع بحيث لم يكن يمكن الا تستثير ردا من المحافظين والغلاة، فراح هؤلاء يمعنون في بث الفاشية في حركتهم بصورة متزايدة، وفي التسلح وفي طرح شعارات الخوف على المسرح السياسي ·

ويقودنا هذا الى سبب آخر من أسباب « انفجار » عام ١٩٧٥ · **فمنذ عام ١٩٦٧ واليمين اللبناني يراكم السلاح** · ذلك ان هذا اليمين الذي هو يمين طائفي أكثر مما هو يمين اجتماعي، كان يعتبر انه بات، بعد هزيمة العرب امام اسرائيل، امام فرصة فريدة تمكنه من تنفيذ مخططه القديم حول الوطن الماروني، بعزل لبنان عن وسطه الطبيعي - اي العالم العربي - وتوثيق الصلات مع الغرب واميركا واسرائيل والتبعية لهم ·

وفي هذه الاونة دعي رؤساء الموارنة الاساسيون من مدنيين واكليركيين - كما رأينا في مطلع هذا العرض - الى اجتماع عام ينعقد حول الرئيسين السابقين كميل شمعون وشارل حلو ليقولوا ما جوهره، « **لقد هزم العرب ولن ينهضوا من هزيمتهم قبل زمن ؛ واذاً فأن هذه اللحظة ستكون اللحظة التي طالما حلمنا بها، اذا عرفنا ان نتحرك قليلا فنباشر في فرض سياستنا المارونية نهائيا** » · والواقع، هو ان شمعون شرع منذ هذه الحقبة بتنظيم « نموره » الشهيرين ولا يزال الملأ هنا يذكرون التظاهرة الاحتفالية التى جرت في السنة ذاتها في السعديات اثر اجتماع كبار رجالات المارونية السياسية · وكذلك فان « الكتائب » باشرت في استكمال تسلحها · **وخلال عامي ١٩٦٨ - ١٩٦٩ كانوا مستعدين تقريبا · ثم اصبح لديهم بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٢ عدد من المسلحين يتراوح بين ستة وثمانية الاف** · وهكذا اذاً، فأن هذه الزمرة كلها كانت تستعد للحرب، فتكهرب الجو وانتشر التوتر في الهواء · كان ثمة كثير من السلاح بين يدي الرجعية، فكان من المحتم ان تفضي هذه المزايدة الحربية الى اعداد الارضية للانفجار · ثم ان هذا التهديد كان يتمحور على الفلسطينيين، اذ كان لا بد من ايجاد ضحية واختيار هدف لتجريب السلاح عليه · وكان المتعصبون يروجون اخبارا مفادها ان الفلسطينيين سيصيرون نحوا من مليون نسمة خلال عشر سنوات وانهم بصدد اعداد دولة وطنية لهم في داخل لبنان · كما راحوا يشيعون

عنهم انهم عازمون على امتلاك جنوب لبنان لأنهم عازمون على الاقامة فيه . لعلمهم انهم لن يستطيعوا العودة الى اسرائيل · والاخبار الخبيثة هي الاخبار التي تحظى لسوء الحظ بأكبر قدر من المستمعين ، والسر الذي يشيع يكتسب قوة الاساطير ·

وفي ١٣ نسان (ابريل) ١٩٧٥ وقعت حادثة عين الرمانة الدموية - التي اجهزت الميليشيات المسيحية فيها على ٢٧ فلسطينيا - واندلع الأتون ·

وعند ذاك . وعند ذاك فقط ، شرع اليساريون والوطنيون من مختلف الاتجاهات . والمسلمون بالتسلح بصورة جدية · ولكن الاوان كان قد فات ·

ثم ان احداث لبنان ليست منفصلة عن السياق الشرق اوسطي ، فبدون حرب سيناء وهزيمة الجولان . ما كان لهذه الاحداث ان تقع · **كما ان الاسرائيليين لم يكونوا بريئين من كل علاقة بهذه القضية** · اذ يقوم مخططهم على تشجيع قيام دويلات طائفية وطنية متناقصة الاستقلال حول دولتهم اليهودية في اسرائيل ، دولة درزية واخرى علوية وثالثة مارونية . وكردية الخ ···· وقد وضع هذا المخطط قبل قيام اسرائيل ولكنه لم يعلن الا بعد ذلك · وثمة بعض النصوص التي تشهد على عزم الاسرائيليين هذا ، كالرسائل الرسمية المتبادلة بين رئيس الوزراء الأسرائيلي السابق موسى شاريت وسفيره في روما سامسون . حول تفتيت المنطقة الى دويلات طائفية بحيث تصبح اسرائيل الدولة المتفوقة الراجحة بينها . الامر الذي يتيح لها البقاء · **لا بل ان المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية اكد مؤخرا بمناسبة الازمة اللبنانية هذه الرغبة في قيام كيان ماروني** · وهكذا لا تعود اسرائيل محاطة بدول عربية وبها وحدها · واذاً فان الاسرائيليين كانوا الى جانب « معلمهم » ورب عملهم . اي الولايات المتحدة ، جزءا لا يتجزأ من الحرب اللبنانية · وينسب الى كيسنجر تصريح بالغ الدلالة في هذا الصدد ، « **اذا اردتم ارضاء سوريا وتحويل بصرها عن الجولان ، فاعطوها جزءا من لبنان** » · ولست ادري ما اذا كان هذا المخطط قيد التحقيق ···· **فالاميركيون ليسوا اهل مبادىء كما هو معروف ، ومصلحتهم تتصدر وتتقدم كل شيء اخر · اما سوريا فلعلها ضلت في هذا المخطط الاسرائيلي الاميركي بغباء · او لعلها اخطأت الحساب ؛ اذ لا بد من حساب نصيب الانوية الذاتية (او الانانية) واللاعقلانية والطموح لدى قادة سوريا البعثية · فهم يلقون بأنفسهم في بعض الاحيان كيفما اتفق وعلى غير علم ، فرقاً من المستقبل أو طمعا في مصلحة ، وهمية غير محددة ، أو قريبة غير مخطط لها ولا منظمة ... لكن اين هي المبادىء من هذا كله ؟ ان السوريين قصيرو النظر** · هل تدخلوا عندنا بعد روية وتدبر أم انهم وقعوا في الشرك الاسرائيلي - الاميركي ؟ انني اترك القرار في هذه المسألة للتاريخ · فغالبا ما يطبق رجال الاحزاب اليسارية . عندما يكونون في السلطة . سياسة يمينية على غير وعي منهم . بهدف الحفاظ على السلطة · وتلك نزعة نفسانية

جارية . لدى الرجال المتقلبين أو المترددين · كما نلاحظ موقفا شبيها بهذا لدى عدد من القادة الشيوعيين في ميدان السياسة الخارجية · ويضاف الى ما ذكرناه بالطبع اغراء وسحر مشروع « سوريا الكبرى » الذي لا زال القادة السوريون يمنون النفس منذ زمن · ثم انه ينبغي لنا ان نقول كذلك ان العالم العربي بمجمله كان يغبط لبنان نموه في الحرية بحيث اصبح نتيجة لذلك اغنى من كثيرات من دول المنطقة · فلبنان كان - بمعنى من المعاني وبصورة جزئية - ضحيةالحسد الكامن الذي كان يحيط به ·

ثم ان اسرائيل لم تقنع بنصيبها ومساهمتها في اندلاع الاحداث اللبنانية . **بل انها راحت منذ بعض الوقت تمد شمعون والكتائبيين بالسلاح الكثير** · وعلى اي حال فان المعونة العسكرية التي تقدمها الولايات المتحدة لليمين اللبناني . تمر في غالب الاحيان عبر اسرائيل · ولا بد من ان نلاحظ كذلك **ان حرس الحدود الاسرائيلي كانوا مزروعين في البحر بمحاذاة جنوب لبنان لمنع وصول الذخائر والسلاح الى الحركة الوطنية اللبنانية**· كان الاسرائيليون مهتمين قصى الاهتمام بتدمير لبنان وبتشويه صورته . ذلك ان بلادنا كانت تمثل في عيون العالم ضرباً من المرآة المضادة للنموذج الصهيوني · فالدولة اللبنانية هي البرهان الذي يثبت ان في وسع عدة طوائف ان تحيا وتعمل معا بسلام · ولهذا . فأن الاسرائيليين يجدون في تدمير لبنان تبريرا لتعصبهم الطائفي وللعوائق التي يقيمونها في وجه عودة الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين الى بلادهم التي طردوهم منها · واطروحة الدولة المتجانسة عرقيا وعنصريا والقائمة على انعزالية الطائفة اليهودية . هي الاطروحة التي يجب ان تظهر على ما سواها . بالنسبة الى اسرائيل · وهنا ايضا كان لبنان مثار تنكيد وازعاج ··· وقد وقع الموارنة المتعصبون في الشرك الاسرائيلي · وزاد من سهولة وقوعهم ان الدعاية ضد اليسار اللبناني كانت شديدة متقنة في العالم العربي وخارجه · فكل يصيح صيحات التحريض والتأليب على الشيوعية اللبنانية المزعومة . مهملا بالتالي المشكلة الحقيقية · ولم يكن يفلت من هذه المماهة احد بما في ذلك الحكومات التي يشترك فيها الشيوعيون كما هو الحال في سوريا (حتى ولو كان اشتراك هؤلاء البائسين اشتراكا صوريا) لقد اظهروا فنا فائقا في تحريك خيوط المأساة اللبنانية · مع ان الحزب الشيوعي في لبنان . بلد الخدمات ليس سوى كيان سياسي قليل النفوذ نسبيا ويسعى بصدق وصراحة للانخراط في السياق اللبناني والعربي · والحق هو ان اسرائيل تصرفت بمهارة عظيمة وبحذق وروية ملحوظة · واما كيسنجر فقد اظهر (وهو السامي الالماني) عبقرية في التلاعب والمناورة · واما اوروبا فراحت تنظر الى مجريات الامور باحتشام . بينما انزلقت بعض دولها في المؤامرة ·

كان ماركس يقول : « ونحن نعلم ··· ماهو دور الحماقة في التاريخ .كم استغلها الاوباش ».

ولو كان مختلف رجال العمل السياسي من اشتراكيين وشيوعيين او سواهم يعرفون هذا ... اذن لباتوا اكثر تواضعا · فلا بد من ان يعطى انف كليوباطرة حقه ونصيبه ·
... ولا بد من القول ، فضلا عن ذلك ، ان الفلسطينيين انفسهم ، سهلوا بخرقهم القانون اللبناني وفوضاهم في حمل الاسلحة وقيامهم بدور الشرطة على بعض المداخل المهمة في العاصمة اعداد المؤامرة وتدبيرها ضدهم · وكانوا يعرضون انفسهم بغفلة كاملة للنقد . وفي بعض المرات للمقت · ففي بعض الاحيان كانت الدوريات الفلسطينية توقف موظفين ومدراء عامين للتحقق من هويتهم ... وفي احيان اخرى . كان يجري خطف وسجن لبنانيين او اجانب بحجة صحيحة او واهية ، هي حجة النيل من امن الثورة الفلسطينية · وهذه التجاوزات . التي كان ينظر اليها في بداية الامر بكثير من التساهل . اصبحت مع الايام صعبة الاحتمال · ففرض القانون من قبل الآخرين على الارض اللبنانية . والاعياد والتظاهرات المسلحة ، وجنائز الشهداء العسكرية . كل ذلك لم يكن الا ليزعج الرأي العام ولا سيما الرأي المحافظ المتعلق بالامن بسبب التجارة والصناعة اللتين يتعاطاهما في العموم المسيحيون وفي مقدمتهم الموارنة · والحق اني لم ار ثورة اقل روية وادنى تكتما · ولو ان الفلسطينيين طبقوا القواعد التي اشرت عليهم بها يوم كنت وزيرا للداخلية . لما سقطوا ضحايا هذا الشرك ·

غير ان الدولة المارونية كانت ، على كل حال ، تطلعا كامنا لدى الانعزاليين منذ ثلاث قرون · اي منذ ان ادخلهم الامير فخر الدين الثاني الى لبنان · اما اوروبا فانها طالما تعهدت ورعت ودعمت هذا التطلع التاريخي لدى الموارنة بصمت · ولهذا . فان الظاهرة تذكرنا . وبصورة عجيبة . بخيارات الصهيونية . فقد شاهدنا فى الواقع دياسبورا مارونية (موارنة المهجر) حيثما كان في العالم . ولا سيما انطلاقا من القرن التاسع عشر . منشئة وعيا سياسيا متحديا · ثم ان انشاء لبنان الصغير عام ١٨٦٤ شجع الموارنة على متابعة مغامرتهم السياسية والدينية في الوقت نفسه الذي كانت الدياسبورا (المهجر) تزيد من ثرائهم ومن توجههم الغربي · وقد ابدعوا في الاميركيتين ضربا من الادب العربي الذي يتمتع بلون خاص . وان وجد هذا الادب نفسه يتناقض بصورة غريبة مع تطلعاتهم السياسية : ابو ماضي ، جبران ، فرحات ، نعيمة وكوكبة وسواهم . غير ان الاغتراب لم يغير في اعماقهم شيئا · اذ يقال **ان اللبناني يحمل معه حين يهاجر ثلاثة اشياء تلتصق بشخصه التصاق الميراث العائلي ويقبع فيها مواجها بها كل شيء :**
انها الوجاهة اولا . اي كل ما يعطيه بعضا من البريق البرجوازي . ولهجة قريته ثانيا . فهو يحتفظ بها حتى عندما يتكلم الاسبانية او الانكليزية . واخيرا تعصبه المحلي · ونستطيع ان نضيف الى هذه العدة والعتاد ثلاثة عناصر اخرى : هي جرن الكبة ـ لانه شخص اكول ـ وعبادة

مصلحته الخاصة وولعه بالاغتياب وقد عاد كثير من المغتربين اللبنانيين الى البلاد ولم يتغير فيهم تقريبا اي شيء . فكنت تجد في واحدهم الرجل ذاته الذي غادر منذ ثلاثين او خمسين سنة ·

واذا كان هناك من تطور لديهم ، فهو تطور سطحي لا يتناسب حتى مع تطور بلدهم الاصلي ، اي لبنان · والموارنة خصوصا هم البرهان الحي على ان بعضا من النماذج الاصلية العقلية المتحدرة من اللاشعور الجماعي ، او بعضا من التحدر الارثي ـ كما يقول اصحاب الحكمة اللدنية ـ والتي لا تزال تتمحور منذ قرون حول موضوعة تحرر الشخصية المارونية ، نقول ان هذه النماذج الاصلية تترجم بالاجمال بخلق او حتى باشباع مقدر جماعي ومتحدي وطائفي ، والنزعة الغربية لديهم طالت وقولبت الذهن منهم الى الاعماق · ولعل في ذلك برهانا على ان الناس ليسوا احرارا ولا هم سادة مصائرهم ، انهم العوبة ذاتيتهم ، هذه « العلبة » النفسانية التي لا يشاركهم من الموجودات فيها احد ، والتي تسم بطابعها الراسخ سلوكهم الفردي والجماعي معبرة عن رسم او بنية نموذجهم العقلي الاصلي ·

وقد كان الموارنة في احدى المراحل مشربين بالثقافة الاوروبية ، وقد هضموها وتمثلوها بصورة ، حسنة ، كانت كافية لشهرتهم ، منذ القرن الثامن عشر كأصحاب مواهب ثقافية · فكان يقال ، يومذاك في ايطاليا ، « علامة كالماروني » · كانت افواههم لا تخلو من كلمة علم او مصطلح عقيدة ، غير انه يبدو ان صفتهم الثقافية هذه زادت في افسادهم بأكثر مما زادت في روحانيتهم ، وزادتهم تعصبا على تعصب · فقد كانوا يعتبرون كهنة جيدين ومزارعين جديرين ، واشخاصا اريبين في كل باب وقادرين على ان يكونوا مجددين · ومن هنا كان هذا الشعور بالتفوق والتعالي ازاء غير المسيحيين ، فهؤلاء بطيئو التحرك عموما واقل اقداما منهم · وفوق ذلك ، فان الموارنة عرفوا كيف يحافظون على الصلة التي انشأتها بينهم نخبتهم الكهنوتية · فنفوذ الرهبان كان ولا يزال عظيما ان في الحياة العامة او في الحياة الدينية · وهم يتماثلون ويتماهون مع مصير « امتهم » · شأن اللاويين تقريبا في العهد القديم بالنسبة الى اليهود · وكان احد اصدقائي الموارنة ـ وهو مدير دير ـ يلح على الدور المهم الذي يلعبه الدير في حياة طائفته ، والراهب الماروني ـ خلافا للحال في الغرب ـ يظل قريبا من رعيته ويترأسها · ذلك ان الحد ـ في الشرق ـ بين الجانب الديني والسياسي وبين الخاص والعام ، هو حد غير دقيق · انه ابدا مفهوم الاب (البطريرك) لا يزال يسيطر كما كان الحال ايام ابراهيم وموسى · فقد كان الرهبان دائما رؤساء دينيين ورؤساء سياسيين ، فهم لا يتركون الحلبة المدنية ، اي الدنيوية مطلقا · انهم بيارق المارونية السلفية المحافظة ، واسمنت « الدياسبورا » فليس عبثا مقارنتي لهم بلاويي شعب اسرائيل ، ذلك ان

بالامكان القول ان الموارنة هم شعب مار مارون ، كما يقال عن اليهود انهم شعب داود او يهوه . فوجود الشعوب كثيرا ما يستند الى شخصيات ـ اساطير . ومار مارون هو احدها .

واذاً فان الموارنة كونوا في جبالهم ووديانهم كيانا على حدة وقد لعبت الوديان دورا كبيرا في تكوين هذه ـ الشعوب ـ الطوائف . وادي قاديشا بالنسبة الى الموارنة ، ووادي التيم بالنسبة الى الدروز ... وتنبهوا للثقافة ، ولكنهم لم يتطوروا مطلقا . فهم منفتحون منغلقون في آن معا يجمعون بذلك الضدين . وثمة بعض الفصام في طبعهم وسلوكهم ، الامر الذي يفسر ازمات الحمية الدينية التي تنتابهم حينا ، او ازمات الهياج القومي التي تحل بهم حينا اخر شأن الازمة التي نتعرض لها حاليا . وتفسر هذه الفارقة الجوهرية في الشخصية المارونية ، وتوضح لماذا نجد القوم يتكلمون بطريقة ويتصرفون بطريقة اخرى . فثمة شخصيتان تتعايشان في كل منهم . ومن هنا كان الذهان ، فهم قساة ورفيقون متفهمون وبليدون متسامحون وشرسون شجعان وجبناء ، صادقون ومراؤون . بلى كذلك هم الموارنة . **وعلى اي حال ، فان الذي اكتشف (أو احيا ؟) كلمة « الازدواجية » العربية ليصف بها سلوك بعض السياسيين اللبنانيين ، كان مارونيا ، عنينا السيد ريمون اده .**

واذاً فان الموارنة ، كانوا يحلمون ببنية قومية خاصة بهم ، وبتجمع ينم نفسانيا عن اجتماعهم نصف القبلي الذي يعود الى ازمة المسيحية الاولى وبتوطيد كيان لهم في وطن صغير يستطيعون فيه ـ كما يزعمون ـ ان يشعروا بانفسهم احرارا وعلى طريقتهم . اذ ان اكثر الناس خضوعا للتشريط (قوانين المنعكس الشرطي) هم أكثرهم حديثا عن الحرية . وهذه صفة لازمة ملازمة للطبيعة البشرية . ولذا فانه لا بد من التنبه لهذا التشريط ووعيه . لانه كشاف على نحو خاص لطباع الناس وامزجتهم العميقة ولآليات (ميكانيزم) الملل والنحل والايديولوجيات والاحزاب او المجتمعات . والانسان في النهاية ضئيل الحرية . انه اقرب الى ان يكون « مبرمجا » . وفي هذا ما يفسر الى اي حد ، كانت هذه « الشعوب » اللبنانية مختلفة عن بعضها بعضا ، ولا تستطيع ان تفهم بعضها بعضا على الرغم من انها تعيش جنبا الى جنب . فينبغي البحث في هذا التشريط عن السبب المباشر لهذه الحركة الجامحة التي تقود الفرد الى شوفينية دينية وطائفية متحدية وشبه عنصرية والتي تدفع بالماروني الى هذا الحد من الشراسة .

وعلى كل حال ، فان هذه الظاهرة ليست جديدة ، انها ليست ، ولا ريب ، سوى تكرار لحوادث القرن الماضي . غير انه لا يجوز ان نستنتج من ذلك ان الطوائف اللبنانية الاخرى لا تعرف الشوفينية الهدامة . بل المقصود هو ان اعراضها ونذائرها لدى الموارنة اكثر تطلبا ... **فالموارنة هم اول « صهاينة » في الشرق العربي ، لا بل انهم كانوا اعمق صهيونية**

من اليهود لان هؤلاء الاخيرين ظلوا على الرغم من احلامهم التي تمتد على مدى الاف السنين يتسامحون في التباينات ويقبلون التعددية : فثمة كثير من النحل اليهودية ... حتى ان بعضها يدين وجود الدولة اليهودية . فالقبالية مثلا وهي مدرسة حكمة ، تضع فلسفتها في ما وراء مفاهيم العالم الارضي او حتى مملكة السماء . وثمة في الوجدان اليهودي « فك ارتباط » ازاء التاريخ . يصف ويميز مساهمته في مسيرة الفكر بين مختلف شعوب الدنيا ، وهو الى ذلك ما اتاح له ان يحافظ على شيء من الحس الانساني والكوني الشمولي . اما الموارنة فان كثيرين منهم يبدون وكأنهم فقدوا بالكامل عبر التاريخ ، المعنى الحقيقي للمسيحية الكونية الشمولية .

وعلى أي حال ، فان الموارنة قليلو العبادة وصلاتهم بروما بالغة الاهتزاز ، بل انها تصير تناحرية في بعض الاحيان . فهم بالاجمال « بدعة مشروعة » و « هراطقة شرعيون » . وعدد الموارنة الذين يذهبون الى الكنيسة قليل ، بحيث انه لا يزيد عن خمسين في المئة . ذلك ان المارونية هي رباط سلالي وعقلي وطائفي قبل كل شيء وهي الى ذلك ذات طابع شبه اقطاعي . فهم يتبعون هذا المولى الاقطاعي أو ذاك بأشد مما كان الحال عليه في فرنسا في القرون الوسطى ، لأن المولى رمز الروح الجماعية . ومن هذه الزاوية فان الموارنة يعيشون في الماضي . انهم « احافير ما قبل الحضارة الحديثة » . **وهذه الكلمة ليست مني بل من السيد دين براون موفد الرئيس فورد الاعلى الى لبنان . وقد كان يقول لي بالفعل ، « انهم ادمغة حفائرية مما قبل التاريخ » ...**

والماروني لا يعرف الكنيسة في غالب الاحيان الا لحظة زواجه . ذلك انه لا يمكن الزواج في لبنان خارج الديانة . فذاك هو القانون . وهو لا يعود الى الكنيسة الا في نعش لأن البيئة الاجتماعية تقتضي ذلك . غير ان الموارنة يتعلقون ـ على الرغم من قلة تدينهم ـ بقديسيهم رهبانهم ـ وكهانهم ، وان احتقروهم احيانا وانتقدوهم كثيرا . فلرجال الاكليروس في نواظرهم فضل الرمز للديمومة . فبهم تدوم هذه النحلة التي ولى زمانها في وسط القرن العشرين . ولهذا ، فانهم عارضوا بعنف ، في طليعتهم البطاركة والمطارنة ، تعاليم يوحنا الثالث والعشرين وبولس السادس . **ولا زلت اذكر المشاجرات الشهيرة التي حدثت بيني وبين بطريرك قديم صديق لي ، لأنه رفض ان ينشر رسائل يوحنا الثالث والعشرين البابوية باللغة العربية ولا سيما الرسالة المتعلقة « بالكنيسة كأم »** . فقد كان يعتقد ان يوحنا الثالث والعشرين اشتراكي . او ما هو اسوأ من ذلك ، لا بل « قرمطي » وانه يضر بالكنيسة . ونجد هذا التعلق بالسنة والتقاليد في القداديس الطقوسية التي تقال بالسريانية (وهي لغة متفرعة عن الارامية ، لغة يسوع) والتي لم تتغير منذ اكثر من مليون من السنين . بعد هذا ، ادرك الآباء مؤخرا ان

اللغة السريانية صارت عير مفهومة او تكاد تكون غير مفهومة من احد ، وان الناس باتت تصلي بلغة مجهولة ، الامر الذي يعني حصول قطيعة حقيقية بين المؤمن وبين الله • وكذلك فقد تعرضت بعض ايقاعات الموسيقى السريانية القديمة للتحوير والتبديل ، غير ان التقاليد او السنة القديمة ظلت مستمرة عبر ثياب البطاركة والمطارنة الزاهية وعبر الالوان والخواتم والعصي الذهبية ... وكل ما يذكر ببيزنطة • اما يسوع فانه لم يخطر له ببال مطلقا ان يضع في اصبعه خاتما من ذهب • واما الندرة من الرهبان او الكهان الذين حاولوا أن يضعوا حدا لهذه المحافظة بارتداء ثياب لا تذكر بثياب النبلاء او ببطانة شارلمان في القرون الوسطى ، فانهم سرعان ما اعيدوا الى مواقعهم مكرهين • لا بل ان احد اصدقائنا - وهو اسقف بيروت للروم الكاثوليك ، ورجل قدساني ذو مروءة اجتماعية عظيمة ويحيا الحياة المسيحية في اعماقها - كان يعتبر من قبل الموارنة كشخص مرتد•• والحق انه كان يسلك طريق المحبة والبساطة ، فقد اوقف عادة تقاضي الاساقفة والكهان اجورا على قيامهم بالقداديس ، فأدى به ذلك الى اثارة الغيظ والحنق حتى في صفوف طائفته ، فانتهى الامر به الى العزل من كرسي المطرانية بحجة الانحراف اللاهوتي•

وتبدو غالبية اكليركيي الكنيسة المارونية وكانها منغلقة على مقتضيات التطور الاقتصادي والاجتماعي في البلاد • غير اننا بتنا نشاهد منذ بضع سنوات - وتحت ضغط الاحداث - ميلا الى التغيير ، **فالبطريرك الحالي ومعه عدد من الاساقفة ، يتجه واياهم وجهة اصلاح الكنيسة وينحو نحو العودة الى الينابيع والاقتراب من ممارسات المسيح** • لكنه بدأ واياهم يفقدون نتيجة لذلك نفوذهم ، وبالتالي فان الاحبار السياسيين ، شأن السيد شمعون والمتهلوسين الصادقين امثال بيار الجميل ، هم الذين باتوا يزدادون سلطة وتأثيرا في سلوك « الامة المارونية » لأنهم يبدون مزيدا من التوافق والتطابق مع الروحية الانعزالية بميلهم الى طرح كل ما هو جديد وكل ما ينم عن المساواة الاجتماعية والعدالة في التوزيع • وتبدو المارونية من هذه الزاوية ، مجتمعا فريدا حقا في انغلاقه ، شأن المجتمع العبراني في ايامه السيئة الخوالي ، وطائفة اقرب الى التوراتية منها الى الانجيلية ، ومن انقطع لصهيون الدنيوية بترفها وبهرجها وامتيازاتها فقد انكر صهيون السماوية •

... ولعل مرد نشاط واقدام الموارنة هو هذه التعصبية المبتذلة• فهم «شطار» الى اقصى حد، ويعرفون كيف يتخلصون من المآزق دائما وابدا• فالشطارة بالعربية هي الأرابة والحذق، والموارنة يقدمون المكر على الذكاء• وبالاجمال، فهم فينيقيون بالمعنى السيء للكلمة: فلديهم المقدرة على الخضوع لمختلف المواقف والتكيف مع امزجة كل اقوياء الارض• وبمجرد ان تصبح القضية قضية اعمال (بزنس) فانهم لا يأنفون من التراجع عن اية تضحية بكرامتهم الشخصية، حتى ليصل الامر بهم الى لثم ايادي ذوي الشأن، والانحناء امام الشريك الموصي(•) يخلعون له حذاءه• ويا

ليتهم يكتفون بهذا• بل ثمة ما هو اسوأ،.فليس منهم من يتردد، في مقابل المال، عن تقديم فتيات لبنانيات الى البعض يكرونهم اياهن...

وهم يمارسون «نخاسة الرقيق الابيض» بلا خجل ولا حياء• الا انه انتصار المربح والجشع! وهم سادة من لعب على وتر المتسودين من كل لون وصنف• وعلى اي حال، فانه ليس من قضية تجري حول الشيوخ والمتسلطنين والامراء الا ويحشرون أنفهم فيها•

وانا اتحدث هنا، بالطبع، عن البورجوازية المارونية الكبرى والمتوسطة• فالواقع هو ان هذه الطائفة ليست وقفا على هؤلاء القراصنة: **فثمة كثير من الموارنة - بل واكثر من ثلثهم - وطنيون حقيقيون، صارمون صادقون شجعان وشرفاء، واصدقاء ممتازون•** غير ان الدولة والرؤساء قاطبة لم يخدموا هذا الثلث ولم يشجعوه• (بل ان القانون الانتخابي لا يؤاتي الا الانعزاليين)• ومع هذا، فان هذه الشريحة من الموارنة لعبت دورا مهما في لبنان القرون الثلاثة المنصرمة لاسيما في نهضة الادب العربي - في لبنان وفي الجوار - ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفي نشأة الصحافة وفي ادخال الطباعة وفي الادارة وفي اعلاء القومية العربية• والبستاني والريحاني هما اليوم رمز لروحية الانفتاح هذه•

اما الانعزاليون، فقد اصبحوا اكثر تعصبا من اي وقت مضى• وهم يواصلون عقد مجلسهم السري الاعلى حيث يجتمع فيه المدنيون والاكليركيون كل اسبوع لتحليل الموقف السياسي وسلوك الناس• وفوق ذلك، فانهم يملكون وسائل اتصال سريعة جدا لنشر الدعاية المرسومة في هذا« السانهدرلين» (المجلس الاعلى عند اليهود) السياسي والديني: وسائل الاتصال الجماهيري، صحافة، اذاعة، ولاسيما شبكة الارسال والاستقبال اللاسلكي (ت• اس• اف•) التي تملكها تنظيماتهم• ثم ان الهمس والوشوشة يفعلان الاعاجيب سيما عندما يواصل الرهبان والكهان والمدنيون تغذيتهما•

وهكذا فان الاخبار والاوامر تنتشر انتشار الصاعقة• وسواء اكانوا في البرازيل ام في كندا وفي استراليا او في الولايات المتحدة، فانهم يبثون حيثما هاجروا العقيدة نفسها ابدا وينقلون الاحكام المسبقة نفسها والتأويل ذاته للاحداث، وعين الرواية للوقائع، والمخاوف نفسها• وهكذا فانهم «مبرمجون» برمجة الانسان الآلي، مشرطون (خاضعون للانعكاس الشرطي) تشريط المنومين وبهذه الصورة فانهم يتبنون جميعا الافكار والسلوك نفسه• والدبلوماسيون والمغتربون هم الاعوان في هذه المناورة المعممة•

وبطبيعة الحال، فانه كان لا بد - مع تناقص عدد نذورات الاديرة والاكليركيات - من توقع رؤية هبوط هيمنة «السانهدرلين» الماروني• ثم ان الافكار الجديدة بدأت تعرف طريقها الى الظهور، كما ان هناك حاليا «الهراوة» السورية•

لكن ما لنا وللتعليقات والشروح فثمة ما يتبسط في القول باكثر من مختلف التحاليل: انه «شرعة» هذه الامة المصهينة. بلى: فقد تلقى الموارنة ـ شأن العبرانيين ـ «وصايا عشرا» وذلك بفارق ان هذه الوصايا ليست وصايا الله. بل وصايا ملمون (●●) (الوصايا الفينيقية الوحيدة) وهي «دنيوية» بأكثر مما هي روحانية. وقد اكتشفت هذه الشرعة او هذا الدستور في دير في المتن الاعلى عام ١٩٢٠ ولست ادري من تركه يتجرجر اهمالا وسوء احتراز. وقد عثر عليه بعض العمال الذين كانوا يعملون هناك صدفة. وهو خطاب ورسالة من «الوطن الام» الى «ابنائه الاوفياء» كانت تعزى الى فرنسا تلك الايام. «ام» الشعب الماروني «الحنون». وهي صدى لتقليد مستمر منذ قرون. اي منذ ان استقر الموارنة في لبنان ولكنها تظل شديدة الايحاء سيما وان الانعزاليين يطبقونها حرفيا...

« يا ابناء يسوع المسيح، يا من صبرتم على الذل والهوان عبر القرون دفاعا عن عقيدتكم. ايها الشرفاء الاطهار، لا تنسوا هذه الوصايا العشر.»

١ ـ ان هذا الوطن لم يخلق الا لكم، حتى تجمعوا شملكم فيه وتباشروا حريتكم بعد الحروب التاريخية (لعلها الحروب الطائفية لما بين ١٨٤١ ـ ١٨٦٠) **فاعلموا جيدا ان كلمة لبناني معناها مسيحي** (اي ماروني) **أما العرب الذين جاؤوا من الصحراء فيجب ان يعودوا اليها** (وعربي تعني مسلم في النص).

٢ ـ اننا قد رتبنا لكم اهم الاشياء التي تضمن لكم معيشة حسنة على هذه المنطقة، مثل تمليك الاراضي والتوكيلات الاجنبية (وقد ساعد الفاتيكان والدول الاوروبية الاخرى الموارنة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ماليا من اجل الحصول على الوكالات الدولية والوضع السياسي وشؤون التقدم) **وقد وضعنا ذلك كله في ايديكم: ويبقى عليكم ان تحافظوا على هذه المكاسب وتزويدها مع الايام.**

٣ ـ جاهدوا للسيطرة على المصايف وامور السياحة وامتلاك ساحل البحر، واخرجوهم من قراكم كلما اصبحتم غالبية او اغلبية ولا تنسوا تجهيز ميناء احتياطي في مدينة غير بيروت لا يكون فيها مسلمون وذلك عندما تسنح الفرصة. (وهذا المرفأ جونية. ومنذ الاحداث الاخيرة اضيف مطار حامات قرب البترون).

٤ ـ عليكم باسباب القوة من لياقة بدنية وتنظيمات للشباب. واهتموا بالجيش وعليكم بكتمان اموركم والوثوق من سلامة صفوفكم لان المعركة مع الاعداء مستمرة وطويلة، وهم يطوقونكم من كل جانب (انها الروحية الصليبية).

٥ ـ احرصوا على الزعامة الادبية كنشر الكتب والسيطرة على النقابات والاتحادات، ولا تعترفوا ان تراث لغتكم وتاريخكم ملك للمسلمين وحدهم، وحاربوا بلا هوادة الافكار والاشخاص الذين يعاكسون افكاركم.

٦ ـ ان الاختلافات المذهبية بينكم يجب الا تخرج عن النظرية والسطحية لان حياتكم مرهونة باتحادكم امام العدو الكافر، ولكنكم ابناء يسوع الذي علمنا المحبة (كذا).

٧ ـ ادرسوا دائما مخططات الاخرين، وتداخلوا معهم لتعرفوا ما عندهم، ولا مانع للبعض من التظاهر بتأييدهم عند الضرورة. ولكن كل واحد يبقى مرتبطا برؤسائه وكنيسته، ولا يعصي اوامر الآباء المخلصين لكم.

٨ ـ ارفعوا رؤوسكم وشعائركم في مكان مرتفع على الطرقات العامة وعلى رؤوس التلال وفي المدارس ومراكز البعثات، واعلموا ان كل القوة الجبارة في العالم الحر تساعدكم وتقف الى جانبكم في اسرع وقت. ولكن عليكم ان تتصرفوا كأنكم لا تعرفون ذلك.

٩ ـ اجتهدوا في التقرب من ملوك العرب ورؤسائهم بالخدمات الطبية والخدمات الشخصية وهذا شيء سهل جدا. ولكنه يفتح لكم مجالات واسعة للعمل ويدر عليكم اموالا طائلة ونفوذا كبيرا حتى في البلاد المستعصية عليكم.

١٠ ـ ان معركة الجنسية اللبنانية شديدة الاهمية ودققوا كثيرا في ذلك. واهتموا باخوانكم المغتربين والذين نزلوا عليكم من البلدان الاخرى لتحتفظوا بحقوق الاكثرية المقررة لكم والا ضاعت كل الجهود(●●●) ولعل هذه الوثيقة قد كتبت على يد رهبان ومدنيين اجتمعوا في ضرب من المجمع السري. ثم ان الموارنة لا يزالون يواصلون الاجتماع ـ كما ذكرت ـ مرة او مرتين في الاسبوع لتقرير بعض المسائل المهمة والموقف الذي يجب اتخاذه في هذا الظرف او ذاك. ثم تبلغ القرارات الى الملأ عامة بواسطة الاساقفة والرهبان والكهنة وبعض المدنيين وعبر التنظيمات، اي بما يشبه طريقة البنائين الاحرار لقد طبق هذا الخط من السلوك بعناية فائقة. وهم الان ضد الصحافة لأنها تتلقى معونة البلدان العربية ولأنها تفلت من ايديهم يوما بعد يوم. ولا سيما صحافة الاحزاب.

وهم يريدون الاقتراع على قانون يمنع الصحافة من التمتع بحريتها. كما يرغبون الآن في منع كل معونة اجنبية لها. وهو ما سبق لهم ان رفضوه عندما اقترحته انا بنفسي يوم كنت وزيرا.

ونستطيع ان نؤرخ لهذه المؤامرات بقدوم نابوليون الاول الى الشرق الاوسط. وقد اتخذت هذه البؤرة ـ التي رفعت الى مرتبة «مؤسسة» مؤخرا ـ اسم الجامعة المارونية التي تتم الاجتماعات فيها: عنينا الكسليك. ففي الكسليك يقومون «بأبحاثهم» وينشرون دراساتهم السياسية التي يحلون علقمها بعناية لتتجرعها رعيتهم التي تجهل بصورة عامة كل شيء عن مراميهم الاستراتيجية. فمن الراجح مثلا ان يكون «كبار» رجالات المارونية وحدهم على علم بوجود «دستور او شرعة الوصايا العشر»*. الذي عرضته منذ قليل. فأنا نفسي لم اره الا في عام ١٩٤٤. وقد تحدثت عنه بصورة غامضة في بعض الاحيان ولكني لم اكتشف الا في هذه الايام المدى الذي بلغته هذه الوثيقة في توجيه مسيرة الانعزالية المسيحية وتحديد طريقتها في العمل. وقد بات من البديهي. فعلا. ان غالبية المسيحيين طبقوا ارشاداتها ـ واعين او غير واعين ـ في حين عمد الرؤساء الموارنة منذ زمن طويل الى الحاق الطوائف المسيحية الاخرى بفلكهم.

غير انه يبقى ان نقول ان المرتكزات التي تستند اليها هذه الشرعة قد فقدت الكثير من فعاليتها وحاليتها: ففرنسا صارت لا تهتم بوجود ما يسمى «بالامة المارونية» الا بصورة تكون معنوية. اقرب منها الى ان تكون فعلية. فهي تهتم اكثر بوجود لبنان موحد يكون للمسيحيين بل ويجب ان يكون لهم فيه منزلة خاصة. ولهذا فان الموارنة حانقون على فرنسا من دون ان يحزموا امرهم على القطيعة ـ وعلى حاميهم التقليدي الآخر. اي الفاتيكان لأنه لم يساعدهم ـ فيما نعلم ـ لا بالمال ولا بالسلاح. ونتيجة لذلك. فانهم يستندون الآن اكثر على سندهم الطبيعي في المنطقة عدوة العرب اسرائيل. آملين في ان تكون الادارة الاميركية الجديدة اكثر محاباة وتأييدا لهم. وثمة واقعة غريبة هي انهم يعمدون الى الابتزاز والتهويل بالشيوعية من اجل كسب حظوة العديد من الدول العربية. والقادة العرب لا يرون في غالب الاحيان. ابعد من اطراف انوفهم. فقد شغلتهم ملذات الدنيا عن الرؤية. او كما يقول النبي (صلعم) لقد «افسدهم المال». والحال هو ان الانعزاليين خير ممون بافيون المتع. وخير من يعرف الافادة من الخصومات الداخلية التي كلفت وتكلف العرب الكثير: فبسبب عجز هؤلاء عن التفاهم اضاعوا فلسطين وانتصر عليهم الاسرائيليون.

ومن واجبنا ـ ونحن نقول كل هذا ـ ان نعترف بان لدى الموارنة بعضا من المفكرين الاحرار. وهم فريق من الرجال الذين يرفضون ان يعمي التعصب الطائفي بصيرتهم او ان تستحوذ عليهم الشوفينية المبتذلة. الا انهم لا يشكلون للاسف سوى ربع او ثلث هذا العالم الماروني. غير انهم لا يزالون ـ على اقليتهم ـ مستقلي التفكير: يعيشون في الحاضر لا في الماضي. وهم على علم وبينة من تطور العادات والافكار وينظرون الى المستقبل بصورة موضوعية. وقد شاركوا ووجهوا وقادوا كل الصراعات

الوطنية او الاجتماعية. كما انهم اعضاء في مختلف الحركات الليبرالية ذات المنحى الاجتماعي او الوطني. غير ان هذا الجناح الشجاع المستنير من المارونية لم يتلق. لسوء الحظ. تشجيعا من الدولة ولا دعما منها. ولا من غالبية الزعماء التقليديين اللبنانيين المسلمين. وهم زعماء ضيقو التفكير بائسون ويعوزهم في غالب الاحيان الذكاء والفهم الحقيقي للتاريخ. وعلى الرغم من تخلي الملأ كله تقريبا عنها. فان هذه النخبة تكافح وتنتزع بمفردها بعض الاصلاحات احيانا. والاحزاب الوطنية والاشتراكية او حتى اليسارية المعتدلة. هي وحدها التي تهتم بها وتتحالف معها. فهؤلاء «الموارنة الحقيقيون» والمسيحيون الحقيقيون هم فدائيو الحركة الوطنية اللبنانية والعربية. فمن بين هؤلاء الرجال من ذوي الارادة الطيبة تجند زعماء الليبرالية العربية في لبنان. رجال من امثال عمون وزكور وبشارة الخوري. والكاثوليكيان الاخوان تقلا. الخ... ومن بينهم تجند انصار وحدة الاراضي اللبنانية من امثال ريمون اده وآل الخازن والانجيلي ايوب ثابت وكثير سواهم.

فأما الجناح الاخر. اي الجناح التقليدي الجشع الى اقصى الحدود. فاني اجده على هذا النحو: امة مسيحية فاقدة لفضيلة الامل المسيحية. امة تلاحقها عقدة خوف لا حدود لها ولا تعريف. تميز اعماق روح هذه المارونية التي كان بولس** وهو زعيم ماروني ذكي ومثقف وشريف. وان ترك الاحداث الاخيرة تقوده ضلالة الى مستنقع الانعزالية مع كثير من المسيحيين الاخرين ـ نقول ان بولس كان يشهر بهذه الروح حين كان يقول لي: «ان الموارنة اشبه بقطيع من الخراف انهزم. امام ضوضاء صفيحة معدنية فاذا اقتربت من هذا القطيع في كل مرة يتوقف فيها عن الهرب ثم لعبت بجهاز الضجيج ذاك. فان الخراف المذعورة تفر ثم تقف على مبعدة جديدة رهينة قلق القرقعة التالية». ولقد جرى تعهد هذا الذهان الموروث بدراية. وبعث عمدا واستغل ابدا من قبل زمرة اكليركية ـ مدنية من المتعصبين والانتهازيين وتجار السياسة.

● الشريك الموصي هو الشريك الذي يقدم رأس المال في شركات التوصية

●● اله الثروة في سوريا الفينيقية (الترجمة).

●●● النصوص التي بين قوسين هي لكمال جنبلاط وليست من نص الوثيقة..

●●●● اذاع جنبلاط هذه الوثيقة في مؤتمر صحفي عقده في ٢٠ [illegible] ٧٦ ونشرتها الصحف في اليوم التالي (الترجمة).

الصائغ الفلسطيني

كانت الحرب الاهلية ستنفجر ـ خلافا لادعاءات الانعزاليين ـ حتى ولو لم يوجد الفلسطينيون · فقد سلف في عام ١٩٥٨ ان كان لبنان مسرحا لمواجهات دموية من دون ان يحتاج الى مثل هذه الذريعة · والمقاومة الفلسطينية لم تكن الا احد اسباب النزاع الاخير · ولو لم يكن اللبنانيون مهيئين لانفجار لما وقع هذا الانفجار · والحقيقة ، هي ان الفلسطينيين الذين ارتفع عددهم من ١١٠,٠٠٠ عام ١٩٤٨ الى اكثر من ٤٠٠,٠٠٠ عام ١٩٧٥ ، اخافوا الموارنة ·

وكان هؤلاء يخشون من ان يصبح عدد اللاجئين الفلسطينيين خلال عشر سنوات أو خمس عشرة سنة مليونا ، وان يتسبب ذلك في اضطرابات داخلية ، لأنهم اعتبروا انه سيكون ثمة كثير من الغرباء حينذاك اضافة الى الخمسماية الف سوري والى العرب الاخرين الذين يعيشون في لبنان · واذا فان الوجود الفليسطيني اثار مخاوف الموارنة · ولسوء الحظ ، فان الانعزاليين لم يفهموا انه ليس بالامكان تغيير ما كان · وانه ينبغي لهم ، بالتالي ، مقاربة المشكلة على نحو اخر ، والاستفادة من مختلف صداقاتهم في العالم : بأن يشرحوا لأصدقائهم الاميركيين والاوروبيين وسواهم انه لا يمكن حل المشكلة الفلسطينية الا باعادة الـ ١٢٠,٠٠٠ فلسطيني بمن في ذلك المقيمين منهم في لبنان ، بالطبع الى اسرائيل ، أي الا بتطبيق قرارات الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ · واذا ، **فقد كان اولى بالموارنة وخير لهم ان يستندوا الى البضعة ملايين شخص اللبنانيي الاصل ممن يعيشون في الخارج ، والى النفوذ الاوروبي ، لايجاد حل للمشكلة الفلسطينية ، من ان يشنوا هذه « الحرب الصليبية » ·**

ولكنهم فعلوا العكس من ذلك · ثم انهم ، لسوء تقديرهم للقوى العسكرية التي تقف في مواجهتهم ، ولا سيما القوى العسكرية الفلسطينية ، فضلوا خوض غمار القتال · ولقد ظنوا ان الجيش سيماشيهم · ولكنه لم يفعل الا لفترة قصيرة من الزمن انتهى عقده ، بعدها ، الى الانفراط والتفكك · وهكذا ، فقد عدنا الى نقطة البداية ، لا بل ان الموقف بات اشد سوءا بالنسبة الى الانعزاليين ·

ذلك ان الفلسطينيين على الرغم من احتواء السياسة السورية لهم وترويضها اياهم ، باتوا اشد قوة على الصعيد العسكري مما مضى ، واصبحوا يتمتعون بحماية ما اسميه « القمة العربية » التي منحت لهم في الرياض والقاهرة · ثم ان الرأي العام العربي بات شديد الحساسية ، وأكثر من أي وقت مضى ، ازاء موضوعهم ، ولن تلبث نذائر واعراض هذه الحساسية ان تظهر على المستوى الشعبي ·

فاذا عدينا عن ذلك ، فانه بات على الفلسطينيين ان يطبقوا بعد الان اتفاقية القاهرة لعام ١٩٦٩ التي تنظم العلاقات اللبنانية الفلسطينية بأكثر دقة مما كان الحال في الماضي ، سيما وان هذه الاتفاقية تدع لهم هامشا كبيرا للتقرير السياسي وحرية كبيرة في التنظيم · **وسيأتي يوم ـ ليس ببعيد ـ يكون على الفلسطينيين فيه ان يعلنوا قيام حكومة**

مؤقتة ، وان يتنظموا بصورة مختلفة ، بحيث تصبح ميليشياتهم في لبنان جيشا حليفا يرابط في لبنان ، استعدادا لقرارات مؤتمر جنيف · وقد كان في وسع اتفاقية القاهرة ان تتخذ شكلا ملموسا مؤاتيا ، فيما لو واكبتها تصرفات وزير داخلية كفؤ ومسؤولين فلسطينيين مصممين على ممارسة التعاون بجد · والفلسطينيون يتمنون ان يجدوا من يساعدهم على تنظيم انفسهم · ولكن كيف كان بامكان اللبنانيين ان يستجيبوا لهذه الحاجة وهم الذين يعانون من الاختلال الكامل ؟ **فلا بد للنظام من ان يقوم لدى اللبنانيين اولا ، لكي ينشأ « محيط » يجبر الفلسطينيين على الانضباط ·**

ثم انه كان على هؤلاء ان يوكلوا الى جيش التحرير الفلسطيني المقيم في لبنان مهمة حفظ الامن في المخيمات وليس الى ميليشيات غير متلاحمة بل وفي كثير من الاحيان متنافسة فيما بينها ·

وكان ينبغي لهم كذلك ان يتعاونوا بلا انقطاع مع السلطة اللبنانية بحيث لا يتمكن المذنبون ـ الذين يلجأون في بعض الاحيان الى داخل المخيمات ـ من الافلات من القانون · ولا بد للسلطة الادارية والبوليسية في المخيمات من ان تقبل بحضور لبناني ما أو على الاقل بحق النظر ، داخل المخيمات · **وبطبيعة الحال ، فان المقصود هنا ليس مخالفة مبدأ السيادة الفلسطينية داخل المخيمات ·** ولكن المقصود ، هو ان المجرمين الفلسطينيين العاديين يجب ان يسلموا الى الدولة اللبنانية ليحاكموا وفقا للقانون اللبناني · ولا بد من التنبه الى جعل المخيمات اكثر انسانية ، كاقامة نوع من التعاون على صعيد الادارة والميزانية بين البلديات الفلسطينية وبين اقرب بلدية لبنانية وذلك لضمان حد ادنى من الشروط الصحية ، كالسكن الصحي والمجارير ·

وفي وسع ذلك كله ان يساعد الفلسطينيين على ان يصبحوا اكثر نظاما واحسن تنظيما·

وبهذا يزول شعورهم بانهم قوم متخلى عنهم يعاملون كمنبوذين، فلقد ساء ما عوملوا به كما اسيء تفهمهم من قبل الانظمة العربية فلا بد من ان يعاد الى الفلسطينيين بعض الحس والشعور بالكرامة الانسانية· **فهم يعيشون في غالب الاحيان في «غيتو» داخل الشعوب العربية ويعانون من الاستغلال السياسي من قبل الانظمة العربية، بما في ذلك «التقدمية» منها·** فعلى الدولة اللبنانية ان تدمج الفلسطينيين بصورة متجانسة في حياة البلاد النشاطية، فمن شأن ذلك ان يحدث اتصالات انسانية لا غنى عنها للتفهم المتبادل· ولا ريب في ان العلاقات الشاذة المنحرفة القائمة بين الفلسطينيين والموارنة ستتعافى حين ذاك· ومن شأن وزارة للشؤون الفلسطينية ان تنسق هذه الاقتراحات وتؤلف فيما بينها بصورة مفيدة· غير انه لا بد من اعادة جسور الثقة قبل اي شيء آخر·

وبطبيعة الحال فان الدولة اللبنانية لاتزال اليوم اضعف بكثير من ان تكون قادرة على الشروع بهذه الاصلاحات. لكنه لا مدعاة لليأس. فلا يزال في الوسع احياء الدولة واعادة الامن اذا قررت الادارة تعيين مدير قدير للامن، ورفع اجور الشرطة والدرك، ومضاعفة عديدهما.

ومع هذا فان المشاكل ليست وقفا على لبنان وحده. فغالبية الانظمة العربية ترفض البحث في شأن الفلسطينيين. فهم يأخذون عليهم - في لا شعورهم - فقرهم وتجردهم من الحقوق السياسية واستلاب وطنهم منهم. وقد قال لي احد اصدقائي - وهو شيوعي لبناني - مؤخرا: «عندما يناضل شعب - في الغرب أو في اي مكان في العالم - من اجل استقلاله، او يعاني من التمييز، فانه يتلقى دعم قومه على الاقل. اما هنا في العالم العربي (وكان يلمح الى الفلسطينيين) فان القوم يثأرون منه فيصبح ضحية مرتين، لانه بالنسبة اليهم مثار ضيق وازعاج». ومع هذا، فانني اعتقد ان الامور ستتغير على المدى البعيد. وطالما بقيت ديموقراطية في لبنان، فان الفلسطينيين سيحتفظون بحريتهم السياسية. (فالرقابة الحالية على الصحافة اللبنانية لا يمكن ان تدوم) ولا بد - قبل كل شيء - ان تتوقف كل قوة من القوى العربية عن اعانة جماعتها داخل الثورة الفلسطينية. اذ ينبغي لمختلف المعونات، مالا وسلاحا، ان تسلم لمنظمة التحرير الفلسطينية - الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني - عبر صندوق مشترك يوضع تحت اشراف الجامعة العربية والمقاومة. فمن شأن ذلك ان يدعم كثيرا من تماسك الثورة الفلسطينية، لانه يقلص الى حد عظيم من مخاطر التناحر . اذ كانت التيارات السياسية المتنوعة المختلفة تخترق المقاومة فان السيد ياسر عرفات ظل يؤكد دائما وابدا وبصراحة بالغة بأن المطلب الرئيسي هو اولا تحرير الارض الفلسطينية، وهو مطلب مقدم على اي شجار ايديولوجي. وبعد التحرير يصير في وسع اي كان ان ينشىء حزبه الخاص وان يدافع عن ايديولوجيته الخاصة. وبانتظار ذلك، فان المطلب القومي مقدم على كل شيء. فلا يجوز وضع المحراث قبل وجود الثورين. ولا التفكير بما يجب فعله بالوطن المحرر قبل ان يتحرر. بلى، انه ينبغي ان تكون لنا افكارنا حول هذا الموضوع. ولكن بدون ان نجعل منها القضية الاساسية والرهان الرئيسي.

وينبغي للقومية العربية، في المرحلة الحالية، ان تظل تشكل الدعم الايديولوجي الرئيسي للصراع ضد الصهيونية. ولا ريب في ان في وسع مشروع اجتماعي خاص ان يساهم في تجميع الناس. ولكن في وسعه ايضا ان يستثير تباينات بل وتناحرات بين فئات تحتاج الى ان تتحد لتتمكن من الانتصار. لكننا، هنا، في المشرق، بلاد ورثت سنة وتقليد الجدل البيزنطي. ومن اجل انجاح قضية قومية فانه لا بد عندئذ من تشكيل اعرض جبهة ممكنة. فلكل آراؤه. ولكن يبدو لي في النهاية، انه ليس في

وسع الشعب الفلسطيني التسلي بالمناداة بالشيوعية او بالاشتراكية منذ الآن، لان الفلسطينيين لن يتفقوا جميعا على ذلك.

واذا ما استمر القوم بوضعهما وتحديدهما - اي الشيوعية والاشتراكية - ضمن حدود سياقهما السابق الدغماتي المعلق في الفضاء - فانه لن يكون لهما مكان في عالم اليوم. وقد باتت الحاجة ماسة وملحة للرجوع الى ما اسميه المقولات الاقتصادية الاجتماعية او السياسية التي كشف عنها التطور الانساني، لنجعل منها اساس ومعيار كل فلسفة سياسية وأي انجاز اجتماعي او اقتصادي. انها ذهنية براغماتية، فهي اذا مرتبطة بالتطور ومتجهة وجهة القيم الخالدة، عنينا قيم الطبيعة الانسانية. ولقد انتهت الواقعية والمثالية كلاهما معا. فلا بد من تجاوزهما معا لبلوغ ما هو «نسبي الحقيقة». اي ما يتحرك ظاهرا في اطار وسياق متغيرين، والذي يظل على الرغم من هذا التحرك الظاهر، تجلي المكين السرمدي بحصر المعنى، اي وجه الازلي.

فاذا عدنا الى السيد ياسر عرفات، فانه ينبغي لنا القول انه لا يتمتع بتقدير القادة السوريين. ثم جاءت القضية اللبنانية والتنسيق بين المقاومة الفلسطينية وبين الحركة الوطنية اللبنانية فلم يسويا من المسألة شيئا. والواقع هو ان عرفات كان يتبع الى حد بعيد بل وفي غالب الاحيان آراء حركتنا. ذلك انه كان يجد فيها فرصة للتحرر من النير السوري الذي كان ينيخ عليه: الاشراف على عبور وشراء الاسلحة، تدعيم الصاعقة، وغير ذلك من المحاولات المتكررة لفرض الوصاية السورية عليه. ولعل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ما كان سيعمد الى مثل هذه القطيعة مع النظام السوري فيما لو اخلي بينه وبين نفسه. غير انه كان يعي - شأننا نحن - المؤامرة التي تحاك ضده. وبسبب هذا التهديد، فان المصالح كانت تختلط ببعضها البعض. وتجعل الفلسطينيين واللبنانيين يتعاونون معا في ضرب من الوحدة او التلاحم الذي يجعل كلا الفريقين يؤثران في بعضهما بعضا (اللهم باستثناء المجال العسكري حيث كان الفلسطينيون اصحاب اليد العليا)... **والحقيقة هي اننا جميعا كنا نحس ان النوايا السورية تتهددنا. ثم وجدنا انفسنا مدفوعين باتجاه القطيعة مع سوريا عندما انكشف المخطط السوري الرامي للاستفادة الى الحد الاقصى من الظروف الصعبة والاحداث المنكودة التي المت بلبنان.** وكان الفلسطينيون يشعرون بأنهم مستهدفون من قبل هذا المخطط، بالمقدار الذي يستشعره اللبنانيون. فقد كان «فيليب المقدوني»، وجيشه على ابوابنا. كان السوريون يريدون ان يفرضوا انفسهم، وان يفرضوا علينا جميعا وجهة نظرهم وافكارهم ومصالحهم ووصايتهم.

ويبدو انهم لم يكونوا يدعون الى توازن القوة بين المتحاربين الا ليستطيعوا هم التدخل على هواهم وجني الثمار. وقد جاء تدخل السوريين

العسكري، بعد الفشل الجزئي الذي اصاب تحكيمهم السياسي، ليكشف لنا نوايا نظام دمشق الحقيقية. فقد عارض الاميركيون والاسرائيليون في بادىء الامر، الاحتلال المباشر للبنان، غير انهم عادوا بعد ذلك، حين عرفوا بطموح النظام السوري وعزمه على الخلاص من استقلالية منظمة التحرير الفلسطينية واليسار اللبناني، وشجعوا المغامرة العسكرية. فكان على عرفات وعلينا ايضا ان ندافع عن انفسنا. وفوق ذلك، فان سوريا كانت تدار من الاطراف التي كانت ترى في التلاحم الفلسطيني اللبناني العملي وفي هذا التعاون بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية خطرا يهدد بالامتداد، وزواجا سيئا لا بد من فصم عراه مهما كان الثمن. وكانت الدعاية المعادية للشيوعية في حالة سعار شديد. ثم ان كل الطاقم السياسي والاداري (الاستابليشمانت) في العالم العربي - اي كل ما له صفة التركيز والثبات او يظهر انه كذلك، في السياسة والاقتصاد او اي شيء آخر - لم يكن ليطيق الهجمة القائمة من اجل التغيير.

وعلى اية حال، فانه ليس في ياسر عرفات شبهة جمود عقائدي (دغمائية). ولقد ظلت العلاقات فيما بيننا طوال هذه الحرب حسنة. ذلك انا كنا سوية في ذات «المغطس»، لان ما كان يهم الفلسطينيين، ويهمنا نحن ايضا، انما هو الخلاص. فثابرنا كلانا على تبني مواقف واضحة بل وعلى الحفاظ على انفصال نسبي، لان الشؤون اللبنانية يجب ان تعالج من قبل اللبنانيين وحدهم، الامر الذي يتضمن، بالطبع، ان نخوض معركتنا السياسية الخاصة. ولا بد الآن من متابعتها لاكمال تنفيذ الاصلاحات التي نقترح، والتي تحلم بها شبيبة هذا البلد، بل ولربما كافة العرب باعتبار ان افكارنا عبرت كافة الحدود.

وقد خرج اللبنانيون، شأن الآخرين، من الصفن (او وكر الزنابير) اللبناني بتهشمات وخسائر آنية. لكن الجميع في النهاية افلتوا ببعض السلامة، بمن في ذلك الانعزاليون. **وعلى اي حال فقد كان امامنا هذا، او قطع الاعناق؛ اي النظام الاستبدادي وتعليق كل الحريات.** ويبقى للمرء ان يأمل في ان تكون هذه المأساة مناسبة لوضع الامور في نصابها. وعلى الفلسطينيين ان يفكروا في ذلك. فلا بد من وضع حد نهائي للفوضى المستحكمة لدى اللبنانيين وفي داخل المقاومة. فلو لم يكن ثمة هذا القدر من المخالفات وخرق القانون لما شاهدنا مثل ذلك الهيجان ضد الفلسطينيين في الاوساط الانعزالية.

غير انه ليست لاسرائيل اية مصلحة في ان تسير الامور سيرا حسنا في لبنان.

واذا فاننا نوشك ان نكون الآن عرضة لردة فعل الجانب الاسرائيلي. فالدولة اليهودية لم تكن تظن العالم العربي قادرا على التحرك وارسال جيوش الى لبنان لوقف المعارك. وموقف اسرائيل تابع لموقف الولايات

المتحدة. فاذا ما قررت هذه الاخيرة تقريرا حازما ان تضع حدا لمشاكلنا واذا ما اعطت العالم العربي، سوريا، الضوء الاخضر لاعادة النظام الى لبنان، فان اسرائيل لن تستطيع ان تفعل شيئا يذكر - سيما وان دمشق والقاهرة تقاربتا. واذا فان ثمة تجمعا عربيا يرتسم في الافق ربما كان مرده هو ما حدث في لبنان. ولهذا، فانه بات على اسرائيل ان تحسب حساب هذا الاجماع العربي. ويبقى انه لا بد - كما كررت ذلك مرارا - من ادخال اوروبا الى المشرق، وانه ينبغي لها ان تعاود الاهتمام اكثر فأكثر في شؤوننا، لكي تتيح لنا ان نصبح اكثر حرية ازاء اسرائيل وازاء الكتلتين. ومن شأن ذلك ان يجعل الوضع العالمي اكثر تعافيا.

ولكننا لم نصل بعد الى هذا الوضع. فثمة ٢٥،٠٠٠ جندي سوري يرابطون على الاراضي اللبنانية مشكلين بوجودهم هذا خطرا كامنا. فالى اي حد يستطيع الرأي العام العربي ان يمنع التدخل في شؤون لبنان والفلسطينيين الداخلية؟ وهناك صراع بين الديكتاتورية والديموقراطية، فمن هم ليسوا بأحرار يريدون دائما الحؤول بيننا وبين الحرية. **ودمشق تريد من الفلسطينيين ان ينضووا تحت اللواء السوري الا ان ذلك لن يكون سهل التحقيق - وخصوصا عندما يتبدد سراب جنيف.** ترى الن يؤدي ذلك بالسوريين الى الرجوع خطوة الى الوراء لتبييض صحائفهم امام الرأي العام العربي؟ ولا بد عند ذاك للبنان السالف، اي لتلك الفوضى الديموقراطية ولهذه الوفرة في الحرية، العزيزة على الاحزاب السياسية والاوساط الشعبية والفلسطينيين، نقول انه لا بد لها عند ذاك من ان تقرر اخيرا الاضطلاع بمسؤولياتها وان تعيد تنظيم كل شيء وان تضع بعض الانضباط في الشؤون اللبنانية والفلسطينية. أفتبقى الحرية ام انها تخمد كما يتمنى العديد من البلدان العربية؟ ان لنا مطلق الامل في ان اللبنانيين سيعرفون كيف يدافعون عن الحرية اذا ما ساعدتهم اوروبا - وفرنسا بخاصة - على ذلك.

اما بالمنسبة الى الفلسطينيين، فان اسرع ما يحتاجون اليه هو ان يتفاهموا. فلا بد لهم من اتخاذ موقف واضح - او «استراتيجي» كما يحب ان يسميه المثقفون الثوريون في هذا البلد - اي ان يحددوا غاية مشتركة لمعركتهم وان يضعوا خطة عمل للمدى القصير. ويبدو ان في وسع مختلف الفلسطينيين الاتفاق على حل تكتيكي يرمي الى التطبيق الكامل لقرارات الامم المتحدة لعام ١٩٤٧، اي عودة ١،٢٠٠،٠٠٠ فلسطيني الى اسرائيل مع ممارسة كامل حقوقهم السياسية كسائر المواطنين، وكذلك اقامة دويلة فلسطينية، ولكن على اساس خطة تقسيم الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ التي تعطيهم ٤٦ بالمئة من اراضي فلسطين التاريخية بمافي ذلكمسورات الجليل وعكا وغزة والضفة الغربية

من نهر الاردن الخ... وفي تقديري - بعدما ناقشت مرات عدة مع التنظيمات الفلسطينية المختلفة النزعات - ان هذا العرض هو الحد الادنى من المطالب التي تقبل بها مختلف التنظيمات عندما تقرر وضع حد نهائي للمزايدات. **وتلك ايضا هي فكرة الرئيس الحبيب بورقيبة، واعتقد انها تشكل برنامجا حكيما وواقعيا (براغماتيا).**

وانا اعلم انه لا الولايات المتحدة ولا اوروبا ولا اسرائيل متفقة على هذا الموضوع. غير انه لا بد للقوم جميعا من ان ينتهوا الى الاتفاق على هذا الاساس. ذلك ان الموضوع هنا هو في النهاية قرارات الامم المتحدة التي يجب ان تحترمها كل الدول. فهذه قد شاركت في اتخاذ هذه القرارات، ومن واجبها ان تطبقها والا فاني لا اظن انه سيكون هناك حل - بالنسبة للمستقبل القريب على الاقل.

الشرك السوري

لكي نفهم مخاتلة دمشق وتعرجاتها، لا بد لنا من ان نأخذ بعين الاعتبار مطامح القادة السوريين الشخصية ، واهداف الرئيس حافظ الاسد السياسية ومشروعه حول سوريا الكبرى. فبعد ان وقعت مصر اتفاق سيناء، شعرت سوريا بعزلة شديدة.

وفي الداخل، ايضا كان النظام يعاني بعض الصعوبات، فخلال انتخابات عام ١٩٧٥ المحلية والمناطقية، لم يتوجه الى صناديق الاقتراع فيما يبدو سوى ١٥ بالمئة من الناخبين على الرغم من تمديد فترة الاقتراع مدة يومين. ومن اجل الحصول على اتفاق بشأن الجولان، فان دمشق اضطرت الى «اصطناع التأمرك» والتقارب مع الولايات المتحدة في الوقت نفسه الذي ظلت تدعي فيه عدم التخلي عن السوفيات. وفيما خلا ذلك، فان الاقتصاد السوري لم يكن مزدهرا...

اما بشأن تسوية النزاع اللبناني، فان القادة السوريين راحوا يجعلون منها - وبصورة متزايدة - مسألة مهابة شخصية. فكان لا بد اذا من تسجيل نقاط في لبنان، ولهذا فان سوريا راحت تتعاطى بالقضية اللبنانية لتنحدر درجة درجة من الوساطة الى التدخل العسكري اي الى الجنون المحض.

كان على السوريين ان يكتفوا - وفقا لنصائحنا لهم - بدور الحكم السياسي بين الجماعات الفالتة العقال. فلقد حذرناهم من مغبة هذا التدخل ومن الاخطار التي ستحدق بهم وبنا وبالعالم كله من جرائه فلم يكترثوا. لا بل لقد نبهناهم الى احتمال قيام ردة فعل اسرائيلية فلم يصغوا الينا. وها هي اسرائيل الآن بصدد تكوين دولة عازلة على حدودنا الجنوبية، مجبرة السوريين على البقاء بعيدا.

وكان من المهم بالنسبة الى سوريا ونتيجة للاحباط الذي تستشعره - ان تظهر امام فرنسا واوروبا والولايات المتحدة بمظهر الرئيس المطاع المسموع الكلمة في هذا الجزء من العالم. ومن خلال هذه الروح بدت لها حماية الموارنة كمدخل حسن من اجل اقامة افضل العلاقات مع الغرب.

وهكذا، فان لبنان لم يعد سوى ورقة الرهان السورية الرئيسية من اجل استعادة مرتفعات الجولان. **غير ان الاميركيين - والاسرائيليين بوجه خاص - لعبوا بمهارة فائقة مراهنين على مطامح سوريا وعلى طابع دبلوماسيتها النفعي المعقد الغامض والعنيد، بغرض زجها في طريق التدخل وفي التردي في « المستنقع » وفقا للتعبير الممتاز الذي اطلقه الوزير السوري خدام.**

ومن جهة اخرى، فان دمشق كانت تخشى من عدوى الديموقراطية السياسية المحتملة في لبنان. فالدولة التي تجمع بين الديموقراطية والتقدمية هي هاجس جميع حكومات انظمة القسر والاكراه. فمثل هذا التوجه هو توجه مرعب بالنسبة اليها. ذلك ان لكلمة الحق دويا كانفجار القنبلة الموقوتة.

وكانت الدبلوماسية السورية تتعلل بهذه الفكرة امام الانظمة العربية لتقنعها بحسن نواياها ولتسكن المخاوف التي تثيرها - وبحق - مشاريعها الفيدرالية. فكانت تعزو الينا مقاصد ونوايا بالغة الطموح، لكن هدفنا لم يكن سوى حماية الثورة الفلسطينية التي تتهددها المؤامرة العربية، واقامة نظام اكثر عدلا وديموقراطية في لبنان.

ولعل المؤرخ متوقف عند عنصر اخر من عناصر التحليل سيسترعي نظره ولا ريب، هو ذلك التجاذب السياسي العفوي بين الكتل الاقلية: عنينا النظام السوري والموارنة في لبنان. اذ غالبا ما تكون الافعال السياسيه، تعبيرا عن اللاشعور الجماعي والديني.

فالى جانب هذا المركب او هذه العقدة السياسية، عقدة الشعور بالاقلية لدى الحزب في سوريا، كانت هناك العلوية السياسية والتي هي عقدة شأن عقد مختلف الاقليات الاخرى. نقول ان العلوية السياسية كانت تشتمل وتنمي نزعتين متناحرتين، الاولى تدفع باتجاه الانعزالية بينما تدفع الثانية باتجاه التعريب الكامل والوحدة العربية.

وبصورة عامة، فان هذين التيارين يراجح ويوازن بعضهما بعضا عمليا ويتداخلان ويتنازعان السلطة في سوريا.

غير ان الواقع، فيما يبدو، هو ان التيار الوحدوي هو التيار الغالب على القاعدة الشعبية لدى العلوية السياسية، حتى ولو كان هذا التيار سيجنح الى «التعقل» والمحافظة حين يصل الى السلطة.

وتلك هي القاعدة عامة ولا استثناء عليها في العالم العربي، الا حين ينهض زعيم سياسي في حجم عبدالناصر فيخلط الاوراق جميعا. ويظل ان الاتجاه الحاسم على صعيد الممارسة السياسية في الازمنة العادية هو الانعزالية وان تغطت بغطاء شعارات «الحرية والاشتراكية والوحدة العربية». ومن هنا، كان هذا التلاقي اللاشعوري مع الانعزالية في لبنان.

اما التيار السياسي العلوي الآخر، وهو التيار المعارض للتدخل العسكري السوري، فانه بدأ يثأر لنفسه بالمطالبة بالاتحاد مع لبنان. وقد كان من شأن الغاء الطائفية السياسية واقامة ديموقراطية اكثر اتساعا في لبنان، ان يكون له اثره في سوريا

ولا بد هنا من الاعتراف بأن قادة دمشق اظهروا تسامحا يكاد يكون لا تمويه فيه ازاء المجازر التي ارتكبها الموارنة.

وكان العذر الذي تذرعوا به هو انهم يحاولون كسب تأييد هؤلاء للقضية العربية، في حين ان الحق هو ان التدخل العسكري السوري كان يهدف الى اخماد الفلسطينيين وحركتنا الوطنية واليسار اللبناني.

وهكذا، فان القادة السوريين لم يكتفوا بمحاولة اغراء الموارنة عبر حماية طالما كان هؤلاء، حساسين ازائها (واكثر حساسية بالطبع مما لو كان الحامي دولة كاثوليكية غربية)، بل انهم قرروا قمع الحركة السياسية

المعادية لاهداف هؤلاء او انهم على الاقل ارادوا ان يمسكوا بعنان التيارين في آن معا. كان ثمة بين السوريين والموارنة نوع من رد الفعل العفوي الهادف الى الحفاظ المتبادل على الذات، مخالف لكل تطلع ثوري حقيقي. وقد اذى بالسوريين . ولا ريب، الى الرغبة في الحفاظ على الكيان الماروني كرديف للكيان السياسي السوري الحالي. ويمين الحزب الحاكم في سوريا أبعد من ان يكون غريبا عن هذه السياسة التي تعكس الحالة المصلحية البراغماتية للعلاقات القائمة بين النظام السوري وبين بعض الرأسماليين اللبنانيين المستعدين لتقديم خدمات ودية متبادلة. ثم ان الرأسمالية « البرية » على الطريقة اللبنانية كانت تعتبر من قبل العديد من البلدان العربية كمصدر ممتاز للربح، بحيث لم يكن يمكنها ان تنظر الى زوال هذه الرأسمالية بعين الرضى. **ولا ننسى - من الجهة الاخرى - ذلك النوع من الجشع الدمشقي الذي كان يثير الكثير من الحسد حيال اولئك اللبنانيين الذين يتمتعون بموهبة الاثراء. فمثل هذه العقدة تفسر كيف ان كثيرا من الاشياء نهبت من بيروت - قبل دخول القوات السورية - لترسل الى دمشق عبر الصاعقة وشركاها . ولا بد من الاعتراف، بأن كثيرا من البيوتات البيروتية كانت بمثابة متاحف حقيقية تتراكم فيها المقاعد من طراز لويس الرابع عشر والمناضد من طراز لويس الخامس عشر والسجاد الفارسي او الاناضولي وغير ذلك من التحف الهندية واليابانية. فاللبنانيون يحبون حياة الرخاء والسعة. واخيرا فاني ادع لسواي مهمة رواية ملحمة السرقات في بيروت، والنهب المنظم للمصارف فيها...**

ذلك ان الصمت حول هذه النقطة يظل من ذهب. **وتقتضي الحقيقة منا ان نضيف هنا كذلك بأن البداوة استيقظت في اعماق عدد من اللبنانيين فكانوا اوقح منافسين لأسوأ النصابين.**

ولم تبق لدينا اية اوهام حول مشكلة الاخلاق، وخصوصا حول « الرعاعية » (الهوليغانيسم) التي تسود في بعض اوساط الشباب. فالافكار الجديدة والمدنية المزيفة لم تفعل سوى ان شجعت هذه العقلية... انه زبد الغرب!

ثم ان السوريين كانوا يهدفون، فيما يهدفون اليه، الى اخذ الرئيس انور السادات على حين غرة بفرض عزل مصر مستفيدين الى اقصى الحدود من الخيبة التي عمت بعض الاوساط اثر توقيع اتفاقية سيناء. وكان لا بد - من جهة اخرى - من القيام، عبر مناورة حاذقة، بعمل براق ما، لملاقاة مصر ومصالحتها، لان مصر تظل اعظم ما في العالم العربي نفوذا. فهي «قلعة العروبة» كما جرت العادة على وصفها هنا.

وهي مكتظة بالسكان، ممهورة بترسانة واسعة من التجهيزات المدنية

التي تشتمل على عدد من الشركات البحرية والجوية. وفيها حاضرة الازهر الشريف (فاتيكان الاسلام) الشاهدة على استمرارية التاريخ المصري. وهي الى ذلك الدولة الوحيدة التي يمكن اعتبارها وبحق، القاعدة الفعلية لتحرير فلسطين اذا ما تأمن لها دعم تحالف سوري - عراقي .

ولا بد من ان نضيف هنا ان صورة جمال عبدالناصر - الذي اصبح اسطورة الشعوب العربية جميعها - تظل ماثلة في الخلفية المصرية. ثم ان مصر تظل تلهم العرب الآخرين وتوحي لهم ابدا بالثقة.

ومن هنا كانت تلك السرعة المدهشة التي جرت فيها المصالحة المصرية - السورية في الرياض.

فالاستقرار النسبي الذي تتمتع به مؤسساتها - على الرغم من الاضطرابات الاخيرة - قد ظل يجعل من القاهرة - ان ابان الحكم الفاطمي وان ابان حكم عبدالناصر - القطب السياسي و« القبلة » التي تستدير اليها مختلف الشعوب العربية.

كما، ان الجيش المصري يظل عامل اغراء بقوته المادية والنفسانية. ولهذا، فان سوريا التي تواجه اسرائيل على حدودها الجنوبية لا تستطيع ان تتلافى - عبر هذا السيناريو كله وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة الى اتفاقية سيناء والتي لها في غالب الاحيان ما يبررها - العودة الى الفلك المصري ان عاجلا وان آجلا. ثم انه ما كان لنزوع النظام السوري الى حماية الانعزاليين في لبنان الا ان يعجل في هذا اللقاء.

واذاً . فان اصدقاءنا السوريين كانوا بحاجة الى نجاح ما . وكان لبنان يعرض نفسه لذلك. فكانت مناسبة للظهور بمظهر المفاوض المحنك و « حلال» المشكلة اللبنانية، فالرئيس الاسد يريد ان يكون رجل الموقف. بل ان مختلف انواع المشاعر كانت تجد لنفسها متسعا في هذه القضية ولاسيما الانانية او الانوية التي تميز العديد من رجال السياسة ولاسيما الديكتاتوريون منهم. وبالاضافة الى ذلك، فان دمشق طالما حلمت بلبنان. وهذا هو ما يفسر الابقاء على العلاقات الممتازة مع الرئيس فرنجية ورفض التخلي عنه او القبول باستقالته. فقد كان فرنجية بالنسبة الى السلطة السورية رجل « استقمار » او تتبيع لبنان، وكنا نحن اول من اكتشف رغبة السيطرة هذه، فكان ذلك اصل صداماتنا مع سوريا.

فهذه التلجئة او هذا الاستزلام الاكراهي كان امرا غير مقبول. وأليس لدى السوريين مشروعا بديلا لسوريا الكبرى؟

... ثم ان الفلسطينيين لم يكونوا غائبين عن المشاغل السورية . فالواقع هو ان العلاقات بين الرئيس الاسد والمقاومة لم تكن من دون معكر .

ولما كان الفلسطينيون قد افلتوا من الوصاية العربية ولم يعد في وسع اي كان ان يكلمهم من عل ، فان النظام السوري صار يستشعر ازاءهم ببعض المرارة نتيجة لنجاح القيادة الجديدة للثورة الفلسطينية .

لا بل ان وضع الفلسطينيين على الصعيد الدولي ، كان قد اصبح وضعا مرموقا

ويثير حسد اكثر من رئيس عربي · والاحاديث القاسية المتبادلة بين القادة الفلسطينيين والسوريين تثبت ذلك بوضوح · واذ يتذكر السوريون التاريخ ، فانهم يعتبرون انفسهم في بعض الاحيان الممثلين الحقيقيين الوحيدين لفلسطين التي ليست بالنسبة اليهم سوى جنوب سوريا الطبيعية ·

ثم ان سوريا لم تكن تريد حدوث مشاكل جديدة على خاصرتها · كما ان العالم العربي لم يكن يرغب في ان يهزه من خموله اي شيء · وفي كل مكان كان القوم يخشون التغيير في لبنان ويخشون بوجه خاص الا يظل تلك الجنة الارضية التي يحب العرب الاثرياء النافذون الاسترخاء فيها · وكذلك فان كثيرين كانوا يخشون من ان تكون الشيوعية رديفتنا وقادمة في اعقابنا · وكان من شان هذه الحجة التي افرطت دمشق في نشرها وتصديرها ان ذاعت في الشرق الاوسط كله · فقد كان القوم جميعا يخشون من ارادة الاستقلال لدينا ومن راديكاليتنا · ذلك اننا لم نكن تابعين لأحد ·

وحافظ الاسد كان يحبني كثيرا · كما انني كنت من جهتي اجده راشدا حكيما واقدره بشخصه سيما وانه منح السوريين بعض المزيد من الحرية · ولكنه حين حاول فرض ارائه حول لبنان ، وهو الذي لا يعرفه الا قليلا ، فاننا قلنا له لا ! فقد اراد اصدقاؤنا السوريون ان يحلوا المشكلة اللبنانية على طريقتهم بصورة خاطفة مصطنعة ووفق وجهة نظرهم وحدها ومن دون اي تعمق في القانون الدستوري وفي النظام البرلماني الديموقراطي · فهم لا يتذكرون هذه الامور الا لماما · وقد جعلتهم الديكتاتورية العسكرية الاقلياتية معادين لكل ديموقراطية · و « الرسالة الرئاسية » التي اتفق الرئيس السابق فرنجية ووزير الخارجية السوري عليها ، كانت تعرض علينا دستورا شاذا ممسوخا وصورة كاريكاتورية عن الديموقراطية البرلمانية · ولهذا ، فان رفضنا المفصل لهذه الرسالة المزعومة « الدستورية » والتي اعلنها فرنجية **(وهو الجاهل في الحقل الدستوري)** في ١٤ شباط (فبراير) ١٩٧٦ ، جر علينا نكد وغضب الوزير خدام ومن ثم الرئيس الأسد نفسه · اما نحن فاننا لم نكن نشعر بأي حقد ، وكنا مقتنعين باننا لا نستطيع ان نقبل بمشروع دستور لا عقلاني ولا برلماني ، وتأباه مبادىء القانون الاساسية ·

وكنت اقول للرئيس الاسد دائما « انني احب ان احافظ على جودة العلاقات مع الدولة السورية اما حزبكم الذي اعتبره خاويا من الناحية الايديولوجية ومفتقرا بالكامل الى الحس بالحرية والرأي العام ، فقضية مختلفة تماما · والبعثيون في دمشق لطفاء وربما كانوا شرفاء بالاجمال ، لكن الحزب عندهم ليس بالامر الجدي » ولم اكن اتلقى جوابا عن هذا الكلام · كان القوم يحتملونني ويحتملون ما اقول لأني لم اتردد مطلقا في دعم الحقائق الاساسية ـ عندما يقتضي الأمر ـ بصدق وصراحة كاملين ومن دون اية خلفيات او حسابات مسبقة · **فانا لم أصبح رجلا سياسيا الا عرضا** ...

ولم يكن لدينا ما نعارض به هذا التحالف المقدس بين السوريين والمارونية الاستبدادية الا ارادتنا وعزم شعبنا الثابت الشريف · اذ لا يجوز الانحناء دائما امام العاصفة المؤذنة بالهبوب · وقد ظللنا بصلابة « السنديان » · وعندها اختطف منا السوريون انتصارنا السياسي بينما كانت ميليشياتنا الوطنية قد احتلت ضواحي بكفيا وكسروان · فأحاطوا بنا وحطموا انطلاقتنا ، فوا أسفاه · وكما قلت مرارا وتكرارا للرئيس الاسد وللملأ أجمع فانه لا بد للفاشية المنصرية بادىء الامر ـ من طراز الكتائب وشمعون وزمرهما ـ من ان تهزم عسكريا اذا ما اريد معالجتها سياسيا بعد ذلك · ثم معالجتها نفسانيا في نهاية الامر · **لكن ما هم .. فسنرى بعد خمس او عشر من السنين الى من سيكون مآل النصر السياسي النهائي** · فالجماهير اللبنانية التي باتت اكثر وعيا وتصميما مما مضى ، قد انطلقت في مسيرتها · وأما نحن ، فان لدينا شعورا بأننا قمنا بواجبنا ، وهذا هو الاساس في الامر · وبلغ المقدر غايته

وهناك بخلاف الأسباب السياسية التي تأولنا بها ، التحالف السوري ـ الماروني « المقدس » ، روابط مصلحية ـ لن أقول عنها الا كلمة لكي لا اسمي الامور ؟ ثم انه لا جدوى في اسهابنا حول علاقات آل فرنجية ببعض الشخصيات من بطانة الرئيس

السوري الذين كان يتصل بعضهم بصلة قرابة ببطرس الخوري القطب التجاري والصناعي والمالي اللبناني الكبير ... والواقع ، هو ان الجانب الشخصي قد لعب دوره ، ولكنه لعب هذا الدور في رأيي عبر طباع وسجايا اصحاب الادوار الرئيسية · فطباع وسجايا الرئيس الاسد مثلا هي مزيج ، في واقع الامر ، من الفطرة السليمة والشرف والوفاء للاصدقاء (شأن آل فرنجية) ومن التوازنية والمهارة في اللعب بالتناحرات ، ومن العناد وشيء من الطيبة الطبيعية · ويمتزج ذلك كله في الآن ذاته بالقسوة والمداهنة ، **فالهراوة حاضرة ابدا وقد كان دورها اساسيا ابدا في نظامه وسياسته** · وفيما عدا ذلك فهو على الرغم من انه شديد الاصغاء الى اجهزة مخابراته الاربعة أو الخمسة ـ يعرف جيدا جدا ما يريد وكيف يمكنه بلوغه مع ما يقتضي ذلك من نباهة ومن تكتم ورياء وطموح · وقد ظهر عبر تدخله في احداث لبنان حقودا شفوقا في آن معا · وكان يبدو مشفقا متاثرا من مجازر ودمار وبشاعات الحرب الاهلية اللبنانية · وعلى اي حال ، فقد راح يزعم بأن هذا الشعور كان الى حد بعيد وراء قراره بالتدخل · ولا يزال النظام السوري يحتج الى الان بهذه الحجة · فغالبا ما ينتهي المرء من تكراره واعادته قول شيء ما الى تصديق ما يقول ، ثم الى تنفيذ ما يترتب على مقولاته · **فالاعذار هي غطاء النوايا الحقيقية · والطبيعة البشرية بالغة التعقيد** ... وعندما يتعلق الامر برجال السياسة ورؤساء الاحزاب وقادة او اعضاء الطغم العسكرية ، فان الاشياء تصبح اكثر تعقيدا · اذ يختلط الحابل بالنابل ، الصدق بالغموض والطموح بالمصائر واخيرا ـ وخصوصا ـ بارادة القوة · وفوق ذلك ، فان في القادة السوريين ابدا شيئا من « الوالي » مثلما تجد في قادة مصر شيئا من فرعون ·

ولقد كان موقف السلطة السورية مزدوجا ·

والحق يقال من قديم ، ان الحزب نفسه في سوريا كان ولا يزال يعيش هو الاخر في اللبس والغموض · وفضلا عن ذلك ، فقد كان هناك نصف ـ فشل حرب عام ١٩٧٣ ، والتي لم يكن يكفي تحويلها لفظيا الى انتصار ·

وكان العهد بالسوريين انهم يمثلون المتطرفين وغلاة القضية العربية والقضية الفلسطينية ·

ولذا فاننا لا نتوصل الان الى ان نفسر لانفسنا أو ان ندرك هذا الانعطاف الكامل في الموقف القومي التقليدي ، وهذا الضرب من تغيير الاتجاه رأسا على عقب · ومتى كان النظام نظاما لا حرية سياسية فيه ، ولا ايديولوجية عقلانية مستنيرة حاسمة ، فانه يبات في الوسع الاعتذار بما يعن من الاعذار · غير اني اعتقد ان هناك ـ بخلاف العامل الشخصي ـ عاملا سياسيا مهما جدا ، هو شعور سوريا بعزلتها · فمن جهة اولى ، فان اصحاب النفوذ في عدة بلدان عربية لم يكونوا يساعدونها في جهودها الرامية للنهوض العسكري · كما انها حاولت هي من الجهة الثانية تأليب الرأي العام العربي ضد مبادرات مصر · ولكن ذلك لم يكن عملا ناجحا · ذلك ان الرأي العام العربي مل الاتهامات بالخيانة العظمى تلقى جزافا وكيفما اتفق ، سيما وان الملأ كله كان يعلم ان سوريا تسعى هي الاخرى وراء تسوية ، في حين انه ما كان لهذه التسوية ضمن السياق العربي والدولي الحالي ان تكون تسوية حسنة ·

اما العراق المتروي فقد كان من الحكمة بحيث انه قال كلمته حول اتفاقية سيناء بصراحة بالغة ومن دون اللجوء الى الهجوم الشخصي كما فعلت دمشق · ومن المعروف ، ان العراق يعارض من حيث المبدأ كل تسوية ، ولكن ذلك لم يدفعه الى القطيعة مع مصر ، بل على العكس فقد عززت بغداد تعاونها مع القاهرة بغرض المساهمة في كبح ما ترى انه نزوع مصر الى المضي قدما وبعيدا في سياسة التسوية · والواقع ، هو ان اتفاقية سيناء لم ترتهن مستقبل القضية الفلسطينية بقدر ما ارتهنته مواجهة السوريين العسكرية مع الثورة الفلسطينية · ولنر ـ بالفعل ـ الاشياء ، كما هي ، ان اتفاقية سيناء تطرح وقف الاعمال الحربية والفصل بين القوات · كما تطرح كذلك على المدى الطويل الاعداد للسلام بين مصر واسرائيل · الامر الذي يعني نهاية الحلم المباشر بالتحرير الكامل لفلسطين · والواقع ، هو ان غالبية رجال الدولة والسياسيين العرب لم يعودوا يفكرون

بالتحرير · غير انهم غالبا ما يواصلون المناداة به عاليا في الساحات العامة · وتلك عقدة عربية - شرقية قوامها الازدواجية والرياء لا يمكن ان تدوم · فما يحتاج اليه العالم العربي ، انما هو سياسة مبادىء لا سياسة شعارات · فاذا تجاوزنا هذه النقطة ، فان اتفاقية سيناء اثارت الكثير من الشقاقات والخلافات بين العرب ولا سيما بين مصر وليبيا الخ .... ومن جهة اخرى ، فانها افقدت مصر الكثير من حريتها في الحركة والمناورة · ذلك ان الاتفاقية تمثل عبئا يثقل جره على الصعيد الدبلوماسي ان العربي او الدولي · كما انها ابعدت الاتحاد السوفياتي ونفرته ، وهو الذي كان مهيئا للتخلص من الحمل العربي الذي لم يجلب له في نهاية التحليل سوى الديون وبعض القليل من النفوذ والمهابة · غير اننا اذا ما تناولنا نص اتفاقية سيناء نفسه فاننا ملزمون بملاحظة ان الاتفاقية لا ترتهن المستقبل بشيء ولا سيما مستقبل الشعب الفلسطيني · فما من مادة من موادها تناقض تطلعات الشعب الفلسطيني النهائية في عودته الى بلاده وفي وحدته وتقريره لقدره ومصيره ·

غير ان هذه الاتفاقية لا تستطيع ، والحق يقال ، ان تحقق خطوة كبرى الى الامام لأنه تم التوصل اليها في لحظة كانت مصر تجتاز في خلالها ازمة اقتصادية حادة وتشعر بتخلي بعض الدول العربية عنها · فلم تكن تسعى الا الى تحرير القنال وحقول ابورديس النفطية بغرض ان يؤدي هذا النجاح الى اكسابها تأييد الرأي العام المحلي · فقد مل المصريون النضال من اجل العرب وباسمهم من دون ان يلقوا جزاء على ذلك ولا شكورا · ومشكلة المصريين هي ان عليهم كساء وتشغيل واطعام مليون فم جديد كل عام · ثم ان لديهم فوق ذلك مشكلة الدين الضخم المنيخ عليهم والمتوجب للاتحاد السوفياتي في حين ان الدول الغنية تبدو بخيلة شحيحة مقترة · وثمة كذلك المشاجرات بين العرب وفقدهم لحس التضامن والمسؤولية ، ومزايدات دمشق ، وهناك عبد الناصر الذي لم يعد موجودا ليهز سوطه المعنوي ·

ومع هذا ، فانه من الصحيح كذلك - اذا ما اردنا تقصي الاشياء عن كثب - ان اتفاقية سيناء كلفت مصر - والعرب الكثير ، فقد قبضت اسرائيل اربعة مليارات دولار كمساعدة عسكرية واقتصادية كما منحت ضمانات مذهلة كتعويض عن انسحابها من مضيقي الجدي ومتلا وحقل ابو رديس النفطي وترك مصر تفتح قنال السويس · الا ان بخل العرب وفقدان المسؤولية اجبرا مصر على توقيع الاتفاقية · فهي مدينة بأحد عشر مليار دولار للاتحاد السوفياتي ودائنيها الاخرين بينما لا ينال من مساعدات الا القدر القليل الكافي لتأجيل موت المصريين ، ظانين - شأن الاميركيين ايضا - انهم بذلك يمسكون بأعنتها · كلا ، ان اتفاقية سيناء لم تكن بالنسبة الى المقاومة الفلسطينية ، في مثل شؤم العدوان الفاضح الذي قامت به سوريا مجبرة الفلسطينيين على ان يختاروا امام السيف المسلط عليهم - كما كان يقول الاسرائيليون عن التدخل السوري - بين الموت او بين الخضوع ·

واذن فان سوريا كانت تشعر بالعزلة بعد عزوف بقية البلدان العربية عن متابعتها في تقريعاتها اللفظية ضد مصر · فحتى الجزائر - القومية والصلبة الخالصة - عرفت وهي تنتقد اتفاقية سيناء انتقادا عنيفا كيف تتصرف بترو وكرامة · وينبغي ان نذكر هنا ، كذلك ، ان كيسنجر لم يفلح في ان يفرض على الاسرائيليين الانسحاب من الجولان بعد سيناء · لكن هل كانت شروط اتفاقية سيناء حسنة حقا ؟ **وايا كان الحال فان سوريا لم تجد لدى الاتحاد السوفياتي الدعم الذي تسعى اليه · ولهذا ، فانها بدلت لباسها وقررت ان تلعب « اللعبة الاميركية »** وان تفرض السلطة البوليسية في لبنان · واختارت ان تماشي الولايات المتحدة · ولقد ذهب السوريون - عبر معارضتهم للحركة الوطنية اللبنانية والرؤساء المسيحيين الوطنيين والاهالي المسلمين في انجاز تحررهم الشعبي ، وعبر شنهم حملة المواجهة مع منظمة التحرير الفلسطينية - الى ابعد مما ذهبت اليه مصر بكثير في تطبيق سياسة « الاحتواء » الاميركية · ثم ان تدخل سوريا العسكري ، لم يكن بالشيء الذي يقبله تصورنا منذ سنتين نظرا لمخالفته لخط سوريا السياسي التقليدي · ولكن يقال ان جنيف ، جنيف المخاتلة ، جنيف المستحيلة قد

ارتهنت سوريا لانها اكتسبت قدرة السراب على الارتهان ، ذلك ان السوريين ، وقد اصطدموا بعناد الاسرائيليين ورفضهم ارجاع متر واحد من الجولان ، او من المرتفعات الشهيرة التي تشكل حجر الزاوية في الدفاع السوري ، والتي تطالب بها الدبلوماسية السورية بضجيج وعجيج شديدين ، فانهم نكصوا على اعصابهم وراحوا يطالبون بتسوية كاملة تشمل المسألة الفلسطينية ·

وثمة عامل شخصي اخر، فالقادة السوريون الحاليون طالما شعروا ازاء ياسر عرفات بنفور عميق ما كانوا يحسنون تمويهه· ففي سنة ١٩٦٧ اي في العام الذي كان فيه حافظ الاسد وزيرا للدفاع الوطني، وفي اللحظة التي كانت المقاومة الفلسطينية في اول انطلاقتها، وفي الحين الذي كان يتأكد فيه استقلال هذه الحركة الجديدة ازاء مختلف البلدان العربية، **القي القبض على ياسر عرفات وعدد من رفاقه في سوريا ثم اودعوا السجن قرب الحدود مع اسرائيل·** افكان ذلك اجراء وقائيا ووسيلة لتلافي ردود الفعل الاسرائيلية على «الارهاب» الفلسطيني؟·

وعلى الرغم من ان الرئيس الاسد صلب وقادر عندما يحزم امره على التوجه الى هدفه رأسا، الا انه يظل مترويا في غالب الاحيان الى حد ان ذلك يجعله حائرا بعض الحيرة· غير انه اذا كانت هذه التفسيرات قد انتشرت بسهولة في بعض الاوساط، فانه لا بد للمرء من ان يحافظ على ترويه، فلأمر ما سمي العرب، ولا سيما المشارقة منهم، «بشعب الكلام» ثم اني انا نفسي، تدخلت منذ بضع سنوات، وفي مرات عدة، بين ياسر عرفات والرئيس الاسد من اجل اعادة مناخ الوفاق الى ما كان عليه، في حين ظلت حملات دمشق تتصاعد سريعا الى العلاء· فالرئيس الاسد سريع التأثر وغالبا ما يأتي رد فعله تبعا لعاطفته·

ثم ان الاوساط الدمشقية تعتبر ان على الثورة الفلسطينية ان تسير ويدها في يد السلطة السورية وانه ينبغي ان تتمثل بالسلطة السورية· وحصيلة الكلام هو انهم لا يريدون ان ينسوا - كائنا ما كانت الظروف - ازمنة ما قبل تجزئة عام ١٩١٩، اي عندما لم يكن اللبنانيون والفلسطينيون والاردنيون والسوريون لا يشكلون الا شعبا واحدا هو شعب سوريا التاريخية بحدودها الطبيعية الممتدة من طوروس الى سيناء · لا بل ان الرئيس الاسد اكد ذلك بوضوح لياسر عرفات منذ مدة غير بعيدة (في حوالي شهر نيسان ابريل - من عام ١٩٧٦) حين قال له ، « انكم لا تمثلون فلسطين باكثر مما نمثلها نحن · ولا تنسوا امرا ، **انه ليس هناك شعب فلسطيني ، وليس هناك كيان فلسطيني ، بل سوريا · وانتم جزء لا يتجزأ من الشعب السوري ، وفلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا · واذا فاننا ، نحن المسؤولون السوريون ، الممثلون الحقيقيون للشعب الفلسطيني » .**

وفي هذا ما ينم عن افكار «اسد سوريا الكبرى» الحميمة....

وعلى اي حال، فان الوطنية السورية قد عبرت ابدا عن نفسها على هذا

النحو ان في لحظات وعيها، او في ساعاتها الحالكات. فمن هذه النقطة تبدأ الوحدة العربية بالنسبة الى السوري. واخيرا، فان القوم في سوريا طالما افرطوا في الكلام عن الوحدة العربية والحرية والاشتراكية من دون ان تتحقق مطلقا.

وفيما يخص الحرية فان السوريين باتوا اكثر حرية، ولا مراء، في سنوات حكم حافظ الاسد الست مما كانوا في ايام سابقيه. الا ان المسافة التي تفصلهم عن «الديموقراطية السياسية» التي يطمح اليها هذا الشعب المتوسطي الليبرالي اللوّام، لا تزال بعيدة... ذلك ان حزب البعث السوري وان بدا مطبوعا بطابع غربي شديد، الا انه اقترف خطأ - ربما بسبب انه ظل حزبا اقليا - بسبب نسخه نظام الحزب الواحد البلشفي والديموقراطية الشعبية المزعومة. واما الاشتراكية، فانه اذا ما وضعنا جانبا تأميم غالبية الصناعات، والاصلاح الزراعي العادل الى هذا الحد او ذاك، لا نجد لها اثرا في التجارة ولا في الملكية العقارية، حيث نشأت بنتيجة اختناق صغار الموظفين والكسبة، وبسبب الارتفاع المخيف في الايجارات، طبقة جديدة من اصحاب الملايين بل ربما من اصحاب المليارات، تدفع الشعب الى التمرد الاجتماعي والمعنوي.

وعلى هذا النحو، تقريبا جرت الامور مؤخرا في مصر... وقد كان ينبغي لسياسة الانفتاح هذه ان تكون مصحوبة بتنظيم الايجارات على اساس ان تتراوح قيمة الايجار بين ٨ و١٠ بالمئة من ثمن بناء الشقة او المبنى على ان لا يؤخذ ثمن الارض التي جرى عليها البناء بعين الاعتبار، وعلى اساس ان تقتصر الملكية المؤجرة على بناء وحيد لا يزيد ريعه عن حد اعلى محدد (كخمسين او سبعين الف ليرة سورية مثلا). فمثل هذه الطريقة كانت هي الطريقة الوحيدة لوقف ارتفاع ثمن الارض وعقلنة الايجارات، واقفال هذا المصدر المهم من مصادر التضخم العام الذي نشاهده في سوريا وفي لبنان وفي البلدان العربية وفي العالم كله تقريبا. وحذار من البرجوازي الصغير اذا ما غضب.

واما من جهة الوحدة العربية - التي طالما وعظت بها الشعارات والخطب - فكيف يمكن نسيان انفراط الوحدة مع مصر ذلك الانفراط الذي كان حزب البعث السوري - بسوء قيادته في تلك الحقبة - احد صانعيه. فلا تزال ذكرى الانفصال تنيخ بثقلها على الرأي العام العربي عامة وعلى الوجدان السوري والبعثي خصوصا. واذ ذاك لم يبق من منخدع بمختلف انواع الكر والفر باتجاه «الاتحادات او الوحدات» التي لا يوازيها في فجاجتها الا فسادها، والتي لا تزيد صلابتها عن صلابة الاتفاقات القبلية الظرفية. وتبعا لذلك فان قادة حزب البعث السوريين يحلمون بتحقيق وحدة فيدرالية ولو لمرة واحدة على الاقل. لكن مع من؟ مع لبنان الذي ترابط قواتهم فيه عنوة. ولهذا فانه لا بد من ادخال هذا

العنصر النفساني الخاص بالسياسة السورية الحالية في الحسبان.

وتلخيصا لما سبق نقول ان ثمة - بالنسبة الى المشكلة اللبنانية - اطروحتين يمكن الدفاع عنهما الى هذا الحد او ذاك. فهناك الاطروحة السورية، اطروحة الامن (او الشرطي) الذي تلبس بالمناسبة لباس العطف والانسانية. او قل ان ذلك هو ظاهر الامور والسبب الرئيسي الذي قدمه القوم كحجة لتدخلهم العسكري.

وهناك الاطروحة اللبنانية، اطروحتنا، اي اطروحة الحركة الوطنية اللبنانية، وهي اكثر انسجاما، بالتالي، مع الروح الثورية النظرية والواقعية واحرص على التطور الفعال.

لكن الحديث عن الواقعية والفعالية في العالم العربي هو قضية اخرى وشأن اخر.

اما الموقف السوري فكان اقرب الى المحافظة، ويدل على فقدان الاهتمام بمشاكل الشعب - اي الشعب اللبناني في حالتنا هذه - ويفتقد الى النفحة الثورية بل الى القدر الادنى منها.

والسياسة التي نشهد الان بزوغها ورجحانها في كثير من دول العالم الاشتراكية، انما هي سياسة برجوازية. وحزب البعث السوري يعوزه حس الجدلية الحق. فهم لم يطالعوا سقراط ولا هيراقليطس، وتعوزهم، الروح الهيلينية. فقد مضى دهر على انطفاء تعاليم مدرسة انطاكية في رماد القرون، مثلما انطفأت جذوة تعاليم مدرسة الاسكندرية الشهيرة. والقطيعة مع الهيلينية هي الخطيئة الرئيسية التي ارتكبتها هذه السامية المقلوبة. ذلك ان الفكر اليوناني لم يحفظ الا في مدارس التصوف الاسلامي. ولذا فانه لا بد من نشره واظهاره.

لكن او يمكن لنا ان نرى في هذه النزعة الى المطالبة بولايات سوريا التاريخية القديمات، نزعة امبريالية؟ كلا ولا ريب. فهي ليست كذلك تماما.

بيد ان لدى كل عربي دافعا وحدويا مستقرا في لا شعوره الفردي او في شعوره الجماعي الباطن. لكنه لا يستطيع في الآن ذاته الامتناع عن اطراحه وهو المقيد بخصوصيته وقبليته. فثمة تلك الذكرى الغامضة، ذكرى امبراطورية الخلافة العربية الاسلامية ومجدها. ومع هذا، فان حزب البعث السوري، - ولا بد لنا من تكرار ذلك - قد اسهم في انفصال سوريا عن مصر. فقد تغلبت انوية الحزب او انانيته الضيقة، وفردوية رؤسائه على الايديولوجية البعثية الوحدوية.

ولعل تانيب الضمير الناتج عن الاشتراك في تفتيت الجمهورية العربية المتحدة قد دفع النظام السوري الى التدخل العسكري في لبنان. وثمة ما يدعونا الى المراهنة بأن القادة السوريين كانوا يأملون في ان يجعلوا من لبنان - ابان حكم سليمان فرنجيه - دولة تسير في فلكهم. هذا اذا ما افلت

بلدنا من انشوطة او مصيدة الكونفيدرالية مع سوريا.

واعتقد ان لبنان كان بالنسبة الى الرئيس الاسد رهانا دبلوماسيا في المرتبة الاولى من الاهمية، وورقة مناورة، ونجاحا له ثمنه لدى الولايات المتحدة والسوفيات واوروبا، بهدف التوصل الى تسوية مرضية لمشكلة الحدود والاراضي التي تحتلها اسرائيل. لأن من شأن ذلك ان يعطيه بعض الوزن على الصعيد الدولي ومهابة ونفوذا دبلوماسيين مفيدين.

ومن جهة اخرى، فان سوريا التي لديها من الدبابات فوق ما تطيق لم تكن تستطيع ان تسمح لنفسها بمهاجمة اسرائيل. فانصاعت لاغراء هذا الاستعراض العسكري في لبنان. وهكذا، فان الاسباب المادية (المادية التاريخية) كانت بالتأكيد في اساس الاحداث وبالقدر نفسه الذي كان عليه اللاشعور الفردي والجماعي. فالتصرف الانساني انما ينبعث في نهاية التحليل من النفس. ومن ثم، فانه لم يكن يستطيع انقاذ النظام السوري من مأزقه الا عمل ساطع براق. **وانه ليحدوني القلق عندما افكر في اليوم الذي ينتهي العرب فيه (نظريا) من اسرائيل. فالى اية العاب دموية سوف ينصرفون، واية حروب داخلية سوف يخوضون؟**

اللهم الا اذا ظهر «بسمارك» المنتظر. وقد كان اول بسمارك عرفناه هو (كما يقول ارنولد توينبي) جمال عبد الناصر، الذي لم يفلح لسوء الحظ وبسبب بعض الرؤساء العرب انفسهم والقادة السوريين بدمشق في تحقيق وحدة الامة العربية، ربما لأن هذه الامة لا تزال - شأنها ايام الخلافة - مجرد «كومنولث» للشعوب. فلا بد لهذه الشعوب، كيما تصير امة حقاً من ان تزيد فهمها لماضيها - الغني المجيد - وان تتجاوز فرديتها او تتسامى بها.

وقد ظهر الاهتمام الذي يكنه القادة السوريون لكل ما يمس لبنان بان انتخاب الرئيس الجديد للجمهورية، وعبر الضغوط التي مارسوها والمكافآت التي اجزلوها من اجل انجاح الياس سركيس. ثم وبالموقف الحاقد المبهم الذي وقفوه من المرشح الاخر، ريمون اده. ولم يكن يلزمنا اكثر من هذا لكي نتنبه. وعندما لم يفلح السوريون في فرض «حلهم السياسي» على الرغم من قبول جماعة الجميل - فرنجيه - شمعون في النهاية به، وعلى الرغم من بعض التحفظات التي لها مبرراتها القوية والمقدمة حتى من قبلنا. فانه كان في وسعهم صراحة القيام بمحاولات اخرى قبل ان يوجهوا قواتهم ضد الاسلام واليسار اللبناني والرؤساء المسيحيين المستقلين. غير ان الرئيس الاسد كان يرى الامور بصورة مختلفة.

ولقد كان يفكر بصوت مرتفع (وامامنا ايضا) حين كان يقول: **انه لا بد من اجل الدخول الى لبنان من كسب الموازنة، اي - وفقا**

للفته هو - الموازنة الانعزاليين لا الوطنيين. لقد كانت وفق ما ذكره لنا «مناسبة تاريخية». وضحى بنا فكنا خروف اضحية الفصح والقربان الضروري لاتمام هذا «اللقاء» وحدوث هذا التحالف. ويبقى علينا ان نحتفل بالفصح...

ولعل الرغبة في لعب هذه الملهاة جاءت نتيجة للجهل العميق، او لارادة سطحية بالظهور بمظهر الليبرالي الشهم... والحق انه لا يحسن التصرف ازاء الانعزاليين الجاحدين الخبثاء العصاة سوى الدروز، فهم يحكمون القوة حين تفيد القوة والطيبة حين يقضي العقل بالطيبة.

واذا كانت سوريا قد ساعدتنا سياسيا في بداية الاحداث، فانها فعلت ذلك وهي غير متحمسة له. فهي لم تحطم الجناح الاخر، بل انها خصته - وهي تقدم نفسها كطرف المصالحة السامي - برأفة خاصة ومحاباة غريبة.

واما لجهة المعونة العسكرية، فاننا - واقولها بصراحة - لم نتلق منها اي شيء تقريبا. فقد اشترينا سلاحنا بأنفسنا ودفع الشعب ثمنه.

اما هي فكانت تسمح بمروره الينا عبر اراضيها. واما من جهة المعونة المالية فاننا لم نطلب منها شيئا لوعينا بالصعوبات الاقتصادية التي يعاني منها الشعب السوري. **واذا فاننا لسنا مدينين لها بشيء سيما وان القادة السوريين كانوا يعيقون في الواقع وصول السلاح والذخائر المخزونة لصالحنا في سوريا.** فكان ذلك طريقة غير مباشرة لاكراهنا وتوجيهنا بحيث انهم بدوا كمن يريد للحرب ان تجرجر وتطول.

وكان علينا فيما بعد، ان نلح بصورة رهيبة لكي يرفع الحصار عنا.

ويبدو ان السوريين كانوا عازمين - ولا سيما في نهاية الاحداث - على الحفاظ على التوازن بين القوى المتناحرة في لبنان، ظنا منهم، ولا ريب، في ان ذلك سيسهل مهمتهم ويتيح لهم الخلاص من الدمل اللبناني ومن كافة شكاوى وانتقادات الرأي العام العربي.

وتقول السنة السوء ان الرئيس فرنجيه تلقى قبل الاحداث «هدية سلاح» من سوريا. وتزعم هذه الالسنة كذلك انه عبرت سوريا في تلك الاونة شاحنات ملأى بالاسلحة والذخائر وهي في طريقها الى الانعزاليين حينما كان الانعزاليون يتدربون على الاسلحة نصف الثقيلة. وبعد ذلك بفترة قامت الصاعقة هي الاخرى بانجاد اصدقائها الكتائب بالطريقة نفسها. اما من جهة المدافع، ولا سيما مدافع المورتر ١٦٠ ملم الشهيرة، فلعل اسرائيل هي التي زودت اليمين اللبناني بها. او لهذه الشائعات اساس؟ سيأتيك بالاخبار من لم تزود... ومن بعيد، كان العرب يعدون الضربات كما لو كانوا يشاهدون معركة بين الديكة..

ولا ريب في انه ينبغي للفاشية العنصرية والدينية ان تحطم عسكريا بادىء ذي بدء، وبعد ذلك - وفقط بعد ذلك - تعالج نفسانيا. ولا زلت

اذكر لقائي الاخير مع الرئيس الاسد ورفضي اعلان وقف القتال فورا· فقد ساءه ذلك بالتأكيد· الا انه لم يكن يستحق ردة الفعل العنيفة هذه من جانبه: اي الحرب المفتوحة ضد الحركة الوطنية واذلال اليسار, والاسلام في لبنان· ولكن لعلنا ازعجنا عليه خطته··· فأنا لم اطلب منه لبت الهدنة سوى مهلة ثلاثة او اربعة ايام, او اسبوعا او اسبوعين على الاكثر, اي ما يكفي لفك حصار ضهور الشوير, وبسكنتا حيث كان انصارنا محاصرين· فقد كنا واثقين من ان نصرنا العسكري وحده قادر على انهاء حرب الانعزاليين· وكان ينبغي العمل بسرعة: ذلك ان اسرائيل(وصحافتها)كانت ترثي وتشفق على مصير اليمين اللبناني الذي «تخلى» عنه الاميركيون واوروبا· كنا سنعلن ريفون مدينة مفتوحة ونتلقى طلب الاستسلام ونوقع الهدنة· وبعد ذلك يصير بامكاننا بل ويجب علينا ان نظهر الليبرالية والشهامة···

وفي خلال هذه المحادثة الاخيرة تكلم الرئيس الاسد بكثير من الصراحة· وقال لي: «اصغ الي· انها مناسبة تاريخية بالنسبة الي, لتوجيه الموارنة صوب سوريا وكسب ثقتهم واقناعهم ان حاميهم ليس فرنسا وليس الغرب· وينبغي ان نساعدهم على عدم طلب المعونة من الاجنبي· **ولهذا، فانني لا استطيع القبول بانتصارك على المعسكر المسيحي في لبنان:** فمن شأن ذلك ان يخلق شعورا بالغم والفيظ لديهم»·

واجبته . ان القضية ليست قضية المعسكر المسيحي· ولا تنسى يا سيادة الرئيس ان الروم الارثوذكس والارمن وثلاثة ارباع الروم الكاثوليك وثلث الموارنة انفسهم يعادون موقف متطرفي المارونية الانعزالية· وهؤلاء يربون على ثلثي المسيحيين في لبنان, ولا بد من تخليصهم من النير الفاشي: ان كل الانعزاليين وجميعهم لا يزيد على نسبة ٢٥٠ بالمئة من المسيحيين· فاجابني بصورة قاطعة: «وحتى لو كان الامر كذلك, فاني لا استطيع ان سمح لك بقتال الانعزاليين ولا اريد لهم ان يشعروا بشعور المهزوم»· كان يكرر دائما وابدا الشعار ذاته: «ان هؤلاء الناس لن يتحولوا بأبصارهم بعد الآن شطر اوروبا او الولايات المتحدة وانما نحو العرب وسوريا»·

ويا لسوء الحساب والجهل الكامل بالمشكلة اللبنانية, ويا للوهم والعذر الذي لا يحل من ذنب·

انه يعتبر ان واجبه القومي العربي هو في تخليص الموارنة من سحر دائرة حماية فرنسا او اوروبا·

أفكان صادقا؟ لقد كان في تلك اللحظة يبدو صادقا·· لكن او نستطيع تأكيد ذلك اليوم؟ **فالسياسة ليست المحبة·** ولا بد من الاعتراف للاسد بأنه افلح فيما رمى اليه في بداية فعل القوة هذا. الا ان الحذر الماروني عاد يتبوأ الصدارة بعد ذلك· فالاحتلال العربي - الاسلامي يخيف الموارنة

ابدا, ولا سيما عندما يكون احتلال السوريين الذين يعتبرونهم دائما كألد اعدائهم ويخشون من أنهم اذا دخلوا المنطقة مرة, الا يخرجون منها مطلقا· وقد تعالت الصيحات تدعو الى تحطيم كل شيء عندما دخل السوريون الى كل مكان في بيروت والمتن· واذا فان المسلمين والمسيحيين الوطنيين لم يعودوا في الواقع اكثر المتحفظين اتجاه هذا العدوان· بل ان جماعة الانعزاليين اصبحت اول الناس زعيقا وصياحا, سيما وان وجود السوريين انهى حلم التقسيم والدويلة المارونية· وغالبا ما يتأخر الانعزاليون - برؤوسهم الصلدة العنيدة - عن ادراك نتائج نشاطهم الدنس, لكن الرأي العام عندهم مزعزع, فقد بدأ طرح الاسئلة, وبدأ الخوف والريبة بالاستيلاء على النفوس, حتى ولو كانت العذوبة والتعاون والنوايا الحسنة تسود على السطح· فعبر صوت القلق هذا, وعبر الريبة, دخلت اسرائيل الى الانعزاليين لتتلاعب بهم (انظر احداث الجنوب - لبنان)· وعندما نفكر بازدواجية السلوك السائدة لدى كثير من اللبنانيين, وبالتعصب وبالعقد المرضية التي تتحكم بمختلف الطوائف اللبنانية تقريبا, فانه يعترينا الخوف ونيأس ونقول لأنفسنا بأنه ربما كان مشروعنا التوحيدي طوباويا بأكثر مما هو حقيقي· ثم يرتد الينا الامل في بعض اللحظات· أفترى الرئيس الاسد بواقعيته كجندي يستشعر ذلك هو الاخر؟

ان هذا كله رهان! افيمكن لهذا الضرب من التحالف بين السوريين والموارنة الانعزاليين, حلفاء اسرائيل, ان يدوم؟ ان الموقف صعب ودقيق بالنسبة الى دمشق· لكن لدى الرئيس الاسد اكثر من سهم في كنانته واكثر من ورقة في جعبته· فهناك الرأي العام السوري, والجيش, كما ان هناك القلق الذي يعتري عددا من اعضاء حزب البعث السوري بهذا الخصوص· غير انه ينبغي لنا القول ان الشعوب التي حرمت من حريتها لا تتمكن من استعادة ممارستها بسرعة ويسر, وخصوصا عندما تكون محاطة بعشرات الآلاف من العملاء السريين وبالقمع والدعاية الرسمية· انها الاستبدادية مصفرة· والرئيس الاسد يستند الى مهارته والى تفتيت العوائق قطعة اثر قطعة والى التكتم والمواربة والاخضاع بأكثر مما يستند الى تفهم او اجماع الرأي العام· ولماذا هجرتنا سوريا؟ اني ارى ان سبب ذلك هو نفساني بقدر ما هو سياسي: فقد كانوا يجدوننا شديدي الاستقلالية· فما كنا بمتبعي الولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي او اي سواهما مطلقا· وكان لدينا منهج عمل بالغ الدينامية, ويفوق اهمية الحزب التقدمي الاشتراكي وحلفائه· وكانت لدينا افكارنا الواضحة البينة حول العرب والعروبة وحول مختلف مشاكل العالم العربي, ونحن نقول الاشياء بتهذيب وبلياقة احيانا, لكنا نقولها بلا تحفظ·

وكنا نوشك كما يزعم حلفاؤنا القدامى السوريون ان نوردهم موارد لا

يريدونها عنيت موارد الديموقراطية السياسية. وبعيدا عن جنيف او بالاحرى نحو جنيف حقيقية. فقد كانت لدينا رؤية واقعية للمشكلة لفلسطينية وحلها: فلن يكون لأية تسوية مع الدولة العبرية اية قيمة اذا لم تتضمن عودة ١,٢٠٠,٠٠٠ لاجيء الى ديارهم وأرضهم والى عملهم في داخل اسرائيل (اي باختصار تطبيق قرارات الامم المتحدة لعامي ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧). لا بل ان المشكلة اللبنانية نفسها لن تحل بأدنى من هذا الثمن. (فثمة قريب من ٣٥٠,٠٠٠ فلسطيني في لبنان، وسيصبحون ٨٠٠,٠٠٠ خلال عشر او اثنتي عشرة سنة).

كنا شديدي الصخب · والعالم العربي يأبى ان يزعجه في خموله مزعج . فلا تزال المغامرة الناصرية تخيف الرؤوس الحاكمة · وقد نقم علينا بعض القادة لاننا كنا نطالب بمشاركتهم في جهود الخلاص العربي · واذ ذاك فقد قدموا الينا هذا القول المأثور « الامن السوري والامن اللبناني مترابطان » ·

كان القوم جميعا وحيثما كان تقريبا . يخشون التغيير في لبنان ويخشون نتائجه ومشاكله ·

ثم ان لبنان لن يظل حديقة الملذات الخالدة . ولا ذاك النبع الذي يرده الاثرياء والنافذون لارواء غليلهم من المتع مع اطلاق الانتقادات العنيفة . والمطالبة بالتغيير : فهم ممثلو الفريسية العربية والازدواجية التقدمية · وكثيرون . كانوا يخشون ان نفتح الطريق امام الشيوعية . اذ كانت دعاية السوريين (مع انهم متحالفون مع الشيوعيين في داخل الحكومة) تفعل كل ما وسعها في هذا الاتجاه وذلك للتهويل على الدوائر النافذة في مصر . وسواها · لا بل ان الاميركيين واسرائيل وهيئة الاذاعة البريطانية (بي · بي · سي ·) كانوا يفعلون الامر نفسه · وبالاجمال . فان القوم كانوا قلقين من استقلالنا المعنوي والفعال . ومن تزايد نفوذنا لدى الرأي العام العربي ·

وأخيرا . فانهم كانوا يعلمون انه لا بد لهم من ان يبدأوا بترويضنا لكي يخضعوا الفلسطينيين · والمضي عكس وجهة الارادة الباطنة المبهمة . التي تريدها السرايات هو مسلك وعر .

وقد اوشكنا ان نلقى حتفنا عليه · ولكن شرفنا سلم واتممنا واجبنا . وخلقنا هيجانات ودوامات . وموجة عميقة ستنطلق في سبيلها لتقرر في يوم قريب المصائر العربية ·

والان لنعد الى الانعزاليين والى تطور الازمة اللبنانية . لقد ابتعدت الاقلية المارونية عن سوريا واستدارت استراتيجيا نحو اسرائيل اكثر من اي وقت مضى ·

هذا مع ان من رأى الى عواقب الامور علم ان مصلحة الموارنة الحقيقية ومصلحة مختلف الاقليات في المنطقة . هي في البقاء ابدا الحلفاء المعنويين الاوفياء للمدافعين عن العروبة · وعلى أي حال . فان كثيرين منهم

بعيشون في القلق · فهم يفكرون « بأن الامور تسير مسارا حسنا مع حافظ لاسد ونظامه · فقد جاءت الجيوش السورية الى هنا وستنهال بشدة على الفلسطينيين . واحزاب اليسار اللبناني · لكن اذا ما حدث انقلاب عسكري فجائي في سوريا ، أو اذا ما غيرت سوريا سياستها . فسنمنى بالخسران المبين »·

وهذه المخاوف لا تزال غامضة مبهمة ·

ومع هذا فاني الاحظ لدى بشير الجميل وشمعون وفي صفوف الاكليروس كما ولدى اباسط الناس . ان القوم لا يجدون المغامرة مُلِذَة · فهم يتساءلون بصوت خفيض ويدعمون تحالفهم مع الدولة اليهودية ويرسلون برسلهم الى كل مكان . الى الولايات المتحدة واسرائيل واوروبا وكذلك الى دمشق ؛ متكلين على تغير السياسة الاميركية مع الرئيس الجديد كارتر · كما ان تدخل المدافع الاسرائيلية في الجنوب لحماية مسورة القليعة ومرجعيون الصغيرة نصف المستقلة قد اعطاهم املا كبيرا وثقة أعظم فهم يلعبون ورقة اسرائيل ضد سوريا من دون ان يسحبوا ايديهم من ايدي السوريين

وتلك لعبة ماهرة · ثم ان سوريا تجد طريق جنوب لبنان مقطوعة ويتعذر عليها بلوغها فترى نفسها امام تحد . مثلما يجد العرب انفسهم على كل حال امام التحدي ذاته · فلقد رمى الانعزاليون بقفازهم ـ بواسطة اسرائيل ـ في وجه حماتهم واصدقائهم السوريين والعرب . وهو الان يلتصق بوجههم جميعا · ولعمري انها لبادرة صداقة وعرفان بالجميل لا تضاهى ·

وهل أتاك ان سوريا هي ولا ريب البلد الوحيد الذي لم يمتلك سفارة في لبنان ؟ ان مرد ذلك هو الاعتبارات التي كانت سائدة قبل عام ١٩٤٣ . أي قبل حقبة ما يسمى بالميثاق الوطني . هذا الاتفاق الذي سبق اعلان استقلال لبنان · فقد كان الشعب اللبناني يطالب . في صراعه من اجل الاستقلال بعد انشاء دولة لبنان عام ١٩١٩ . بالوحدة مع سوريا · وكان اهالي الاقضية الاربعة التي عادت لبنانية . ـ وبينها قضاء بيروت ـ والتي كانت قد فصلت عن الجبل عام ١٨٦٤ بعدما اصبح الجبل سنجقا مستقلا استقلالا ذاتيا . يطالبون بالعودة الى سوريا · كانت رياح القومية السورية . التي اثارتها دعوة الشريف ولورانس الى العروبة . تهب بقوة فباتت شعار وذريعة معارضة الانتداب الفرنسي · وعلى أي حال . فان احياء امارة لبنان القديم العربي في محتوى وسياق من السيطرة الفرنسية ـ المارونية قد أفقد الامارة القديمة ملامحها ومعالمها ·

ذلك انها كانت تاريخيا جبل الدروز . فأصبحت الان الجبل أو امارة الموارنة · وكان سيدها القديم هو خليفة اسطنبول . المغمور الى هذا الحد أو ذاك . فأصبحت فرنسا ذات الحول والطول . الحامية التقليدية للموارنة · فانتقلنا بذلك من التوجه الاسلامي ـ الدرزي في اطار سوريا التاريخية والطبيعية . الى ما يشبه ان يكون محافظة فرنسية على الشاطىء السوري ·

واذا ، فان غالبية اللبنانيين كانت تتمنى اللحاق بالامة ـ الام ، سوريا · وفي تلك الحقبة كتب الدكتور ادمون رباط كتابه عن الولايات المتحدة العربية · وكان الرؤساء المسيحيون الى جانب المسلمين على رأس الحركة · فقد كان المشروع الحقيقي الذي تبناه الوطنيون المنظمون في جمعية سرية منذ اواسط القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين هو اشتراك لبنان نصف المستقل استقلالا ذاتيا مع سوريا في اطار سوريا الكبرى المستقلة · وبهذا المد التاريخي تشبث حزب انطوان سعادة المعروف باسم الحزب القومي السوري ·

وقد توافق هذا التيار الاحتجاجي المعارض مع ظهور القوميات الالمانية والايطالية في اوروبا واستمر الى فجر الاستقلال · ولا بد من ان نسجل تاريخيا ، ان الاستقلال الذاتي الذي حققه الامراء السنة والدروز على هذا الشاطىء ، قد ظهر في اطار سوريا التاريخية ·

اما لبنان ـ ما قبل لبنان الحالي ـ فقد كان اشبه ببروسيا سوريا · وعشية الاستقلال وإبانه · تم الاتفاق على تسوية · فكانت هناك تنازلات متبادلة بين الوحدويين السوريين وبين الموارنة المعتدلين ، فكان الميثاق الوطني الشهير · وعدلت غالبية الموارنة عن الابقاء على الانتداب بصفته حماية فرنسية ، بينما تخلت غالبية الوحدويين عن الانضمام المباشر الى دمشق ، وان ظلوا يغذون في اعماق قلوبهم حلم الوحدة العربية ·

الا ان ذلك كان صيغة تعويضية نفسانية بأكثر مما كان امرا فعليا أو واقعيا · ثم ان تفهما حسنا للمصالح المشتركة انشأ وحدة جمركية حقيقية ، بل واقتصادية ـ من زاوية معينة ـ بين سوريا ولبنان · وقد استمر الحفاظ عليها عبر اتفاق مشترك ـ يؤمن التنقل الحر للاشخاص والسلع والرساميل ـ الى اللحظة التي نشب فيها نزاع شخصي بين رئيس الوزارة اللبناني يومها رياض الصلح وبين رئيس مجلس الوزراء السوري خالد العظم ·

وقد اتفق في الميثاق الوطني ضمنا على انه لا يتم تبادل تمثيل دبلوماسي بين بيروت ودمشق بغية عدم صدم مشاعر الوحدويين اللبنانيين ·

ثم ان كلا الجانبين اعتادا على عقد مؤتمرات لمعالجة السياسة الخارجيةاو العربية التي ينبغي للبلدين الاتفاق على اتباعها · ولم تظهر التباينات بين سوريا ولبنان الا بصورة متأخرة وخصوصا عند الغاء سياسة المصالح المشتركة ، وبعد اقامة نظام اقتصادي جديد في دمشق ·

وبنتيجة ذلك ، اصبحت المشاورات المشتركة نادرة جدا · ثم جاء بعد ذلك انجاز جمال عبد الناصر الوحدة السورية ـ المصرية فايقظ الخواطر في لبنان ـ كما في كل مكان اخر ـ وأسهم في ايقاظ التيار الوحدوي العربي (وان ظل لفظيا نظريا الى هذا الحد أو ذاك) ، لكن المارونية المتطرفة التي تتغذى ابدا بالخوف من الاسلام والعروبة إغتمت من ذلك وتأثرت

تأثرا كبيرا ·

وانعكس ذلك على العلاقات فيما بين الطوائف اللبنانيةعلى الرغم من ان مختلف الاحزاب الوحدوية العربية (وتلك ظاهرة فريدة) قد تأسست على يد مسيحيين ....

بعد هذا ينبغي لنا القول أن الدعم الذي قدمته سوريا للاقلية المارونية انما يشتمل على مخاطر بالنسبة الى النظام السوري · ولا ننسى ان سوريا محكومة هي الاخرى من قبل اقلية ؛ اي العلويين · والعلويون أناس تجاهلتهم السلطة في الماضي ويتمتعون في غالبيتهم .بقسط وافر من الذكاء وقد عرفوا كيف يتصرفون بمهارة فباتوا يتمتعون بنفوذ راجح في داخل الدولة والحزب والادارة ·

لا بل ان مشاريع كبرى انجزت في بلاد العلويين ولا سيما في حقل الري واستصلاح الاراضي وشبكات الطرق ويضاف الى هذا توسيع وتنمية مرافىء اللاذقية وجبلة وطرطوس · كما ان حمص لم تفلت من تغلغلهم الكثيف بحيث ان هذه المدينة التي بات العلويون فيها اكثرية ، باتت مرشحة لأن تصبح عاصمة الدولة العلوية العتيدة اذا ما قامت ، واذ ما رضي بذلك الجناح السياسي العلوي الاخر الذي لا يزال يعارض هذا المشروع · ثم ان هذا التغلغل الصامت قد نما كذلك واتسع على طول الشاطىء ولا سيما حول اللاذقية التي تلقت هجرة علوية هامة وعميقة · ولا ريب في ان اهالي هذه المناطق العلوية او « المَعْلوَنة » باتت اكثر ثقة بالمستقبل مما كانت عليه في الماضي ·

غير اني لا اعتقد ان دمشق كانت تتمنى في البداية حقيقة ان تدعم المشروع الانعزالي في لبنان · كان السوريون يريدون مجرد الظهور بمظهر الحكم في النزاع ومن ثم كحماة الامة المارونية · **غير ان الموارنة ضللوهم في النهاية عبر لعبة الوطن الطائفي الصغير الذي يسعون الى انشائه** · وهنا ايضا كانت عاطفية القادة السوريين هي المنتصرة ؛ فثمة حقد في ردة الفعل هذه وخلو من كل منطق ومن أي باعث عقلاني · وقد ساعدت الظروف والعماهة السورية ، الموارنة ضد احزاب اليسار اللبناني وضد الحركة الوطنية وضد كل من عارض المخطط السوري في الدخول بصورة سلمية الى لبنان ليجعلوا منه دولة تدور في فلك سوريا ·

وقد بلغت هذه المعاقبة حدا بالغا من الظهور ، عندما راح الوزير خدام يقول منذ بضعة اشهر : « ان الوطنيين الحقيقيين هم جماعة الكفور » · ان ورود هذه الكلمة على لسان وطني سوري يجعلها مثقلة بالمعاني ·

افندرك الى اي مدى بلغ الرئيس السابق فرنجية من الخرق والبلادة والخسة حين التجأ الى التدخل السوري ؟ وأما ، وقد اصبح السوريون الان في لبنان ، فانه ينبغي لنا ان نرى ما اذا كانوا سيواصلون الطريق ويدعمون تقسيم لبنان حقيقة ، او يشجعون قيام دولة مارونية طائفية في داخل لبنان مفكك ، أو ما اذا كانت ستراودهم فكرة تحقيق تطلعاتهم وطموحاتهم فيما يتعلق بأراضي الشمال وشرق لبنان ، عنينا عكار

والبقاع ·

واما الاسرائيليون ، فانهم يشجعون مثل هذا المشروع لأنه يتيح لهم ان يضعوا يدهم على جزء من جنوب لبنان · وثمة هنا لعبة « تنح كي اجلس مكانك » تلعبها الطموحات المتضاربة · لكن جماع الامر يتعلق في النهاية بموقف الغرب لا سيما بموقف الولايات المتحدة · فعملية التفتيت هذه لن تكون يسيرة · افنصير ضربا من بولندة جديدة أو تشيكوسلوفاكيا جديدة ! **اني لا اعتقد ان السابقة القبرصية يمكن ان تتكرر بسهولة في لبنان** · فالسياق مختلف ، والعرب لن يسمحوا بموقف مشابه من جانب الولايات المتحدة · ولا يبدو الاميركيون حتى الساعة ، مؤيدين للتقسيم · لكن فلننتظر ـ على الرغم من هذا ـ حتى تتبين سياسة الرئيس الجديد كارتر كي نصدر حكمنا ·

وعلى اي حال ، فانه ليس في مصلحة اسرائيل ان تدفع لعبة تقسيم لبنان الى غايتها ، اذ انها توشك بذلك ان تضع السوريين على جزء مهم من الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية الحالية ·

وفي ذلك ، يكمن خطر قاتل حقا بالنسبة الى اسرائيل · ذلك ان من يقف في الناقورة أو شبعا لا يكون بعيدا عن المدن الاسرائيلية · واذا ، فاني اعتقد انه سيعاد طرح كل شيء على البحث ، ولن يكون مصيرنا كمصير بولندة · ومن شأن تفهم افضل للمشكلة اللبنانية ان يسهم في احداث موقف اكثر حزما من قبل الاتحاد السوفياتي · **فما يحيّر الاتحاد السوفياتي والملأ جميعا معه ، هو ان الرأي العام العربي قد عاد ، بعد معارضة شديدة منه للتدخل العسكري السوري ، فأساغه ان لم نقل انه صفق له** · فثمة كثير من المفارقات في هذا العالم العربي · ثم ان الاتحاد السوفياتي يعتقد ان الحزب الشيوعي اللبناني لا يزال اضعف من ان يطمح للسلطة · لكنه ـ اي الاتحاد السوفياتي ـ لا يدرك كفاية ، اهمية نمو الديموقراطية السياسية في لبنان ونتائجها المحتملة في العالم العربي · ولو ان الاتحاد السوفياتي تدخل تدخلا ايجابيا في النزاع اللبناني لأنهض وضعه السياسي في العالم العربي من كبوته بالكامل · لكن فلنتجاوز هذا ....

... ولست ادري ما اذا كان السوفيات ينظرون الى الفكر السياسي اللبناني نظرتنا نحن· فلبنان هو البلد العربي الوحيد ولا ريب ـ خارج افريقيا الشمالية ربما ـ الذي يوجد فيه فكر سياسي حقيقي، خصوصا على هامش الفكر الماركسي وفيما يتعداه· فهل ان الاتحاد السوفياتي يعتبر مثلنا ان التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي عجلت فيه احداث ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ سيحول المشكلة اللبنانية، ويدفع الامور نحو التقدمية على الرغم من القفزة الرجعية الحالية التي شاءت المفارقات ان يشجعها «تقدميو» سوريا وسواها؟ ونشاهد في هذه الآونة لدى الموارنة نوعا من التراجع في الدعاية الى التقسيم· لكن شعار الكانتونات والاستقلال الذاتي وتطبيق اللامركزية الادارية قد عرف طريقه· وستكون تلك مقدمة التقسيم·

دويلة الامر الواقع العازلة في جنوب لبنان· تمثل تشجيعا ظاهرا في هذا الاتجاه· ويدفع شمعون (بالاتفاق مع اسرائيل) في هذا الاتجاه بأكثر مما يفعل اي من رؤساء جبهة الكفور اللبنانية الاخرين· فبيار الجميل وكتائبه يبدون متعبين من المشاكل التي تطرحها ادارة كسروان وجبيل، بينما يظهر ان ابنه بشير يفكر ـ على الرغم من بعض الغموض ـ بصورة اخرى· غير ان رؤساء المارونية المتطرفة يجر بعضهم بعضا، وتحركهم في نهاية الامر المزايدات، الامر الذي يدفعهم نحو مزيد من التطرف· **ويتعلق الامر كله في الواقع بالولايات المتحدة وبما اذا كانت لا تزال تؤيد «بصدق» لبنان الواحد الكامل**· فالدويلة المارونية لا يمكن ان تقوم من دون موافقة الدولتين العظميين وربما موافقة كل الدول الكبرى:

اما الرئيس سركيس الذي يقف وسط هذه التجاذبات عاريا من جيشه، مجبرا على الاعتماد على قوات الردع العربية (السورية في غالبيتها) لا يستطيع لسوء الحظ ان يفعل شيئا كثيرا في الحالة الراهنة، اي بعدما سقطت الادارة والشرطة والعدالة والجيش في هذه الفوضى· وهو لا يبدو قلقا في الظاهر· لكن كيف يمكنه ان لا يكون كذلك؟ وعليه ان يتصرف الى تهيئة الوفاق الوطني لكي يصير مستقلا فعلا وفعالا حقا·

ولعلنا نصير بمثل اطمئنانه لو كان في وسعنا الركون الى بعض التصريحات السورية· لكننا لا نريد ان نتعلم مجددا على حسابنا من انه لا شيء مجاني في السياسة· ولماذا ترى كانت قطيعة السوريين ـ لو كانوا مترفعين غير مغرضين حقا ـ مع الحركة الوطنية واليسار اللبناني !؟

ونسأل من جهة اخرى، ترى الن يستيقظ الفينيقي لدى الانعزاليين؟ الن يفيق تاجر السجاد الشرقي، والحانوتيون وما هب من المتجرين ودب من العملاء الذين يبيعون ويشترون عبر عمليات مثلثة الجوانب من مكاتبهم في بيروت؟ افلن تعود روح المال والمربح فتتغلب على روح الصليبي؟ (ولا بد من تسجيل اشارة عابرة هنا الى ان الباعث الذي كان يحرك الصليبيين الذين جاؤوا الى لبنان في الماضي لم يكن المثل الاعلى الديني وحده، فقد كانت لهم اهداف ومقاصد دنيوية يأتي جمع المال والثروة في طليعتها)· افتكون لدينا نحن ردة فعل من هذا النوع؟ ان ذلك سيكون بالمناسبة «صحيا» تماما ولكني لا اعتقد ذلك، فلقد تلقى الانعزاليون الكثير من التشجيع من طرف دمشق، ولا بد لسوريا من فعل قوة لكي تقنعهم بأن يعودوا ادراجهم·

واي الامور سيكون؟ افيستمر حافظ الاسد في مشروعه· مشروع بناء سوريا الكبرى؟ اني لا ادري ولكن لبنان سيظل بالتأكيد كيانا غير سوي اللهم الأ اذا اعتاد اللبنانيون بالكامل على ذلك ولم يحولوه (كما فعلوا في الماضي) الى امة واحدة تقدمية وغير منقسمة· ولعل لبنان يقبل في النهاية

وكآخر الممكنات، بسوريا الطبيعية التي تقوم برضى الاهالي وتتحقق عبر احترام الديموقراطية. ولكن ذلك يفترض انه جرت قبل ذلك تسوية مشكلة الاستقرار والديموقراطية في دمشق. **فليس ثمة بين اللبنانيين من يفكر حاليا بأن يصير سوريا. وليس في وسع امرىء ان يرضى بدخول هذا السجن الكبير الذي يتكاثر فيه عملاء البوليس السري ليبلغوا وفقا لبعض التقارير الرقم الغريب الشاذ البالغ ٤٩ الفا.** وفوق ذلك فان لبنان لا يمكن ان يضم هكذا بكل بساطة. فلا بد ان يكون له نظامه الخاص او وضعه الخاص ذلك ان اللبنانيين اكتسبوا بمرور الزمان طباعا وروحا شخصية خاصة بهم، مختلفة عن طباع وروح السوريين. وبالمقابل فان كثيرا من السوريين يودون ان يكونوا لبنانيين ولقد كانت الامور دائما على هذا النحو عبر التاريخ: فقد كان لبنان يمنح نظاما خاصا ووضعا خاصا في اطار سوريا العثمانية. ولقد سلف ان قلت انه يبدو ان لبنان لعب دور بروسيا، ازاء سوريا الطبيعية. ربما لأنه كان العنصر الاكثر دينامية. وهكذا فقد حقق امير لبنان (او جبل الدروز) فخر الدين الثاني وحدة سوريا تحت صولجانه. وقد كانت هذه الدينامية اكثر ظهورا قبل عام ١٥٨٥، اي قبل العام الذي شهد المجزرة الكبرى التي ارتكبها والي مصر ابراهيم باشا وذهب ضحيتها ٦٠،٠٠٠ درزي.

ومن هنا، كان انكفاء دور الدروز في لبنان برغم انهم كانوا رواد استقلاله الحقيقيين. ولقد ساعد والي دمشق احمد الحافظ، والي مصر في دور الجزار الذي قام به.

ويشاء التاريخ من جهة اخرى ان تقود اللبنانيين، واقعة كونهم عاشوا منفصلين عن سوريا منذ ستين سنة - بل واكثر من مئة سنة اذا ما عدنا الى عام ١٨٦٤ - لأن يهتموا الآن ببلادهم بأكثر من اهتمامهم بالاندماج مع دولة مجاورة.

وقد نشأ مع مرور الايام رابط جماعي لا شعوري جعل ويجعل الناس يستشفون ويلمحون امكانية قيام شعب لبناني موحد تتجاوز فيه الطائفية السياسية وتلغى.

ولكنها خطيئة الانعزاليين في تقوقعهم وعماهتم. وستتطور الديموقراطية في الاطار الذي تنشئه الاحزاب والرأي العام. ويتبع عن ذلك وينتج عنه دعم عظيم - ليس للوحدة اللبنانية وحسب - بل وللبنية اللبنانية نفسها، وللاستقلال اللبناني، وللرباط الذي يصل بين المواطن وبين هذا الوطن الصغير.

وسيخرج اللبنانيون عبر الاصلاحات التي ننادي بها وهم اكثر تعقلا ولا ريب واشد لحمة واتحادا.

لكن هل يدعنا السوريون ننفذها، او يساعدوننا على تحقيقها؟ لقد وثبوا حتى الآن على حرية الصحافة، وتلك بادرة مشؤومة، ولكني اراهن على انه

لا بد لهم من العودة ادراجهم. فاذا ما ادخلت هذه الاصلاحات.. وقبل ذلك اذا ما نحونا بأنفسنا و«سلمنا بجلدنا» وانقذنا الديموقراطية واقنعنا التقليديين بتغيير افكارهم الخاطئة والتجرد من تخفيهم المضحك ومن مفارقاتهم وبؤسهم، فان ذلك سيكون هو النصر السياسي حتى ولو اقتضى ذلك منا ان ننتظر خمس سنوات او عشر.

اما اذا حافظت سوريا على مواقعها، فانه سيكون من العسير علينا ان ننجز ادنى اصلاح اساسي يمكن ان يشبه من قريب او من بعيد بدايات اصلاح جذري حقيقي. **ولا بد لنا من ان نتساءل بعد سقوط النبعة واحتلال المتن الاعلى وصنين وامام الانتشار الحالي للقوات السورية في مختلف ارجاء البلاد (باستثناء جنوب لبنان) عما اذا كان الاصلاح لا يزال ممكنا.**

ان الثورة المضادة ستنحل تدريجيا او تقضى. واعتقادي ان الاشهر المقبلة ستكون حاسمة وسنرى ما اذا كان تجدد شباب البلاد سيفرض نفسه على الجميع او اذا كانت الافكار القديمة ستظل هي السائدة.

والصراع الخفي العنيف الذي يخوضه الناس الشرفاء ضد المركنتيلية (التجارية) والاتجارية السياسية سيستمر، حتى لو ظل في المقام الثاني نتيجة لوجود السوريين وبسبب انه لا بد من التفكير بالاستقلال اولا والمعركة السياسية والعسكرية الناشبة منذ سنتين قد وسعت من حقل الوعي السياسي. وانما هو العمل العسكري - واعيد ذلك واكرره - الذي شنته سوريا علينا في تشرين الثاني ١٩٧٦، هو من شجع الموارنة المتطرفين على متابعة خططهم، وشجع اسرائيل على التدخل بصورة مباشرة وغير مباشرة في لبنان.

غير ان شعوبا كثيرة عرفت ما عرفنا. فاذا ما تمكن الفكر الذي يقود الوحدة من الانتصار، واذا ما ظلت الكلمة الاخيرة في سياسة هذا البلد من نصيب الذين ناضلوا من اجل هذه الوحدة، فعند ذاك يجري هنا ما جرى في غير مكان، تنتصر الثورة طال الوقت ام قصر.

المغامرة كانت تستحق العناء

في هذا الفصل يرد الشهيد كمال جنبلاط على اسئلة متنوعة طرحها عليه الصحافي الفرنسي فيليب لابوستيرل .
وهذه الاسئلة تتناول قضايا ونقاطا محددة لم يتطرق اليها المؤلف في الفصول الخمسة السابقة من المذكرات .

- يخرج لبنان الآن من سنتين من الحرب. فما هي بالنسبه اليكم نتائج ذلك؟

● كمال جنبلاط: اني لأسائل نفسي عما اذا كان لبنان قد خرج حقا من سنتي الازمة العنيفة الحادة هاتين. فالناس لم تعد الى بيوتها واعني هنا المهجرين من كلا الجانبين، وثمة ضرب من الجدار المعنوي او النفسي الذي لا يزال يفصل الطوائف ويعيق كل عمليات العودة.

ما الذي تغير؟ هنا ينبغي للمرء في اعتقادي ان يكون بالغ التحفظ، اذ يبدو ان الهدف الرئيسي للتدخل السوري كان الحفاظ على نوع من «الوضع القائم» في لبنان على صعيد المؤسسات السياسية والاقتصادية. لكن افتراهم مكتفين بذلك ولا يهدفون في النهاية الى ممارسة ضرب من الانتداب السياسي على لبنان؟ في هذا المنظور لن يكون ثمة . بطبيعة الحال، اي تغير وسندخل اكثر فأكثر في «عالم صمت» العرب، وستكبح حرياتنا الى هذا الحد او ذاك، لأن السياسة في المنطقة - ان في سوريا او في سواها - تقوم على اسكات الرأي العام.

وهنا يطرح موضوع الديموقراطية. فالى اي حد سيحافظ عليها؟ وما هي العقبات والقيود التي ستلحق بممارستها؟ وما هي التحديدات والضوابط التي سيجري التصويت عليها «شرعيا»، او التي ستفرض فرضا؟ ان معركة حرية الصحافة الحالية ستظهر لنا في اي اتجاه سيكون تطور الامور.

ذلك انه حتى اولئك المغتبطون من الجانب الانعزالي لن يكونوا بمنأى - كما اظن - عن اجراءات شبيهة بتلك التي طالتنا، **فحرية كل بلد هي واحدة لا تتجزأ.** ثم أولن تؤدي هذه الانتهاكات للحرية باللبنانيين الى التمرد؟ ان ذلك يظل طبعا في نطاق التخمين. فالناس لا يزالون حاليا منهكين من سنتي الصراع، ودمشق تنتهز ذلك وتستفيد منه لارساء نفوذها في لبنان.

ولعل السوريين يخشون اندلاع حرية الصحافة - التي يطالب بها الرأي العام السوري الان - ودخولها الى سوريا... ويقينا ان المسألة التي سوف تطرح بعد حرية الصحافة هي مسألة حرية الاحزاب. افتترك الدول الاجنبية، اي اوروبا والولايات المتحدة حافظ الاسد حر اليدين؟

تلك مشاكل لن تكون يسيرة الحل ولا يمكن توقع ما ستؤول اليه منذ الان. وعلى كل حال، فان فرض الرقابة في لبنان يبرهن على وقوع نظام دمشق في ازمة. فقد بات القوم يخشون ان يكون للامثولة اللبنانية تلاميذها في الجانب الاخر من جانبي جدار الصمت.

ولا بد لهذا الصمت المفروض من ان يساعد كذلك في الاعداد لجنيف وذلك باجبار الفلسطينيين ايضا على الصمت واكراههم معنويا على

الاذعان والامتثال. **وماذا سيكون موقف الرئيس سركيس؟** هل تراه سيذعن ويقبل بهذه الاضراب من الانقلابات الصغيرة المتتالية والهادفة الى تسوية الحساب مع الديموقراطية اللبنانية؟ وانا اعرف الرئيس سركيس وهو ديموقراطي. افيكون قدره والحالة هذه قدر «بينيس» في تشيكوسلوفاكيا؟ اني لا ادري ولكن ما ادريه هو ان شعب بلادي متمسك بالحرية وسيتشبث بها. والجامعة العربية الوصية - نظريا - على قوات التدخل العربية، هل تراها ستعرف كيف توقف مطامح سوريا الفيدرالية؟ ان الوقت لا يزال مبكرا لنقول ماذا سيكون عليه نظامنا ووضعنا السياسي. لكنه سيتغير بالتأكيد وفقا لمبادىء النص الدستوري الشهير الذي سمي خطا او صوابا « برسالة » الرئيس فرنجية « الدستورية » . ولكن ماذا سيكون دور الاحزاب في هذا المنظور ؟ كل هذا لا يزال قيد الجدل والمساومة .

- فلماذا كان الخمسون الف قتيل والمئة الف جريح في لبنان ؟

● كمال جنبلاط : لقد سقطوا ليتيحوا للسوريين المجيء ليقولوا «اوقفوا المعركة». لقد سقطوا ليبرروا فرض دمشق لنفوذها على لبنان بتنظيمها الصاعقة وتوسيعها شبكة مخابراتها عبر طول البلاد وعرضها. وربما لكي تفرض فيما بعد معاهدة امن متبادل. اننا لا نعرف نوايا النظام السوري الحالية بالتحديد، ولكننا تعلمنا انه لا يغير خطه الا نادرا.

ولا اخفي عليك اننا لجأنا الى القاهرة وطلبنا الى الرئيس السادات ان يباشر مفاوضات صريحة مع الرئيس الاسد حول موضوع لبنان واعتقادي ان الرئيس سركيس افرط في الثقة بنوايا السوريين «الحسنة».

- ثمة امثلة قليلة في التاريخ يمكن اعطاؤها حول حصول حركة ثورية على فرصة ممارسة السلطة على جزء من التراب الوطني. ولقد امسكتم بمقاليد السلطة قرابة عامين في صيدا واكثر من عام في طرابلس ونحو من ستة اشهر في جزء من بيروت. والمشكلة هي انكم لم تفعلوا شيئا يذكر في الاقليم الذي كنتم تسيطرون عليه.

● هذا صحيح. ولقد كان من العسير فعل اي شيء عبر فوضى المنظمات والاحزاب. غير اننا كنا في بادىء الامر ننتظر ان تتوقف هذه الحرب اللاعقلانية وان نحصل على السلام وان نتمكن من الوصول الى تسوية. **كان يعوزنا السلاح وكان الفلسطينيون ينظرون شزرا الى استقلالنا العسكري.** بينما كان السوريون يطاردوننا. ثم انه كان لا بد من الحصول على موافقة ثلاثة عشر حزبا لاتخاذ ادنى قرار ذي اهمية. وفوق ذلك، تأخرنا قصدا في انشاء ادارة محلية لكي لا نشجع الفريق الاخر على احتذائنا فنثير بذلك مناخا تقسيميا. لم نكن نريد اتباع مثال الفيتنامين. فالسياق هنا بالغ الاختلاف. اما بصدد الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية

(الاصلاح الزراعي وتوزيع الاراضي والمساكن) فاني كنت انا نفسي من انصار الشروع فيها لكن احزاب اليسار الاخرى كانت تعارضها.

ومع هذا فان رأيي كان انه لا بد من المخاطرة ولكنهم لم يتابعوني. واذا فاننا لم نفعل شيئا يذكر. وقد بدأنا بالكاد في النهاية بتنظيم بدايات ادارة وبوليس وعدالة. وقد كنا عمليين (برغماتيين)، فعلى كل يوم ان يكتفي بمشقته وكل اسبوع بجهده وكل شهر بمخططه. **واعترف انني كنت كسولا فيما يخص هذا الموضوع وقد كنا جميعا متعبين نفسانيا** وجسديا. ومن ثم - وفوق كل شيء - فانه كان لا بد من انقاذ وحدة البلاد كما سبق وقلت.

- غير انه لا بد من رؤية الاشياء كما هي. فلسوف تسمعون الناس في خلال ثلاثين سنة يقولون لكم: لقد رأيناكم يوم كنتم في السلطة...

● ربما. ولكني سأعود واكرر القول مرة اخرى بأن وحدة البلاد وسلامة اراضيها كانتا مقدمة لكل شيء. قد كان ذلك بالنسبة الينا رهانا اهم من الحكم او من تحقيق اصلاحات هي ولا ريب اصلاحات مؤقتة. ولا تنسى ان معركتنا كانت الحفاظ على هذه الوحدة وتطبيق الاصلاحات الديموقراطية وصون الحركة الفلسطينية. فاذا كنا بلغنا هذه الاهداف الثلاثة، فاني اعتبر اننا نجحنا بالنسبة الى الخطة الراهنة وذلك على الرغم من المؤامرة الاسرائيلية - الاميركية، ومناحرة سوريا وما اسميه بخيانة التقدميات. ونحن ليس لدينا صين ولا اتحاد سوفياتي في جوارنا ولسنا فيتنام. ولا تنسى من الجهة الاخرى انه بخلاف الثلاثة عشر تنظيما وفصيلا الذين يؤلفون الحركة الوطنية، فانه كان لا بد لنا كذلك من ان نأخذ في حسابنا كل من هناك من يساريين، ثم لا سيما العشر منظمات الفلسطينية، التي تعيش في غالبيتها على هامش القانون. وصدقني انه لم تكن تعوزنا الكوادر في داخل الحزب التقدمي الاشتراكي ولا ريب في انه كان ينبغي علينا ان ندعم موقفنا داخل تنظيم الحركة الوطنية ولكنا كنا خجولين في المطالبة بذلك.

- كان لافونتين يقول:

وطالما الامر الى المذاكرة
عج البلاط بأهيل المشورة

وعندما يقترب التنفيذ
يغيب عن عينيك من تريد

وقد لفتت الحركة الوطنية الانظار باجتماعاتها التي تطول خمس وست وسبع ساعات كل يوم، من دون ان نرى حصيلة تنفيذية لذلك كله. فكيف يمكن تفسير هذه الهوة القائمة بين عدد الاجتماعات وقلة الاشياء التي تم تحقيقها؟

● في الشرق، تكون الثرثرة هي اول من يسود في الاجتماعات لحين من الزمان. **فلا بد من «اعطاء الشيطان نصيبه» كما يقال.** ولن يطول بنا الزمن حتى ندرك انه لا يجوز الكلام بهذا المقدار. واعتقادي هو اننا بدأنا نفهم ذلك. فاما ان يدفعنا الوقت واما ان ندفعه. وكان ثمة مجلس مفوضين تنفيذيين على وشك التعيين. الا ان مأساة الاحتلال اجبرتنا على تأجيل وضعه موضع التنفيذ. واما هم، عنيت اناس الجهة الاخرى، فانهم لا يزالون يواصلون الكلام...

ومرة اخرى اقول اننا كنا ثلاثة عشر في تجمع الاحزاب وكان ينبغي لنا مراعاة كثير من التيارات والتذبذبات والقوى العربية التي تقف خلفها...

وقد عانينا كثيرا من الصعوبات في بيروت خصوصا ظهور الشخصيات التقليدية وكذلك مع ظهور النزعات المتنافرة في جيش لبنان العربي. ويرى كثير من الناس انه من الصعب السير نحو الاشتراكية من دون اعتراضات ومقاومة.

وكان لا بد كذلك من رصد الثورة المضادة التي كانت تستند الى عملاء الجبهة الانعزالية في صفوفنا والى التجمع الاسلامي في بيروت والى جبهة السيد صائب سلام والى التباينات داخل جيش لبنان العربي الصغير.

وحول هذا كله كان يتنظم العمل الماكر الذي تقوم به المخابرات الاميركية والاسرائيلية والسورية الخ... وقد كانت هذه المخابرات مجتمعة، متفقة على ابعادنا عن الممارسة الفعالة للسلطة وعلى جعل حياتنا مستحيلة. وكان ثمة شائبة اساسية في تجمع الاحزاب هذا مرده خصومات الاحزاب وتنافسها المستتر بل وصراعاتها التناحرية في بعض الاحيان.

- انتم رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي الذي الف بعد بضعة اشهر من الصراع بالاشتراك مع احزاب اخرى، الحركة الوطنية. لماذا تلافيتم عندما عمدتموها بهذا الاسم استخدام مصطلحات تقدمية او ثورية؟

● نحن الذين اخترنا تسميتها على هذا النحو. وقد تلافينا الكلمات التي كان من شأنها ان تصدم قسما من الرأي العام في لبنان وفي العالم العربي بدون جدوى. ثم ان المصطلح الثوري قد كثر الاسفاف في استخدامه في المنطقة. وبوسع المرء ان يكون ثوريا من دون ان يعلن ذلك. وكذلك فان تطورا حسنا مناسبا خير من ثورة لا سيما عندما يكون الموضوع هو موضوع الحفاظ على حقوق وحريات الانسان. والبرنامج السياسي للنظام الديموقراطي الجديد الذي نقترحه يربطنا ويوحدنا. ثم يأتي بعد ذلك برنامج اقتصادي واجتماعي وثقافي. وهذه الصنيعة هي ضرب من الانتقال او من الحد الوسط او من الاعداد لجبهة حقيقية.

كان لا بد من توحيد البادرة السياسية اللبنانية، ومن توحيد العمليات العسكرية بقدر الامكان، واتخاذ بعض المزيد من الاستقلال ازاء الثورة الفلسطينية التي يمكن ان تتضايق احيانا من موقفنا او ان تقودنا الى ضرب من فوضى المنظمات. فلا بد من الاستقلالية من اجل تحقيق الاصلاحات. وزرع اوتاد ثورة حقيقية. ومن شأن اهدافنا السياسية الا تتفق دائما مع اهداف الفلسطينيين. فقد تكون الفوضى بالنسبة الى الفلسطينيين اكثر افادة في بعض الاحيان من التنظيم. وفوق ذلك. فان لديهم فكرة خاطئة عن الانظمة التقدمية المزعومة في الشرق العربي. **وما يهمهم اولا هو حماية الثورة الفلسطينية**. لقد خسروا تل الزعتر ولا يزال السوريون يلاحقونهم وينهكونهم. والمهم بالنسبة اليهم الان هو ان يصبروا ويقاوموا مقاومة سلبية وان يمتثلوا ويتنظموا. اما المهم بالنسبة الينا. فهو كسب الوقت والعمل «كالخلد». فالنظام الاسدي عنيد وعقابه صارم. وواقعيته شيء لا يستهان به. لكن ربما بزغت اوقات افضل من هذه. واحداث مصر بالغة الدلالة بهذا الصدد. كما ان الرئيس الاسد يبدو لنا اكثر تفهما في الاونة الحالية.

- لو قدر لي ان احدد واعرف موقفكم في هذه الازمة لكنت اميل الى تسميتكم «موجه المقاومة الفلسطينية المستور» بدلا من «رئيس الحركة الوطنية اللبنانية».

● هذا صحيح. فنحن الذين صغنا البرنامج السياسي المشترك بين اليسار اللبناني وبين منظمة التحرير الفلسطينية - اي انا شخصيا والحزب التقدمي الاشتراكي - وذلك لمحاولة شد اللبنانيين وتحريكهم. بحيث يمكن لهذه الحرب الدموية ان تؤتي بعض الثمار الايجابية على الاقل.

وكان لا بد من طرح مشكلة التناحر بين اللبنانيين تلافيا لطرحها بين اللبنانيين والفلسطينيين.

ولقد ناضلنا من اجل ان نفرض وجهة نظرنا على بعض الاحزاب بغية الاسراع في تحديد هدف سياسي للجماهير اللبنانية. ولأن المشكلة الجوهرية كانت حقيقة هي مشكلة النزاع الاجتماعي بين اللبنانيين من اصحاب الامتيازات واللبنانيين الذين لا يملكونها شأن البيض والسود في روديسيا.

ولقد ضحى اللبنانيون كثيرا. فكان من غير المقبول ان تكون تضحيتهم محض خسارة. غير اننا لاحظنا منذ البداية الصعوبات التي يثيرها وجود السوريين امام تحقيق برنامجنا. اضف الى ذلك « الانوات » او الانانيات المضطرمة والبؤس والطموحات الصغيرة المنفلتة من عقالها. **فالسياسة عمل بالغ القذارة**. والذين كانوا يظهرون لنا التعاطف في تلك الحقبة ظلوا متحفظين وغير متفهمين. فما كانوا راغبين في ان يزعجهم اي مزعج وان ينعطف بهم احد عن حربهم الدعائية اللفظية الداعية الى تكسير كل

شيء ضد مصر السادات واتفاقية سيناء. وفي سوريا كما في بلدان عربية اخرى. لم يكن ثمة احد بين القادة يهتم بنا وبديموقراطيتنا حقيقة. فالسوريون مثلا. ما كانوا يريدون الاهتمام بغير الجولان.

وفي لبنان، لم يكن المسيحيون الانعزاليون يريدون التراجع عن الامتيازات الطائفية والسياسية. بل راحوا يقدمون للمسلمين نظاما علمانيا للدولة. يعرفون ان غالبية هؤلاء العظمى تأباه. انها لعبة «غميضاء». وحتى رئيس سوريا التقدمي راح يرعد ويندد علنا بالعلمانية السياسية. وكانت بعض احزاب اليسار وفصائله من كل نوع تفقد رشدها وتدعو الى الصراع الطبقي في بلد لا يكاد عماله الصناعيون يبلغون ٧٠ الفا. منهم قسم مهم يقاتل ضدنا. ذلك ان «البرجزة» على الطريقة الاميركية قد انتشرت هنا في مختلف الطبقات.

وكانت الايديولوجيات تلعب دور الحجاب الكثيف الذي يقف دون ملكة التمييز لدى غالبية المثقفين ولدى الكثير من رجال الاحزاب.

ثم كانت هناك تلك اللعنة او الحرم الدائم الذي طرحته علينا بعض الحكومات العربية بسبب المركز الظاهر الذي اكتسبه الشيوعيون في المجلس المركزي للاحزاب. وبين خليط الفصائل السياسية من كل نوع. فاما اللبنانيون فان كيل غالبيتهم العظمى كان طافحا بهذا الصراع بسبب ما اثاره من تصرفات لا اخلاقية واجرامية. بل وبربرية.

وفي هذه الحمأة القذرة من الضراوة واللصوصية الدموية (التي هي الوجه الحقيقي لهذه المدنية الغربية في مرحلة تطورها الاقتصادي والاجتماعي الثالثة) كان لا بد لنا من ان ندافع عن انفسنا. وان نقاتل - في ان معا - من اجل مثل اعلى. في حين انا كنا ضجرين مشوشين. بل وخجلين من تلك التصرفات القذرة التي كانت تجري على هامش كفاحنا وباسمه... وفي حين انه كان من الطبيعي والعفوي ذاته ان نتأثر بعمق ازاء مصير اولئك الذين يموتون كل يوم يحصدهم القصف الكثيف حصدا. **وكل ذلك دفاعا عن الديموقراطية التي لا يبدو ان ثمة احدا يهتم بها هنا. حتى بين الامم التي ساعدتنا. وانا لا زلت وسأظل، شأن رفاقي ديموقراطيا.** كان وجه الثورات الفظ قد نهض فجأة ليقف بين ناظري الانتليجنسيا اللبنانية وبين الحلم الثوري الذي طالما دغدغته قبلا. فالشباب جميعا واليساريون جميعا في لبنان كانوا يحلمون بالثورة. كما كانت الاحزاب والفصائل تتنافس حول من سيستخدم كلمة « ثورة وثوري » بأكثر من مرة في قاموسه وحتى في اللباس كان يجب الظهور بمظهر الثوري. الشعر الاشعث والجاكيت الخاصة والتجرد من رباط العنق. ثم وخصوصا. تعهد عدم النظافة. وكأن الاحداث من اصحاب القمصان السود والقمصان

المذهبة يقبلون على هذه اللعبة تقلدا وادعاء· فاه لو ان ماركس الشيخ او لينين رأيانا·

ومع هذا، على الرغم من هذا كله، فان الاساس والجوهر يبقى جديا وصادقا ومؤثرا حقا·

- في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ وابان اول وقف اطلاق نار حقيقي، بدا ان النظام استتب الى هذا الحد او ذاك· وما اعاد الامور سيرتها السابقة هو انشاء جيش لبنان العربي من جهة والهجوم على قرى جبل لبنان من الجهة الاخرى· ونحن نعلم موقفكم انتم - تضييق الخناق على من تسميهم بالانعزاليين ودفعهم الى الاستسلام - الا اننا لا نفهم موقف ياسر عرفات الذي كان يعلم ان معنى ذلك بالنسبة اليه هو فقدان الدعم السوري·

● لنعد اذا ما اردت لحظة الى الوراء، ان اول هدنة في عام ١٩٧٥، قد افسدتها الصاعقة بعد تشكيل حكومة كرامي·

كان السوريون يحاولون استبعاد تحكيم سفراء مصر والكويت والعربية السعودية ليبقوا وحدهم في الميدان ويفرضوا حلهم·

بعد هذا يبقى ان نقول، ان الجيش الصغير، جيش لبنان العربي، قد نشأ بصورة عفوية وقد حدث ان عنت للفلسطينيين وحلفائهم فكرة منكودة هي فكرة الاستيلاء على سرايا حاصبيا· وقد استفاد من هذه المناسبة الملازم اول الخطيب - وهو ضابط وطني شاب يمتلك بعض الحس السياسي ويشعر بأن قيادة الاركان اللبنانية تسيء معاملته بسبب افكاره - فتمرد وراح يطالب بقوة بتحييد الجيش في النزاع ثم بدأت الثكنات تتساقط الواحدة بعد الاخرى، ان بصورة عفوية وان تحت ضغط يد غير منظورة - ويقال بالفعل ان بعض الفلسطينيين والفصائل غير المسؤولة قد اطلقت هذه الحركة· وكان الملازم الشاب قد اتصل بنا قبل ذلك بواسطة ابيه وابن عمه زاهر الخطيب وطوال بضعة اشهر، فحاولنا ردعه عن الانطلاق في هذه المغامرة العقيمة، ثم بعد ذلك لكي نكبح مسلسل التمردات التي قام بها جنود وصف ضباط الجيش·

غير ان نوعا من الديموقراطية العسكرية والاجتماعية بدأ يتجسد واتسعت الحركة· وكان الناس يلعبون بالنار من دون ان يدروا·

وكنا حتى ذاك نحافظ على وحدة الجيش اللبناني وهو امر حسن لأن الجيش يستطيع ان يلعب دورا مهما في الحفاظ على النظام، عندما تتوقف الحوادث او حين يقبل الملأ كله بحل سياسي· وبذلك ما كنا لنعرف الايام العجاف التي نعيشها الآن ...

- ومع هذا فان احمد الخطيب هو واحد من رهطكم...

● كلا· انه فقط ابن عم النائب الاشتراكي زاهر الخطيب· وقد اتصل بي

هذا الاخير مع والد الملازم عدة مرات ليسألني، «هل ينبغي لأحمد ان يترك الجيش؟» وكنت اجيبهم دائما، «كلا· بل الافضل ان يبقى داخل الجيش، والنضال من داخله خير دائما من النضال من خارجه. ومن الافضل الا يتفكك الجيش»· ولقد ثابرت على هذه السيرة ابدا· فأنا لم اكن استطيع تصور مستقبل جيش صغير متمرد يقوده ضباط غير مؤهلين دائما· ويقينا ان تلك المغامرة لم تكن تشبه مغامرة البارجة بوتمكين بشيء...

وفي الآونات الأولى، شجعنا السوريون على ابقاء الجيش سليما· ولم يلمحوا الينا الا بعد ذلك، اي الا بعدما بات الجيش على حافة التفتت. لكي نستدعي الضباط وصفوف الضباط والجنود لنؤطر ميليشياتنا بهم، شأن ما كان الجانب الاخر قد فعل قبل ذلك· ولكن بعد ان تفكك الجيش بسبب مسيرة قائده الطائفية الفوضوية العمياء، وبعدما انفصل الخطيب ورفاقه عنه، فانه اصبح من الطبيعي بالنسبة الينا ان ندعم الرمز الذي يمثله جيشه الصغير، عنيت لبنان العربي·

اما بالنسبة الى معركة الجبل وأبو عمار، فان الذي الهمه بالحملة في الحقيقة هو ضرورة اخذ الانعزاليين من الخلف وفي عقر دارهم، وعبر معارك اقل كلفة بكثير من تلك التي كانت قائمة في بيروت·

ولما كنت اعرف تاريخ بلادي وجغرافيتها جيدا، فاني كنت انا المحرض على هذه الحملة التي تهدف الى تقصير امد الحرب· فقد كانت اهدافنا تبدو على وشك التحقيق في خلال اسبوعين·

ولهذا فان الجماعة الانعزالية اسرعت - وقد اخذتها المفاجأة - بابلاغنا موافقتها على مختلف نقاط برنامجنا لاصلاح النظام السياسي تقريبا· وكنا ننتظر الاستسلام والسلام في ريفون او في بيت مري· ولكن السوريين كانوا يرون الامور بصورة مختلفة· فقد كانوا يريدون مواصلة مساومتهم وتحكيمهم بأي ثمن كان· كانت مسألة مصالح ضيقة ومهابة ونفوذ· ثم جاء دور الجيش السوري ليتقدم في شتورا وزحلة والمديرج وصوفر وعيون السيمان وعكار ويتدخل عسكريا بهدف الاحاطة بنا· انها بادرة «محبة» جميلة من طرف من ينظرون الى مجريات معركة الديوك الدامية من دون ان يرف لهم جفن...

- لكن ابو عمار كان على علم كامل بالمجازفة التي يقوم بها...

● اعلم ذلك· ولكن لم نحسب المجازفة بدقة· كنا نعتمد على اوروبا والولايات المتحدة وفرنسا وعلى العرب وعلى السوريين انفسهم لمنع الرئيس الاسد من ان يصك عقبيه ويرسل الينا بجيشه· ولم نعتقد بوجود خطر تدخل عسكري، ربما لأننا لم نكن على علم تام بالعلاقات القائمة بين واشنطن ودمشق ولا بضغوطات واشنطن على

اسرائيل ولم نكن نعلم ان الميثاق الشيطاني قد ابرم. كان ذلك خطأ فادحا في التقدير. لكن لا بأس... فانا لسنا نادمين. اولا لأننا عرينا السياسة السورية وكشفنا خطط الحكومات ذات الشعارات القومية، التقدمية المتشدقة. ولأننا استنهضنا حركة ربما كانت مستحيلة الالغاء والازالة من العالم العربي بعدما وسمت تطوره بوسمها الدائم. واملي ان نشهد قريبا وفي كل مكان عودة الى المؤسسات الديموقراطية التي يطالب بها الرأي العام.

لقد كنا الاضحية المقدمة على مذبح مصالح الولايات المتحدة واسرائيل. وقد استخدمت بعض الدول العربية كأكباش فداء في انجاز هذا الطقس غير المجدي.

ونحن نتلقى الآن نتائج انفلات عقال اليمين - المدعوم من قبل نظام البعث السوري التقدمي - لكن الحركة الاصلاحية الوطنية اليسارية، سترتسم بعد ذلك على نحو يفوق في قوته ما كانت عليه في الماضي فالقضية بالنسبة الينا هي قضية تحويل فشلنا الى انتصار عتيد.

- ما وراء هذا المقدار من الصعوبة في دخول الديموقراطية الى بلد عربي.
هل ثمة عوائق خاصة؟

● كلا ، ففي الماضي عرفت بعض البلدان العربية انظمة برلمانية وكانت هذه الأنظمة بالاجمال تعمل في خط الديموقراطيات الاوروبية وعلى غرارها . ولكن انشاء دولة اسرائيل في العام ١٩٤٨ وفشل الجيوش العربية امام الواقعة الاسرائيلية ، اطلق سلسلة كاملة من الانقلابات والثورات في العالم العربي .

ويقينا ان ما يتيح بقاء بعض الانظمة الفرانكوية النهج والمدعية المتقدمية، هو رعاية الدول العظمى لها. ولكني لا اعتقد انها - بالطريقة التي تدير شؤونها بها - سوف تعمر طويلا. **ولذا، فانه ستحصل تغييرات قبل جنيف او بعد جنيف،** وقد يكون لا بد من وسيط حافز ما، لبعث حركة في العالم العربي تتجه نحو شكل ما من اشكال الديموقراطية. وقد سلف ان ساد ابان حقبة الخلافة العباسية مناخ من الحرية الكاملة في الامبراطورية العربية لمدة تناهز القرنين ومن ثم، ولا ادري لماذا، اسدل الستار عليه.

وبالاجمال فاني لست متشائما بالنسبة الى المستقبل، ذلك ان الاتجاه نحو الديموقراطية بدأ يعم مختلف الانظمة في كل مكان في العالم تقريبا. فلا بد للانتلجنسيا في النهاية من ان تسترد حقوقها، وحقوقها هي اولا حرية الرأي علمية كانت ام سياسية. واعتقد ان العالم العربي لن يفلت من مقتضى التطور هذا وعلى سوريا ان تماشي التيار.

ألم يكن في وسع فرنسا ان تلعب دورا مهما في تسوية النزاع ؟ لقد عرضت تدخلها ، فرفض عرضها ، ولكن السيد اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر (السابق) زار بعد ذلك باريس كما زرتموها انتم كذلك . ويخالج المرء انطباع بأنه كان في وسعها عمل شيء ما . ومع هذا فان الامر كله حسم في النهاية في مؤتمر الرياض ...

● ان فرنسا لم تعرف ان تلج الى الازمة اللبنانية في اللحظة المواتية . ولم يواتها الصبر فتنتظر كي تلعب الدور الذي كان يجب ان يكون دورها والذي كان سيجعلها تحظى بكل تعاطف . لقد اخلفت فرنسا الجيسكاردية الميعاد . فهي لم تعد فرنسا بومبيدو ولا فرنسا الجنرال ديغول ، فالولايات المتحدة وراءها . وقد بدا بصورة مرئية ، وعلى امتداد القضية اللبنانية الحالية ، انها فقدت طابع سياستها المستقل ان في اوروبا وان في الشرق الاوسط . فالاصلاحيون او بالاحرى التقنوقراطيون ليسوا رجال دولة دائما . فرجل السياسة يتخذ قراره بالنسبة الى هدف فعله وتصرفه . اما التقنوقراطي ، فيهتم على وجه الخصوص بكيفية هذا الفعل . **وقد ظلت باريس مبهمة غامضة في خياراتها ، وهذا امر يؤسف له لأن لفرنسا** - فيما يتعدى مصالحها الاقتصادية - مركزا سياسيا في اوروبا وفي العالم ينبغي لها الدفاع عنه والحفاظ عليه . فالسياسة اولا هي الغائيات والمبادىء ، وليست ادارة شركة تأمين او تسييرها . اما « الجنرال » فانه كان يرى بوضوح . لكن الفرنسيين اغتنوا كثيرا (وعلى الطريقة الاميركية على الرغم من ان هذه الطريقة لم تنزل منزلة حسنة في باريس) ، فنحن نعيش الان في ملكوت البرجوازي المتوسط الذي يبدو انه صار لا يهتم بالاخرين ....

- ربما انه لم يعد لفرنسا اليوم الوسائل التي تتيح لها الاهتمام بالاخرين ؟

● اعتقد ان بلى . فثمة بلدان تواصل لعب دور في العالم ، مع انها تملك وسائل اقل مما تملك فرنسا . ويتجه تفكيري نحو مثال يوغوسلافيا ومصر الناصرية وهند السيدة غاندي ونهرو ونحو ايران الخ .... فثمة هنا وهناك بلدان صغيرة لا تزال تجرؤ على الاناخة بثقلها على الاحداث لأنها تعرف ان تتأول وتتمثل مراكزها ومواقعها الجيوسياسية او سيطرتها الثقافية . فليس كل شيء اقتصادا . ولبنان الموحد « الموطن » المندمج في تاريخه ، العائد الى العروبة والى ثقافته ، والمصمم على تنمية هذه الثقافة في اتجاه انساني يستطيع ان يلعب دور التوجيه هذا .

ولقد ظننت بعد رحلتي الى باريس ، ان فرنسا سترسل وفد صداقة الى لبنان او حتى بفرق عسكرية تشترك مع وحدات مصرية وفقا لفكرة الرئيس السادات . ولست ادري لماذا لم تفعل فرنسا في النهاية اي شيء ؟ ربما كان مرد ذلك بعض الضغوط الاميركية ، او ربما لأنها مستغرقة في مشاكلها الداخلية وفي مشاكلها مع اوروبا او ربما لأنها صارت غير ديغولية ولا تريد الحفاظ على هذه السمة التاريخية الثابتة ، او هذه العلاقة المميزة

التي تربطها بلبنان وبالشرق الاوسط · ويقينا انه لا يزال في وسع فرنسا ان تظل - على الرغم من هذا - حاضرة هنا · والبرقية التي وجهها السيد دو غيرينغو وزير خارجية فرنسا الى ريمون اده بعد ان استهدف هذا الاخير بمحاولة اغتيال ، انما هي آية اهتمام لا يزال اللبنانيون حساسين ازاءه · **فلأية اسباب يتردد القوم في باريس ؟** الملها طبيعة الحكومة الفرنسية الحالية ، اذ يبدو انه يصعب على التقنوقراطيين اتخاذ قرارات سياسية حقيقية · **ان من الجوهري بالنسبة الينا ان تبقى فرنسا حاضرة في لبنان** · ولا ريب في ان صداقتها حاليا هي اثمن بالنسبة الينا مما هي بالنسبة الى كثيرين اخرين · وقد اشترط دو غيرينغو من اجل ارسال الجيش الفرنسي الى لبنان « ان يحل السلام » · وها هو السلام الان ... فليس سوى نفوذ دولة كبرى - وسيان اكانت عربية ام اوروبية - يستطيع ان يعيننا حقيقة على الحفاظ على الديموقراطية في بلادنا وفي ان نظل انفسنا وفي ان نصون استقلالنا وحدودنا ·

- ولكن فرنسا اجرت عدة اتصالات مع السوريين قبل وبعد الهجمات التي قاموا بها · اذ زار خدام اولا ، ثم الاسد نفسه بعد ذلك ، باريس ؟

● اعتقد ان الحكومة السورية قد بذلت قصارى جهدها من اجل خداع الحكومة الفرنسية · فقد كانت دمشق تخشى ان تتدخل فرنسا قبل ان يضع الجيش السوري يده على مناطق واسعة من لبنان · ولا تنسين ان قوام السياسة الشرق اوسطية الكثيرمن الحيل والمخادعات · واذا ما قررت فرنسا الان ان تظهر اهتمامها ماديا بلبنان ، فسوف ترى خدام من جديد ، او الاسد ، ذاهبا الى باريس ·

وفي جميع الاحوال ، فانه لا يزال بوسع فرنسا ان تفعل شيئا ما من اجل لبنان·

- ومع هذا ، فانه حين عرضت فرنسا على لسان رئيسها ، ارسال فرق عسكرية الى لبنان ، فانكم وقفتم بحدة ضد هذا العرض ووصفتموه بأنه من اثر « الاستعمار » وتقولون الان انه ينبغي اعادة ادخال اوروبا الى المشرق

● **اننا لم نرفض تدخلا فرنسيا سياسيا بتاتا** · وانت تعرف علاقاتنا بالسيد غورس موفد الرئيس ديستان الى بيروت والسيد كوف دو مورفيل · بل اننا نتمنى ان تعود المساعي الفرنسية الحميدة فتعرض مجددا على مختلف اللبنانيين · لكن القوة العسكرية التي كانت سترسلها الى هنا ، انما جرى عرضها في خطاب القاه الرئيس جيسكار ديستان في الولايات المتحدة ·

وكان من حقنا ان نخشى في تلك اللحظة ان تكون تلك البادرة قد جاءت نتيجة اتفاق مع الاميركيين ووكالة المخابرات المركزية الاميركية (السي · آي · اي) التي كانت جزءا لا يتجزأ من المؤامرة ضد لبنان ·

كنا نخشى من ان تأتي القوات الفرنسية لتلتحق بالموارنة - في حين ان السوريين كانوا قد استقروا في ما يناهز نصف مناطقنا - فيظهر تقسيم البلاد وكأنه امر واقع · ولكنني اؤكد لك اننا ما كنا في ظروف اخرى سنرفض التدخل العسكري الفرنسي لعلمنا ان فرنسا لم تعد فرنسا الانتداب ، فتدخلها وعملها هنا اليوم سيكونان منزهين عن الاغراض ·

- كان السيد غورس موفدا يتساءل - عندما التقيته في باريس - كيف امكن لكم ان تفسروا العرض الفرنسي بالتدخل على النحو الذي فسرتموه به ...

● **كان رد فعلي متسرعا** · وكان حقا عليّ انتظار مرور بضعةايام قبل اعلان الموقف · غير ان الخوف من رؤية بلادنا منقسمة الى قطعتين كان يدفع بنا الى الرفض · ولقد اطعمنا في ذلك ردة فعل (انعكاسا) عفوية · غير اننا كنا سنقف موقفا اخر ولا ريب ازاء العروض الفرنسية - لا سيما عندما تعتزم فرنسا قصر تدخلها على مرافئنا وحول بعض مؤسساتنا العامة وعلى المطار وجونية الخ ... - لو ان هذه العروض لم تقدم لنا من ارض الولايات المتحدة ...

- هل نستطيع ان نتصور انقلابا في التحالفات بين الكتل والاحزاب التي تقاتلت ابان الحرب الاهلية ، بحيث تتحد اليوم او غدا حول هدف جديد ؟

● اننا لا نعرف ما هو في النهاية المخطط السوري ؟ هل هو ادخال حل المشكلة اللبنانية في اطار حل اعم يشمل كذلك المشكلة الفلسطينية ؟ افلن يسكتوا من خلال هذا المنظار ، على قيام دولة مارونية مستقلة ؟ اني اشك ، فيما يعنيني ، بأنهم سيذهبون الى هذا الحد **ولكن اعتقد ان اسرائيل ستنظر بعين السخط الى تزايد النفوذ السوري في لبنان** ·

واذا كان الانعزاليون متمسكين حقا بلبنانهم ، فانهم لن يلبثوا - يقينا - حتى يغيروا موقفهم ·

يبقى ان نعرف ما هو عدد الناس الذين يطأطئون هاماتهم في المعسكر الاخر ويلعبون لعبة مزدوجة ، فيظهرون الصداقة لدمشق ويتركونها حرة اليدين في لبنان على امل ان يأتي يوم تتغير فيه الامور · افيريد الطرف الاخر حقا اعادة الديموقراطية التي كانت موجودة في لبنان في الماضي ؟ اني لأود ان اعتقد ذلك ، لولا انه يستدعي ان يستيقظ هذا الطرف اولا ، وان نشهد توعيا سياسيا حقيقيا · واعتقد ان الرئيس سركيس بدأ يدرك ما ينبغي له عمـ[illegible] اجل انقاذ البلاد ·

- ابان هذه الحرب ، كانت هناك حركتان على الاقل بين القوى التقدمية تنتسبان الى عبد الناصر · وقد المحتم غير مرة الى « ايديولوجية ناصرية حقيقية » فماذا تعنون بهذا ؟

● ما أظن اني قلته ، هو ان عبد الناصر عرف كيف يختار ايديولوجية خاصة بالدول العربية ، لا يجد المرء فيها افراطا ، وتوقظ في الوقت ذاته وتبعث مختلف عجائبيات القومية العربية ·

وقد سيطرت هذه الايديولوجية لفترة ما على روح الجماهير العربية عبر صورة عبد الناصر ·

وقد ظلت محفوظة في شعورهم الباطن · ولهذا نجد اناسا في بيروت ودمشق وبغداد ، وحيثما كان تقريبا ، يدعونها وينتمون اليها ·

وثمة فصيلان او ثلاثة في لبنان بل واكثر ، ممن يدينون بهذه العقيدة ، القومية ، والاشتراكية في آن معا · وحين تتوسل الامة العربية - التي طالما تجاهلها العالم ، ولم تنكشف لنفسها الا بصورة متأخرة - نقول انها تحاول حين تتوسل عبد الناصر ان تحدد معنى لحياتها يكون خاصا بها ، وان تثبت لذاتها تصورا سياسيا واجتماعيا يتبنى من الماركسية والاشتراكية بعض الافكار الاساسية ، من دون ان يؤدي بها ذلك الى انكار اصولها الاتنية السلالية · ويبدو عبد الناصر في سوريا ، كما تشهد بذلك الحركة المسماة بالاتحاد الاشتراكي العربي ، وفي ليبيا ايضا وفي كل مكان من العالم العربي ، كبطل الاشتراكية القومية · ولو انه كان لا يزال حيا ، لحققت هذه الحركات تقدما واكتسبت نفوذا واثرت تأثيرا اكثر اهمية في مصير البلدان العربية ·

وانا شخصيا لا انتسب الى عبد الناصر ولا الى الناصرية ، ذلك ان حركتنا تعود الى عام ١٩٤٧ · ومع هذا فانني اجد ان عبد الناصر قد اوجد تيارا من الافكار الفنية المفيدة وخصوصا عندما دعا وبشر بما اسميه الاشتراكية التعاونية من دون ان يهمل نصيب الجانب الروحي قسطه ·

ولكم كان يطيب ان تتحقق هذه الافكار بكليتها في مصر ، لأن هذه الاشتراكية هي اشتراكية انسانية صادقة ·

ولقد كان ينبغي التصدي بعد الاصلاح الزراعي واصلاحات التسيير الصناعي ، للملكية العقارية الكبرى لتعزيز الملكية الصغرى والمتوسطة ·

غير ان الصعوبات الاقتصادية حالت دون الرئيس السادات ودون المضي قدما ، واعطاء معنى اكثر عمقا وعدالة وواقعية في آن معا لهذا التيار الجديد من الاشتراكية ·

واعتقد ، ان عبد الناصر عرف كيف يتبين ان نظام الملكية الصغرى والمتوسطة هو تقدم تاريخي ومكتسب اجتماعي طبيعي ، وانه اقرب الى منطق الاشياء من الملكية المشتركة الشائعة وان الاشتراكية ليست الملكية الجماعية · وشراح ماركس ومشايعوه لم يفهموا هذا الطابع التقدمي والطبيعي « المطلق » الذي للملكية الصغيرة او للملكية التعاونية ·

- ايمكن ان يكون للازمة اللبنانية انعكاسات بمثل اهمية مفاهيم عبد الناصر ؟

● لست ادري ، ولكني اعتقد انه اذا ما عادت الديموقراطية الى لبنان وتثبتت وتأكدت فيه - على الرغم من العوائق - فان ذلك سيسم العالم العربي وسما عميقا على المدى المتوسط والبعيد ·

وعلى اي حال ، فان الحرية بدأت ترتسم في الافق باحكام ، منذ ان حاول الرئيس السادات ان يقيم تدريجيا نظاما ديموقراطيا في مصر ·

واعتقادي ان الجزائر ستسلك السبيل نفسه ، فها هي وقد اصدرت دستورا وتنشىء مؤسسات عامة ، وتعلن سيادة القانون · واما ليبيا فانها تسير عبر تجارب الرئيس القذافي في الديموقراطية المباشرة ، على الطريق السوي · فلا بد من بعث الديموقراطية في كل مكان تقريبا من العالم العربي استجابة لرغبة هذه الشعوب المتوسطية بالحرية ، وتلبية للتطلع الصيق العنيد لتلك النزعة الديموقراطية البدوية العفوية الخاصة بالعرب ·

غير ان ثمة ما يدعونا الى الخشية من ان يعتاد المواطنون (كما هو الحال في البلدان الشيوعية وبلدان الديكتاتورية العسكرية) على الحرمان من الحرية ، وان ينتهوا الى استساغة هذا النقص ·

- لا يزال ثمة مئات الالوف من قطع السلاح في لبنان · افنكون في فترة هدنة مسلحة ام انكم تقبلون بتسليم اسلحتكم الثقيلة ومخزونات ذخائركم ؟

● يصعب علينا القبول بتسليم ذخائرنا الى اي كان وذلك لأننا من جهة اولى دفعنا ثمنها ، اعني ان شعبنا دفع ثمنها ، ولأنه يسهل على الفريق الاخر من الجهة الثانية اخفاء اسلحته · كما انه يملك وسائل اوفى من اجل الحصول على سواها · فمختلف الكنائس (وهناك اكثر من الفي كنيسة في لبنان) جاهزة لمواراة هذه الاسلحة عن الانظار ، وكذلك الامر بالنسبة الى ثكنات الجيش الرسمي وثكنات القوات المارونية والاديرة والمعابد الاخرى ·

وتلك مشكلة تواجهها القوات العربية اذا ما ارادت التفتيش في تلك النواحي · وهكذا ، فان لدى الانعزاليين كل الامكانية اللازمة من اجل تغيير مخابىء اسلحتهم على هواهم ·

اما نحن ، فلا · واذا فلا بد من انتظار ايام افضل ، اي حين يقبل الجميع بالاصلاح الدستوري لكي لا يبقى لدينا ما نمتلك السلاح من اجله ·

وعلى هذا الاصلاح ان يأخذ بعين الاعتبار ، مسألة الغاء الطائفية السياسية ، والمبادىء الكبرى للتجديد السياسي التي تقترحها الاحزاب ·

- واذاً فان المنطقة ستبقى كمخزن البارود ؟

● لا أظن ذلك ، طالما بقي هناك خط فاصل تقيمه وتحافظ عليه القوات العربية · ولا بد لنا من ان ننتظر ردود الفعل العميقة على دخول الجيش السوري الى مناطق غلاة المارونية ·

فمن شأن ذلك ، ان يزيل الوهم والغشاوة عن عيون الذين قاتلوا من اجل صنع دولة على « مقاس » الامة المارونية المزعومة ، بالاضافة الى مريدي التقسيم او دعاة اقامة « امارة موناكو المسيحية » وخصوصا الرئيس شمعون · **فلطالما رفض الانعزاليون الاعتراف بأن لبنان عربي ، وها هي القوات العربية ، بما في ذلك البدوية منها ، تحتل اراضيهم وتعسكر فيها وتقوم بدور البوليس ·**

لقد كانوا يريدون ادارة مستقلة او نصف مستقلة ، وها قد انتزعت تلك

الادارة من ايديهم • وفي النهاية ، فان مختلف مشاريعهم تبددت بما في ذلك مشروع تعزيز الادارة المحلية ودفعها الى اقصاها • واذا فانه لا بد من ان يحدث انعطاف ، يعوض ريمون اده وكل الزعماء المسيحيين الجديرين بالتقدير ، والوطنيين الحقيقيين عن كل ما عانوه ابان الحرب من طرف مسيحيي المعسكر الاخر المزيفين •

ويقينا ، انه سيدور نقاش واسع بين القاعدة وبين الرؤساء المدنيين والعسكريين • وبدهي ان ذلك لن يكون لصالح اولئك الرؤساء • اذ ما تراهم قائلين ؟ لا شيء •

ـ فيما يخص ريمون اده ، يبدو انه اكثر استياء من كميل شمعون ازاء دخول القوات السورية الى لبنان ؟

● ربما انه يعتبر ، وبحق ، ان الدولة اللبنانية اضعف من ان تطلب من السوريين الرحيل • وهذه وجهة نظر يمكن القبول بها غير ان واقعة كون القوات السورية تشارك في عمل عربي، مبني على اجماع عربي تام ، يعطي كما اعتقد نوعا من الضمانة بأن هذه القوات لن تبقى في البلاد اذا ما اخذ الرئيس سركيس المبادرة المباشرة بتنظيم الجيش ، وقوى الامن الداخلي على وجه الخصوص • فانطلاقا ، من اللحظة التي تبلغ فيها هذه القوات ١٠ او ١٢ ألف رجل ، فانها تستطيع ـ اذا ما كانت مجهزة بتجهيز حسن ـ الحفاظ بمفردها على الامن في البلاد • **وعند ذاك ينبغي للسوريين ان يرحلوا •**

ـ هل لديكم شعور بأننا نسير نحو السلام وانه يمكن ان يحل في خلال عام او عام ونصف العام من الان ؟ ام انكم تعتقدون ان جبهات الرفض مجتمعة ـ اسرائيلية وفلسطينية وسواها ـ ستتغلب على بوادر التسوية التي تظهر في واشنطن او سواها ؟

● يبدو لي ، هو ان الملأ كله يركض نحو جنيف ، وان القوم كله يريد الجلوس الى طاولة المؤتمر •

لكن او تقبل حكومات التنازل هذه ، من الان حتى ذلك الحين ، بأن تظهر نفسها مستعدة للقبول بحل جزئي للمشكلة الفلسطينية ؟ افتستطيع الاستمرار في هذا الاتجاه ؟ والجواب هو يقينا لا . اذا ما تشكلت جبهة دول عربية معادية لكل حل جزئي في الشرق الاوسط • ولا بد من ان نحسب حساب التغيرات في الانظمة . ولكن بالنظر الى الوتيرة التي تسير بها الامور ، فان المرء يعتقد ان جنيف ربما نجحت • وعند ذاك فان السؤال الوحيد الذي يطرح نفسه هو ، هل ان المليون ومايتي الف لاجيء فلسطيني سيعودون الى بلادهم . ام انهم سيحجمون عمليا ويقلصون الى مجرد « دياسبورا » ، مهاجرين او منفيين ؟ وهل يقبلون بهذا المصير وهم الذين سيصبح تعدادهم مليونين او ثلاثة في خلال عشر سنوات ؟ ان ذلك يرتهن الى ابعد الحدود بالموقف ـ الصلب او اللين ـ الذي سيتخذه السيد

ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ـ افيستطيعون ان يظلوا على مرونتهم الحالية اذا لم يتلقوا ضمانا بأن دويلتهم لن تضم الى ضرب ما من الكونفدرالية ؟ وهل تقبل اسرائيل بمثل هذه الكونفدرالية ، التي يمكن ان تمثل ـ اذا ما توحدت بصورة أمتن تبعا لبعض الانقلابات او لبعض الاتفاقات الجديدة ـ تهديدا أشد خطرا على الدولة العبرية من الانقسام الحالي الذي يسود بلدان الشرق ؟ وفي النهاية ، فان جماع الامر كله هو بيد السوفيات والاميركيين ، خصوصا أن ثمة اتفاقا مبدئيا فيما بينهما حول حل في جنيف •

كيف تتصورون العالم العربي بعد عشرين سنة ؟

الجواب صعب ، بل وغاية في الصعوبة • فانا أخشى أن يذهب العالم العربي بعيداً في طريق الغرب ويفرط في « الغربنة » بمعنى وباتجاه هذا المفهوم الحديث المزيف للكلمة وينجر وراء الآلة واستلاباتها المختلفة للانسان من فيزيقية وبيئوية ونفسية وأخلاقية •

فالانسان ـ ولاسيما الانسان السامي الذي نتحدر نحن منه ـ هو مقلد كبير • أنه عقب حقيقي للقرد • وغالبا ما ينبغي للانسان أن يذهب مع الحضارة المادية الى غايتها لكي يدرك مختلف العواقب والتشويهات والعيوب البسيطة التي تنبع عنها • فقد تكون الشائبة كوضح النهار ولكنك لا تراها للوهلة الاولى ، فسلطان الوهم ، يستولي عليك ويجنح بك • وعندما تبلغ هذه الشوائب والعيوب والتشويهات قصارى حدها ، فانه غالبا ما يكون الاوان قد فات • فيسود التسمم المعنوي وتبدأ دورة الفساد والتفكك بدون أن نستطيع لها رداً ، أو توقيا •

ولسوء الحظ ، فان الشعب بمجمله لا يستطيع في ذلك شيئاً على الرغم من مختلف نظريات الوعي الشعبي والسيادة الشعبية والديموقراطية الوقائية • وخطر « التأليل » (من آلة) أو المكننة هذا هو خطر نتعرض له في العالم جميعاً • ولهذا ، فأنه يمكن اعتباره تدبيراً محاكا ضد الانسان •

فاذا عدينا عن هذا ، فانني أتبين فيما أعتقد ثورة كبرى أو تطورا اجتماعياً يجول في العالم العربي من بلد الى آخر • كما أرى تفهما نفسانيا أكثر عمقاً لمشاكل الغد • وسيكون في هذا الشكل الذي تلوح تباشيره ، من الاشتراكية ، بعض الجديد •

وستمضي القومية العربية في طريقها على الرغم من الخيبات الحالية وستسلك سبيل الوحدة العربية ، فتتحد عدة شعوب عربية على الاقل ، ان لم يكن جميعها • ولكني أخشى أن يشارك السيف بعض المشاركة في هذا العمل التوحيدي •

وسيظل الاسلام يلعب دوره المؤثر • ولا بد من الاعتراف بأن العرب لن يتماسكوا من دون الاسلام • والامة العربية تحتاج كما يلاحظ ابن خلدون ، بحق ، الى عصبية ، أي الى باعث انفعالي يؤازره بعض التعصب • ولعل مختلف الشعوب على شيء من هذا ولكن العصبية لدى السامي العربي بوجه خاص ساطعة سطوع النهار •

وفي غضون ذلك يكون التكاثر السكاني (الديموغرافيا) قد فعل فعله . واصبحنا أمة تعد ٣٠٠ أو ٤٠٠ مليون نسمة .

ولا بد من ابتدار أوروبا والعالم بالتنبيه بأنه اذا لم تحل مشكلة اسرائيل . فانها ستظل خميرة الفتنة وصاعق أو فتيل هذا التجمع العربي كله ومفجر ارادة القوة . وروح الانتقام المشروع لديه .

ولست أدري اذا كنت أحلم أو ما اذا كان ثمة ذكريات نبوآت مختلفة استقرت في لاشعوري وبقيت انطباعاتها اللطيفة تتشبث به وتتباطأ فيه ... وتعبر عن نفسها بهذا النحو ..

وأخيراً . فانه خير لنا أن نتوقف هنا على طريق التأملات الروحية فاني أوشك أن اضل وانا اجازف في لعب دور كاهن التنبوءات واصطناع مهنة العراف .

وكل ما أرجوه هو أن تتمكن الوحدة العربية من أن تتوجه مجدداً نحو هذا النوع من المشاركة الحرة الانسانية بين الشعوب العربية . في صيغة من الكومنولث . أو من التنظيم كما كان الحال أيام الخلافة العربية أو أيام السلطنة التركية . أي في صيغة تتآزر فيها الشعوب والثقافات والقوى . تآزرا لا تغيب الحرية عنه .

- توشك الاصلاحات في لبنان أن تنسى لبرهة طويلة أي الى أن تنعقد جنيف أولا ثم الى أن تنجح أو تخفق . كيف تحددون مسؤوليتكم بالنسبة الى أولئك الذين قدتموهم في المعركة والذين لا يزالون ، وربما ظلوا لفترة طويلة ايضا ، محبطين خائبين الى أقصى الحدود ؟

● ذلك صحيح . فالحماقة البشرية تختلط دائماً تقريبا في شؤوننا . كما تتدخل المسائل الشخصية فيها - فالانا (أيغو) هو الذي يصنع التاريخ - وغالبا ما نبقى متجردين لا نلوذ حراكا أو مستهانا بنا أو غير مفهومين . وكذلك فان الكرما (المقدر على الشعوب) تتدخل هي الاخرى ومعها العادات المستفادة من هذه الحضارة والتصنيف الذي يفرضه المتمدنون المزعومون على أنفسهم ولهذا فان الدور البشري يبدو على طريق الافول .

غير أن على المرء أن يقوم بواجبه . ومتى ما ارتسم السبيل . فانه يعود ويصبح هو الاخر سببية كامنة أو علة فاعلة .

وفي بعض الاحيان تكون الطريق أهم من النتيجة المباشرة . فلا بد من مواصلة الحفر كما لو كنا نعمق ثلما في الارض المفلوحة .

ثم لا ننسين أن الناس هم محبطون أزليون . فرضاهم مؤقت . وانطباعهم أنهم لا يرتوون الا لفترة من الزمن ليعود سعيهم على بدئه . وعلى أي حال . فان ذلك خير . اذ لولا ذلك للحقتهم « البرجزة » بالمعنى الحقيقي للكلمة أي من دون اعتبار للطبقات ومهما يكن من أمر . فان هذا هو السبب الذي يشجع العقائد والايديولوجية على مواصلة عملها في تزيين وتجميل التاريخ . كما يحضها في الان ذاته على تزييفه .

وعليّ أن أقول لك أن برنامج الاصلاحات الديموقراطية الذي اقترحناه وعرضناه هو « فكر صحيح » ولم نجنه عبر الاكتفاء بالاصغاء الى الناس -

وان كنا نصغي بطبيعة الحال الى نصائحهم - بل بقصدنا الى الخير وتعمدنا الجانب الواقعي والمتناسق والعادل من الامور وبعدنا عن اية اعتبارات مصلحية أو ديماغوجية .

ولقد أردنا أن نبحث عن القانون الداخلي الذي يستطيع أن يحكم كل ديموقراطية حقة . ملتجئين بالتأكيد الى التجربة التاريخية لدى مختلف الشعوب . وكذلك الى مفهوم الحكومة الفضلى ذاته .

فنحن لم نشأ أن نبقى عبيد أسطورة السيادة الشعبية حيث لا يوجد من يسود بالمعنى الحقيقي للكلمة . لقد كانت المشكلة الاساسية بالنسبة الينا هي مشكلة النخبة التي يجب فرزها من الفريق الاجتماعي - عنيت النخبة الحقيقية . وبقدر ما نجد الى هذه النخبة سبيلا - وكان شاغلنا ثانيا هو تمثيل ما يمكن تسميته بالوظائف الاجتماعية . أو بمفاصل هذا البدن أو هذا الجهاز الذي هو المجتمع أو الامة .

والصواب بالنسبة الينا هو ما يكون صادقا في لحظة من اللحظات، اي ما يعكس او يعبر عن قانون العلاقة الملازمة للمؤسسة ووظائفها. ومعنى هذا انه يقود الى تعريف البواعث الانسانية، والى تحديد غائية خلقية ومعنوية لنفسه، والى عدم الاكتفاء بالشعارات، والى عدم التوقف عند ليبرالية هدامة قامعة قدر الديكتاتورية نفسها.

والحال، هو ان هذا البرنامج من الاصلاحات السلمية سيجتذب اليه طويلا الذين يسعون الى حل لمشكلة الديموقراطية غير الفعالة التي عرفتها الامم الاوروبية القديمة، او لمشكلة الانظمة الاستبدادية اليسارية او اليمينية التي اختلست من الانسان تحرره التاريخي من التسلط الجماعي والتي لا ندري الى اين تؤول ولا اية مؤسسات نهائية تتبنى.

ونحن لا نريد ان نتكل على معنى او اتجاه ليبرالي كامل ما ونسند اليه - شأن العميان الفاقدي الارادة - مهمة العثور بنفسه على طريقة وقوانين تقدمه.

اقول اننا لا نريد الاتكال على هذا الاتجاه الليبرالي، بقدر ما نريد ان نعكف على التحليل العلمي للجسم الاجتماعي - كتنظيم ازلي - لنستخلص في ضوء البواعث الانسانية الخيرة، والقوانين الداخلية والخارجية - وفقا لمنظور المصير الحقيقي للمجتمع والانسان وللواجب النفسي والمجتمعي (دراما) . فصار غير ممكن ترك الامور تسير على هوى التطبيقات العلمية ووفق رغبات او نزوات كل من يشاء وتبعا لخط التقنوقراطيين.

واعتقد، ان في المفهوم القديم الذي صاغه القانون الروماني حول القانون الكلي وكذلك في المفهوم الموازي له والقريب منه، مفهوم الساناتانا دراما الهندوكي الكثير مما يدرس ويستخلص التقنوقراطيين.

وغالبا ما يتجدد الشباب وتجري النهضات بالعودة الى الينابيع، وفي هذا المعنى وبهذا الاتجاه، نتوخى نحن في الحزب التقدمي الاشتراكي ونقترح افكارنا حول السياسة والمجتمع والاقتصاد والحضارة.

- ولعلي عارض وجهة النظر هذه في كتاب على حدة وفي اوقات استجماع وتأمل افضل. «فالمهم في الجهد» - كما كان تيارد ده شاردان يقول « - هو الرؤية ».

- يقول الناس عنكم في لبنان، ان جنبلاط داهية من الدهاة في السياسة. والحال هو انكم لم تسلكوا ابان هذه الازمة سلوك الداهية، بل موقف المغامر. كيف تفسرون كلا من شهرتكم تلك ومن التزامكم طوال هذه الحرب؟

● يكني الناس الآخرين كما يشاؤون لانهم اعتادوا على الا يروا في الآخر الا هيئة او شكلا - وبل شكلا ذهنيا - واسما. ثم انهم من الجهة الاخرى يولون الآخرين الصفات والعيوب او الكنى التي يحوزونها هم انفسهم. انه ضرب من «التأمل» اللاشعوري الشبيه بفعل المرأة. وهذه الحالة هي الحالة الاعتيادية.

- وهناك الحالة الاخرى التي ينسب بها الافراد والفئات الاجتماعية او الشعوب - وكل بحسبه الى الآخر، افضل ما فيهم، فيرون انفسهم فيه ويتطلعون اليه تطلع المرء ان يكون نفسه. ويمكن لذلك ان يصل الى حد جعله بطلا او الها.

غير ان الناس ربما انتقلوا من وجهة النظر هذه الى نقيضتها بكل يسر. فهكذا حدث لقيصر وقاتله بروتس.

والحق، ان في كل انسان جانبا «ثعلبانيا» وجانبا آخر ملتزما ومغامرا.

وعلى اي حال فان الالتزام يعني المغامرة خيرا كانت او شرا. أو ليس الجانب الذهني في الانسان هو الثعلبانية؟

لكن لندع هذه الاعتبارات جانبا. فالحقيقة هي ان قوام كل فعل، التزام وحل وسط او قل تسوية. ففي كل لحظة من لحظات حياتنا، لا بد لنا من ان نقف ونلجأ الى الحل الوسط او التسوية. وقوام الحياة كثرة لامتناهية من التسويات ومن لم يعرف المجازفة لم يطق التصرف. ولكن التسوية غير التعرض للشبهات. افلم يكن غاندي صاحب هذه الكلمة الرائعة: «علمني حب الحقيقة ان ارى جمال التسوية».

ثم انه لا بد لك من ان تبقي ناظريك عند قومك اي عند الشعب.

فهل هم يتابعونك ويتبعونك ام لا؟. اذ لا تنسى، انك تعمل لهم لا لنفسك... وفي النهاية، فانك غالبا ما تتصرف لنفسك . اي من اجل الرضى الداخلي. لكن لا بد لك دائما من ان تمزق القناع وان تهتك ستار الغش لكي تبلغ تلك الحالة من الاطمئنان الداخلي والتجرد. ولكي لا يكون الطموح ولا اللذة هما من يقودك.

غير ان الآخرين - او اولئك الذين تدعي ان فعلك هو لخدمتهم - غالبا ما يحتاجون الى الراحة والى محطة على الطريق الصاعدة «فالروح قوية لكن الجسد ضعيف» ولهذا فانه لا ينبغي لك ان تفضي الى الدون كيشوتية

السياسية والهتلرية التي هي شكل من القيصرية - البابوية. شأن الستالينية وشأن المصادر الاخرى عندما تختلط بها الاهواء.

واما انا شخصيا فاني افضل الدون كيشوتية الحقة لانها شكل من اشكال اللعب الذي يرمز الى الفعل البشري. ولانه ينبغي للمرء ان يضحك من نفسه ابدا، وان ينتقدها وان يتحول عن الجد. مع التصرف بكل ما في الدنيا من جدية وان يقول لنفسه في النهاية، اننا لا نقف في الحياة الا امام طواحين هوائية.

وينبغي للهزل ان يكون ماثلا ابدا لينقذنا من الغرور والادعاء والسطحية. **فللنقاوة شرف يجب ان يظل بكرا.** والاساسي في الامر هو ان تكون لديك روح الشرف او روح الاصالة اذا شئت ان اقولها لك بلغتي الهندوكية. وليس ثمة ما هو اكثر اصالة من تتميم المرء واجبه النفسي المجتمعي (الدراما). (وأنا أحب كلمة الدراما هذه كثيرا فهي تعني طريق الواجب - المقدر، الذي قدر علينا). ولا يفيد بشيء ان تقوم بدراما الآخر او الآخرين. فآه لو ان كل الناس تعلموا هذا، اذاً لصار العالم اقل بؤسا ولتناقصت الرغبات غير المشبعة والطموحات غير المتحققة بما لا يقاس. والحقيقة هي اني كنت دائما ملتزما وحرا في الآن ذاته. ويا لجمالها مغامرة ان تجري وراء الحقيقة وان تسعى وراء الحق والعدل والاعتدال والانسجام. في الاشياء حتى ولو كان ذلك كله نسبيا.

ومرة اخرى اقول ، «ان حب الحقيقة - ايا كانت - قد علمني جمال التسوية». ثم كان لا بد لي هذه المرة بمناسبة احداث لبنان - من ان التزم حتى النهاية.

صحيح انه كان علينا ان نجتاز الحمأة القذرة التي كانت امامنا، عنيت كل هذا النشاط المريب الهجين الخسيس الذي يرافق كل ثورة أسيء قيادتها منذ البداية، ولم يمسك باعنتها كما يجب منذ المنطلق كما اعني سائر تلك الايدي القذرة التي بادرت الى العمل، وكل فوضى البداوة الكامنة في كل عربي، وجميع روح العنف والهوى التي هي روح هذا الدور الثالث من ادوار الحضارة. ولكن ذلك كان من رابعة المستحيلات. كان يجب القيام بذلك ولا ريب، لأن ذلك كان عملا خليقا بأن يشرع به. وهذا هو نقدنا الذاتي الاول.

فبدلا من ان ننظر الى ما كان والاكتفاء بالتضييق عليه قدر الامكان، فلربما كنا استطعنا ان نكبح المسيرة الجهنمية الملحمية المنحدرة الى الوحل من دون ان يفضي بنا ذلك لا الى عامية باريس ولا الى الحرب الاهلية الاسبانية.

غير ان وجود الفلسطينيين وكثرة الاحزاب والفصائل، والتأخر في انشاء سلطة مدنية، وضرورة تجميع كافة الناس في جبهة صراع واسعة في مواجهة

خصم قوي. وسواها من الظروف، كل ذلك جعلنا نرى هذا العمل شبه مستحيل.

ومن ثم، فربما كانت هناك ايضا مشكلتنا الشخصية. فقد تروضت مثاليتنا عبر ثلاث وثلاثين سنة من الصراع السياسي. وهكذا فقد ادركني التعب والشعور بمصارعة طواحين الهواء. فالمأثورة التي تقول **«الروح قوية ولكن الجسد ضعيف»، تصح عليّ انا ايضا.**

ثم كانت هناك كلمة ذلك الحكيم الكبير التي كانت تمثل في ذاكرتي ابدا: «انك لن تغير العالم. وكل ما انت مستطيع تغييره هو نفسك... واذذاك (اي اذا بلغت هذا الهدف) فانك واجد ان الاشياء موضوعة في النهاية في نصابها وان كل شيء موضوع في موضعه...».

وتغيير العالم، هو خصوصا وقبل كل شيء، تغيير الانسان. والحال هو ان مختلف المغامرات البشرية فشلت في ذلك. **لكن الدراما ولا بد لك من مواصلة القيام، ليس بواجبك، بل بالواجب.**

واخيرا، فقد كان ثمة سبب اخر لهذا الالتزام المتطرف في احداث ١٩٧٥ - ١٩٧٦، في لبنان. هو اننا كنا ازاء شبيبة لا يجوز عرقلة انطلاقها ولا تحطيم حركتها النفسانية الداخلية. بل كان يجب تتميم الدورة الاهوائية والايديولوجية التي تحركها وتدفعها الى العمل.

كان ينبغي لهذه الشبيبة المترعة - بالاشتراكية الثورية والماركسية واللينينية والماوية والغيفارية والفاشية والكتائبية وبكل «المصادر الصناعية» الثرثارة التي يفرزها الشعور الباطن (او اللاشعور) - ان تذهب الى اقصى البادرة الثورية وان لا تتوقف في بداية الطريق كما حدث في فرنسا، في العام ١٩٦٨.

وانا على يقين بأن هذه الشبيبة اللبنانية ستخرج من هذا الصراع البطولي والقذر، اكثر تعقلا واوفى نضجا، بعيدة عن الثوروية واهلا للقيام بثورة حقيقية. فالثوري الجديد بهذا الاسم - اي الذي يتصرف بمقتضى شرف العمل المطروح ونقائه الخلقي - ليس بالثوروي مطلقا بل هو صانع خلاق يضيف الفرح الى هذا العالم. **فالاخلاق والثورة تسيران جنبا الى جنب.** ولا يمكن لاهداف وبواعث الثورة ان تكون - ان بالنسبة الى الرؤساء او بالنسبة الى الشعب - الا بواعث ضمير بقدر ما هي نذائر او مقدمات سببية تاريخية، او مادية تاريخية اذا شئت.

وقد اختص الانسان بأنه لا يتصرف في المماهة من دون ان ينجده نور داخلي، حتى ولو كان - بل خاصة اذا كان ملحدا صادقا.

وانما الاعمال بالنيات... وانما تستمد كل سببية ديموغرافية واقتصادية واجتماعية وتقنية او ثقافية: قوتها اي نقطة ارتكاز رافعة التاريخ الشديدة القوى، بهذه النية وفيها، اي بهذا القصد المعنوي او «السانالبا» المعنوية.

فالانسان هو كائن اخلاقي بحصر المعنى. وهدف حياته العميق هو ان يكون كذلك وان يحقق نفسه في المفهوم النوعي للانسان.

ومن ثم، فقد كان في استراتيجيتنا السياسية انه يجب وضع الخصم، اي الانعزاليين - الصادين عن سبيل الضمير - امام المأزق، وفي طريق مسدود. هذا المأزق الذي اخرجهم التدخل السوري منه الى حين. ذلك انهم سيواجهون اتهام شعبهم وشبيبتهم اللذين خانوهما.

- هل تستطيعون ان تلخصوا النقاط الاساسية التي يقوم عليها نقدكم الذاتي؟ كيف تحددون وتعرفون الاخطاء المرتكبة؟

• يشكل هذا الذي قلته منذ قليل، بداية نقد ذاتي.

لقد كنا في احدى الاونات مفرطين بعض الافراط في مثاليتنا. كان ينبغي لنا الا نترك هذه الشبيبة معطلة المسير، معلقة الانطلاق. ونحن امام منعطف بدأنا نشعر فيه بتراكم الصعوبات والعقبات في طريقنا وفي لحظة ظهر لنا فيها انه بات من الصعب جدا علينا ان ننجح وان نشق طريقنا. ولم نكن نريد ان يتكرر العام ١٩٦٨ الفرنسي عندنا. كما لم نكن نرغب بحركة سياسية يشعر كل الطامحين الى التغيير فيها بأننا «غطسناهم» في منتصف الطريق وتخلينا عنهم امام منعطف خطير.

كان من الضروري ان يقاسمونا هذه الاستقامة الخلقية وهذه الامانة المتصلبة التي تحيل الوعي والوجدان راضيا مرضيا، **الوعي بأننا قمنا جميعا بواجبنا.**

كنا امام لحظة تاريخية - وقد شعرنا بذلك شعورا حادا - فهي لحظة تستطيع ان تفتح لنا افقا سياسيا واجتماعيا على درجة عظيمة من الاهمية بالنسبة الى حياة البلاد... واذا! كان يجب ان نجعل هذه اللحظة التاريخية «لحظة وعي نفساني» عميق. وبالتالي لحظة ذات ديمومة.

ومثلنا في ذلك مثل من يصل الى قمة جبل ثم يضطره الى الهبوط. هبوب الريح وتهيؤ العاصفة وتلبد الغيوم تلبدا يوارى عنه المنظر. لكن خاطره سينطبع بذلك ويحفظ منه بالتأكيد «انطباعا» باقيا يتمتع بسلطة قوية على استحضار المشهد البانورامي المرئي. ويجب الا ننسى ان الشعوب تتذكر. وان لا شعورها يلعب دورا راجحا في تحقيق البادرة السياسية والاجتماعية.

وكان علينا ان نعد لغد مشرق «ولفسحة الامل». وهذه الموجودية التي عشناها الى قصارها - ضربا من السقطة في الوجود كما يقول أ. سيوران - هي «حمام رجولي» مطهر. وبالتالي بنّاء للغاية لأنه يذكّر بمهمة متممة. ان مخيلة الشعوب - كمخيلة الافراد - تلعب دورا هائلا في كل نشاط حقيقي. وتحتاج الى ان ترتاح على قمة. حتى ولو كانت قمة محطمة.

وفي بعض الاونة، عندما هبط علينا السوريون من الشرق - كوكبات دبابات - وذلك بعدما اعطتهم الولايات المتحدة الضوء الاخضر. وتخلي

عنا العالم كله تقريبا . كنا نشعر عبر الفشل السياسي ، وعبر صد العرب ودفع دمشق الجاف . انه يجب الاعداد لنيطرة الجماهير اللبنانية والعربية على المستقبل .

وكنا ولا نزال مقتنعين بأننا نقاتل من اجل الملأ كلهم ومن اجل كل العرب ، وان « الانظمة السياسية » التي تعاني من الصعوبات لن تستطيع ـ وان سجنت شعوبها وجردتها ـ ان تؤخر بزوغ الفجر طويلا .

ونعود الى نقدنا الذاتي ونقول لقد عللنا انفسنا باوهام حول موقف الشعوب العربية والانظمة التي تحكمها .

لقد كنا نقاتل من اجل الجميع وباسم الجميع . ولكن كان يبدو ان العرب يريدون تجاهل ذلك . وكانت غالبية الانظمة تبدو وكأنها تريد ان تردع شعوبها بمختلف الوسائل عن مساندتنا ـ ولا أقول متابعتنا .

كانت الانظمة تفعل كل ما في وسعها لخداع شعوبها . وكان البرجوازي ـ النامي في نفوس مسؤولي بعض الانظمة لا يريد ان تزعج عليه مغامرتنا الصغيرة . « مخططاته السياسية المسكينة » . فالسياسيون . والقادة العرب . ـ بل وشعوبهم كذلك في كثير من الاحيان ـ غالبا ما يعوزهم الروح الانساني الذي يصنع عظمة مصائرنا .

فهم ليسوا سوى ولاة مقاطعات . شأن ما كان الامر في اخر ايام الخلافة الوهمية في بغداد او القاهرة . ففكرة الدولة بمعناها اليوناني ـ الروماني وبمعناها الحديث . غائبة بصورة دائمة تقريبا عن اهتماماتهم . وغالبية هذه الانظمة هي صورة رعناء مشوهة وقحة عن الانظمة الشيوعية من جهة وعن الديكتاتوريات العسكرية في اميركا اللاتينية من جهة اخرى ، حزب واحد . ايديولوجية واحدة . مخابرات . احتقار حريات وحقوق الانسان . طريقة تنظيم وبناء الاحزاب . الشعارات الخ ... ولكن بدون الانطلاقة الثورية الحقيقية ـ التي يبدو ان غالبية الانظمة الشيوعية فقدتها ـ وبدون حتى الفكر الثوري الخلاق . فماذا تفعل بموطنك الا ان تفكر به ؟

لقد مضى عبد الناصر حقا . ولكنه مضى مضي الاعصار وعبر عبور النيزك . ولقد شعرت الشعوب العربية بالصدمة . وادركت ما فيها من استشارة للامجاد . ولكنها صفقت وما احتذت .

وكل هذا العالم الذي يعج بأنظمة السرايات . والرؤى المتهافتة والتقاليد القومية والثروات النقدية والزراعية يحتاج الى ربما فريدريك الثاني او بطرس الاكبر . او على الاقل الى بسمارك .

واذا كان الذي اسماه ارنولد توينبي ببسمارك العرب قد فشل في مهمته فلأن القبلية العربية والخصوصية المحلية ونزعات الولاة وضيق الافق قد ظفرت به وانتصرت عليه .

واما الان فاننا مهددون بما اسميه التأمرك السياسي والاقتصادي او الانحطاط الى براغماتية الماضي التي كانت على الاقل . غالبا ما تبدو . وهي تستلهم بعض المبادىء .

والحال هو ان الامركة ـ ربما كانت حسنة بالنسبة الى اميركا ـ ولكنها قبيحة في التصدير . ومضرة حقا بالنسبة لبقية الامم . فاوروبا ضائعة فيها وشعوبها خسرت روحها من جرائها .

وتعجب عندما تفكر بأنه لم يقدر لشعب او لامبراطورية في التاريخ كله ان تتمتع بما يتمتع العرب به من ثروات مالية وقدرات طاقوية . وانه ما من شعب ولا من امبراطورية حتى وقتنا الحاضر تصرفت بذلك بمثل هذا السوء ...

ثم ان موقف التغير الفجائي وتبديل الاتجاه من قبل النظام السوري ازاءنا كان مثار دهشتنا . فقد كان ذلك قمة في اللامنطق . لأننا كنا نحسب ان السوريين سيكونون اكثر تحفظا . واوفى حصانة وانسجاما مع مبادئهم وفي سلوكهم .

ولا جدوى في الاطالة حول هذه النقطة . لكن ذلك افسد حساباتنا وتحدى تحليلاتنا . او كما قلت مرارا لبعض من اصدقائي الماركسيين ، انه ما من منطق جدلي في الشرق العربي يمكن ان يطبق بمفرده بصواب .

فلا بد لجدلية الاضداد . من مراجعة عميقة . ومن اصلاح او تتميم ، عندما يتعلق الامر بتحليل الاحداث او الحكم عليها في البلاد العربية حيث يسود اللامنطق واللاعقلانية .

ولا بد من جعل كل جدلية مطابقة للعصور وللشعوب . فجوهرها يظل صحيحا ولكن تطبيقاتها تحتاج الى اغناء . او بتعبير اخر الى تلوين وان ترد الى الوقائع المتوجسة . وان تؤخذ كأمر نسبي . وفق الزمان والمكان والظروف .

وثمة خطأ اخر ارتكبناه وكان . بالمناسبة . مميتا . وهو اننا لم ننظم انفسنا باكرا في ادارة مدنية فعالة . ذلك ان المهمة كانت تبدو فوق طاقة الانسان نظرا لوجود المنظمات الفلسطينية المتباينة والمختلفة (وخاصة في بيروت) وكذلك بسبب تكاثر الاحزاب والفصائل اليسارية وتناحراتها المستورة ونزعتها الى « الظهور على المسرح » وفقدانها في غالب الاحيان للحس السياسي .

ويضاف الى ذلك غياب خطة رئيسة . وفقدان القبول بحزب قائد لانعدام التكامل الكافي ، كان ذلك اشبه بسوق الحواة . فكان لا بد من القيام بجهد عريض من اجل ترتيب وتنظيم هذا كله . ولكن لعل الارادة اعوزتنا . ولعل شعورا اعترانا بأن هذا كله امر عابر عارض . ثم ان انهاض تنظيم كان يعني ان نهتم بالجملة والتفاصيل وبالروح وبالمنهاج في آن معا . اذ بدون ذلك ما كان لأي جهد ان يفضي في الشرق الى شيء .

وثمة خطأ اخر ايضا هو اننا . لم نعرف كيف نثير اهتمام الشعب باصلاحات اقتصادية واجتماعية . كنا نستطيع ان نفعل ذلك قبل دخول السوريين . وكان ذلك رأيي ، تقسيم الملكيات الكبيرة في كل مكان . في عكار وفي البقاع . وفي الجنوب وفي جبل لبنان . ثم يتبع ذلك تقسيم طوابق البنايات بين غير المالكين . وتمليكها ملكية مباشرة وبوضع اليد . وثمة

اصلاح اخر كنت احرص عليه هو ذلك المتعلق بايجارات الشقق على اساس التقدير الصحيح اي ان تكون قيمة الايجار بنسبة ٨ الى ١٠ بالمئة من كلفة بناء الشقة او المبنى بدون اعتبار للقيمة العقارية للارض ٠ او ما اسميه بالثمن العادل ٠

اما ايجار المحلات فيقدر ضمن نسبة تتراوح بين ١٥ و ٣٠ بالمئة مثلا ، بحسب موضعها وموقعها ٠ ومن شأن هذا المنهاج ان يتيح الغاء واحد من اهم اسباب التضخم في الاثمان والمداخيل والاجور والايجارات ٠ وكان ينبغي الشروع في اصلاحات اخرى ولو لوضع العرب ولبنان العتيد ، لبنان الجديد امام الامر الواقع ٠ فقد كان من شأن هذه الاصلاحات ان تجبر التدخل العسكري السوري نفسه على التروي ، ان لم تصرفه بالكامل ٠ وكنا سنلقى تأييدا شعبيا اكثر كثافة واعظم عمقا وأشد استحواذا ٠

وكان ينبغي انشاء منظمة لانجاح هذه المهمة ٠

ذلك ان نشاط الاحزاب الباحثة عن المؤيدين سيفضي من دون ذلك الى مزايدات ثم الى فوضى انتهازية ، كما كان الحال في تشيلي سلفادور اللندي الذي كان ضحية اليسار المتطرف الصخوب الشغوب بمثل ، بل بأكثر مما كان ضحية اليمين ٠ فعندما ينشأ حزب ، وخاصة اذا كان حزبا ذا ايديولوجية مقفلة ، فكأن كنيسة تنتصب وتنهض في الحال ، فأشر اعداء الاحزاب هم اعضاؤها انفسهم ٠ وبهذه المناسبة ، فان احد اصدقائنا من منظمة العمل الشيوعي لفتني الى ان من شأن اصلاح معدلات الايجار ، وفرض ثمن عادل له ، ان يؤلب علينا مختلف المواطنين البيروتيين الذين هم في غالبيتهم الساحقة ملاكون وليسوا مستأجرين ٠ انها مفارقة من مفارقات هذه المدينة ذات الالف وجه ٠

وثمة خطأ اخر - ليس بأيسر الاخطاء ولا اهونها - هو ان بعض الاحزاب الماركسية كانت تتصدر المجلس السياسي المركزي بصورة ملفتة للنظر ٠ ولم نفكر بالاستغلال الدنيء الذي يمكن ان يقوم به بعض الماكرين لذلك ، لا سيما اليمين اللبناني واصدقاؤنا السوريون ٠ فلم تلبث صرخات التحريض ضد « الشيوعية » الا قليلا حتى بدأت تتعالى ٠ ثم اننا لم ندرك كم كان المسلمون معادين للشيوعية ٠

ولا بد أن اضيف الى هذه اللوحة ما يلي :

كانت معاداة اميركا ، بذلك العداء (الدغمائي) الجامد ، المستلهم من الحركات الماركسية او القومية ، متفاقمة جدا ٠ فالناس المشبعون بالايديولوجيات ينزعون الى رؤية الاشياء على نحو قاطع لا تفاوت فيه ولا تمييز للتلاوين - ثم خصوصا - ولا فهم للتجربة الاميركية ، ولا ادراك لما تنفرد به ، ولا معرفة بقوانينها الداخلية ٠

فهناك دائما اشخاص يحللون لك الوقائع او يرسمون المستقبل على النحو الذي كان سيفعله اي ماركسي بالنسبة للاوضاع الاوروبية او العالمية منذ قرن او قرن ونصف ٠

وكان التعبير عن هذه المواقف في الصحف عنيفا ويؤدي في بعض

الاحيان الى ازعاج ومضايقة عملنا السياسي ٠ لكنا نضطر في غالب الاحيان الى تصحيحه علنا في وقت كنا محتاجين فيه الى الملأ كله انقاذا لأنفسنا وانقاذا للبنان ، ولوحدته وديموقراطيته معنا ٠

وكانت بعض الحركات الاخرى لا تجد وسيلة لتفريغ مشاحناتها مع هذا النظام العربي او ذاك ، الا حين يكون السكين على اوداجنا ٠ فولاءات هذه الاحزاب كانت تفقدها الاستقلال ووضوح الرؤية ٠

وعلينا ان نأسف كذلك للبلبلة التي زرعها الفلسطينيون وكل الاحزاب تقريبا ، وللسلب الذي لم يوفر شيئا من الاشياء ، وللنحو منحى التنافس على الطرائد والغنائم ٠

وانه لغريب حقا كم بدا هذا الجيل الحديث الفتي مخيبا للآمال من هذه الزاوية على الرغم من اخلاصه وصدقه وبطولته ٠

كانت المعركة بالنسبة الى الشباب كلعبة من اللعب ، فكانوا يتعاطونها بفرح تعاطيهم لاحدى الرياضات ٠ **الا انهم غالبا ما كانوا يتصرفون ازاء الملكية العامة والخاصة تصرف البدو حين يطلبون المرعى او كالبوهيميين** ٠ فقد افسدتهم الايديولوجيات كما افسدتهم التربية في الاسرة والمدرسة ٠ فسرقة سيارة تسمى عندهم « شد سيارة » وسرقة منزل او سجادة - وهذا هو خطر الايديولوجية اليسارية غير المستوعبة - يسمى « مصادرة » ٠ ولا بد من ان تكون هناك لائحة كاملة من البدائل العقلية لكافة خطايا الانسان الرئيسية ٠ كان ذلك امرا بشما مقززا ٠

وكنا نشعر بأنفسنا ونحن نتجرجر وراءهم كمن يتجرجر في مجرور من الوحل ٠

وكان ينبغي لنا ان نرد على ذلك ، وقد رددنا بشدة مرارا ، ولكننا كنا في حاجة الى هؤلاء الصبية الغريبين ، الناضجين للمعركة ٠ واعترف اني كنت احبهم كثيرا بالرغم من معايبهم تلك جميعها ٠ فهم على الاقل لم يكونوا مرائين خبثاء ٠ ولكن لا بد من معالجة هذا الجرح ، لأنه يوشك ان يدمر في المجتمع خير ما فيه ٠

وعلينا ان نأسف ايضا لسوء تنظيم المعارك - ولا بد ان الفلسطينيين يشعرون بذلك الان مثلنا بعد فوات الاوان - وان نأسف كذلك لسوء قيادة هذه المعارك ولا سيما في البداية ٠ فقد كان المقاتلون عشائر وافخاذ قبائل تقوم بالهجوم ٠

وقليلا ما كان شاغل التجانس والتماسك والاعداد المناسب للمعركة وانجاز الامور في مواقيتها يشغل القوم ٠ فقد كنا بعيدين عن التنظيم على النحو الاوروبي ٠ ولولا هذا الاختلال لقصرت المعركة وهبطت مدتها الى النصف ٠

وكان هناك من الجهة الاخرى ما اسميه « بالخطوة الراقصة » التي كان الفلسطينيون او السوريون مجتمعين يفرضونها علينا لدى نهاية كل جولة ، فنعود عودة الراقص في كل مرة الى نقطة الانطلاق وذلك في حين تكون القوى الوطنية والفلسطينية قد تغلغلت في الصفوف المعادية الى

اعماقها . فقد كانوا يتعاملون مع هذه الحرب كما لو كانت مباريات او اشواطا رياضية متتالية . وفي الشوط الثاني يكون الانعزاليون قد استردوا انفاسهم وراحوا . يهاجمون من جديد فتضطر قواتنا لبذل الثمن نفسه - بل واعظم منه - دما وجهودا لاسترجاع الحيز ذات الشارع نفسه والمبنى عينه الذي فقدته في كواليس السلام . ولدى اقل انتصار نحققه (لأن الكتائب والشمعونيين وزمرهم لم يربحوا معركة ولم يتقدموا سنتيمترا واحدا) كان الانعزاليون (ولا سيما الكتائب الذين كانوا ، شأن الرئيس السابق فرنجية على صلة حميمة بالسوريين قبل الحرب بسنتين او ثلاث) يوجهون نداء عاجلا وصرخة استغاثة الى السوريين - الذين كانوا مستعدين لتلبية النداء ابدا ، فيتوجهون الى بيروت - بطلب من الرئيس الاسد - للفصل بين المقاتلين ومن ثم لاجبار القوات الوطنية والفلسطينية واليسارية على الانسحاب من المواقع التي احتلتها وظفرت بها عنوة . فكنا نحتج عبثا .

ذلك اننا لم نكن نملك في تلك الحقبة اسلحة ثقيلة لنواصل القتال او لنتشبث بالاماكن والمراكز التي كسبناها . وكان ثمة لعبة توازن قوى تتم عبر حاجز تسليم الاسلحة والذخائر المودعة في سوريا . وكذلك فان حرماننا المنظم - بل المقصود والمخطط على ما يبدو لي - من الاسلحة الثقيلة كان يجعلنا مرتهنين للفلسطينيين الذين كانوا يتصرفون بدورهم بالتنسيق والاتفاق مع السوريين . ولا تزال مختلف الاسلحة الثقيلة تقريبا ، من تلك التي اشتريناها او ارسلت الينا من قبل بعض الدول العربية محتجزة في « مستودع قسري » في سوريا مع كمية ضخمة من الاسلحة الخفيفة .

ومن جهة اخرى فان الاسلحة التي كان يفترض بنا تسلمها ، غالبا ما كانت تصادر عندما تصل الى لبنان من قبل اصدقائنا وحلفائنا الفلسطينيين في فتح . وكان ذلك يجري بسرية كبيرة ومن دون اخطارنا .

وعندما كنا نعرف بهذا الاختلاس فان الاعتذارات كانت تنهال علينا بالالوف ، ولكن بدون ان يصلنا نصيبنا بتاتا او انه كان يصلنا ناقصا .

كان ثمة ضرب من الوفاق الضمني بين البعث السوري وبين بعض كبار القادة الفلسطينيين وربما بينه وبين بعض الاحزاب : اولا ، لعدم اتاحة الفرصة للحزب التقدمي الاشتراكي ولكمال جنبلاط في ان يصبح قوة عسكرية حقيقية وعنصرا مستقلا وحاسما في الحرب وثانيا ، لعدم تزويد حلفائنا من الاحزاب - وخصوصا الاحزاب اليسارية - بكمية كافية من السلاح بحيث تصبح على الاقل ذات فاعلية عسكرية .

ومع هذا ، فان « فتيان » مختلف الاحزاب قاتلوا بطاقة ونشاط ملحوظين على الرغم من سوء تجهيزهم وقلة تموينهم . بل وضآلة تدريبهم . كانوا يقاتلون قتالا يواجه واحدهم فيه خمسة واحيانا عشرة اشخاص ، رادين العدو على عقبيه - بما في ذلك الدبابات والجيش اللبناني - مجبرينه على الفرار مستولين على جزء من سلاحه او ذخيرته واضعين يدهم على مبان جديدة واراض جديدة .

أما الانعزاليون ، فانهم على الرغم من تدريبهم الطويل في داخل البلاد

وخارجها ، وتشكيلات الكوماندوس العديدة لديهم ، والشراسة التي اكتسبوها عبر الاغتسال بحمامات دم حقيقية من دماء الخراف - والتي يبدو أنها طريقة تدريب أميركية - وبرغم سلاحهم المتفوق ومدافعهم ومدرعاتهم ودباباتهم وبرغم تعصبهم «كصليبيين» مزيفين . فانهم ظلوا مهزومين أبداً . فقد كانوا من افضل القتلة حيث تؤاتي الفرصة ولكن من اردأ المحاربين . وانما كان تنظيمهم الخالي من كل عيب تقريبا هو الذي كان يعطيهم الفعالية .

وعندما كانت الاسلحة الثقيلة تظهر في السوق ، فاننا كنا نتسارع لامتلاك بعض منها ، الا أنه سريعاً ما كان الشارون الذين يرسلهم أصدقاؤنا الفلسطينيون يستولون على الباقي .

ولعلنا كنا - الحزب التقدمي الاشتراكي وأنا - أقل القوم حقا بالتشكي من هذه الاوضاع ، ذلك اننا كنا نحصل على كل حال على «شيء» مما كان مرسلا لنا .

فأما بالنسبة الى الاحزاب الاخرى فانه كان بينهم وبينه وخز القتاد .

وعندما أفكر بهذه الحرب فاني أدهش وأقول أي « خان » كانت .

فلطالما قدمنا نحن وحلفاؤنا من الاحزاب مشاريع تنظيم ، لكن بغير جدوى ، ذلك أن الفوضى - التي ربما كانت ملازمة للطبع العربي - كانت تظفر بنا أخيراً على الدوام . غير أن مثاليتنا ، وصدقنا مع أنفسنا ومع الفلسطينيين والشباب ، كانا يدفعان بنا الى تتميم هذا الصراع بنصر حاسم . كما ان حقائق هذا البازار الداخلي الساطعة كانت تدفعنا الى السعي لانهاء الحرب بأقصى سرعة ممكنة خاصة وان شبح عمليات القتل بالجملة كان ماثلا دائما عبر ارتكاب الانعزاليين لها بحق السكان المدنيين ونسف منازلهم وفرض التهجير عليهم .

وكم من مرة صحت بالسوريين والفلسطينيين قائلا «يا عمي أعطونا اللازم لكي نخلص أو افرضوا على فرنجية والكتائب وقف هذه الحرب البشعة والقبول باتفاق فننتهي من هذا المطهر » .

ولا بد لنا من القول أنه كانت لدى الفلسطينيين مشكلة امدادات بالسلاح والذخائر . أو انهم على الاقل كانوا يقدمون المسألة ، وبصدق بالغ ، على هذا النحو . غير أن المرء **يشعر وكأن العالم كله كان موافقا على عدم اتاحة فرصة الانتصار أمام الحركة الوطنية ، أو حتى على أن تربح معركة حاسمة .** كانت عين رعاية دمشق تشفق علينا بحيث أن جرس الهاتف كان يرن عشر مرات في الاسبوع ، عارضة التحكيم السياسي علينا أو فارضة اياه .

ومصر نفسها راحت تشيد بسليقة ووطنية السيد بيار الجميل ..

ولقد كنا نريد اقناعهم بحقوقنا الواضحة الجلية ، الا أنهم كانوا يبدون مقتنعين بوجهة نظر أخصامنا .

وذات مرة قال وزير وطني بعيد النظر في دولة الامارات العربية وبكثير من النفاذ لرفيقنا الاشتراكي عباس خلف ، الذي كنا قد أرسلناه

في مهمة الى هناك ، « ماذا بكم في لبنان ؟ اراكم تطالبون بالديموقراطية ، افلا تعلمون اذاً ان الدول العربية لا تريد الديموقراطية بأي حال ولا بأي ثمن ·
وتقترحون علمنة القوانين ومؤسسات الدولة بينما لا يريد ذلك أحد في المنطقة ·

« وبعد هذا كله تطلبون المعونة السياسية والادبية من الدول العربية ···
ولعل خطأنا هو اننا لم نفهم أو رفضنا ان نفهم ذلك في حينه · وسأنتقل الى أخطاء أخرى لان ذلك حديث لا ينتهي · ولكننا على كل حال قاومنا ونشعر أننا ، أدبياً انتصرنا ـ على أنفسنا على الاقل ·

لقد توصلنا الى أن نشرف على ٨٢ بالمئة من الاراضي اللبنانية ، وعلى كل المدن تقريبا ·

وعندما بدأت الحاميات والمواقع تتساقط بين أيدينا ، وخاصة عندما كسبنا موقع حمانا بأسلحته الثقيلة وذخائره ، وعندما أصبح الانعزاليون ، الحائرون اليائسون ، على وشك رفع العلم الابيض ، وعندما أصبحت البلدات الكبرى في كسروان كحراجل وريفون وقرى المتن كبسكنتا والشوير وبيت مري تحت مرمى نيراننا ، وعندما لم يعد للناس حتى في بكفيا من تفكير الا في السلام ووقف الحرب ، عند ذاك ظهر فيلق من الجيش السوري فيه مايتا دبابة في المصنع ودخل أراضينا بعد أن دعاه الرئيس فرنجية الذي كان يعاني من ضيق شديد ووضع ميؤوس ·

وكانت زحلة وزغرتا على وشك الاستسلام ، وبموازاة ذلك فان السيد دين براون ، الموفد فوق العادة من قبل الرئيس فورد ، كان قد نزل بيروت قبل ذلك ببضعة أيام ، ولعله كان يحاول أن يستبق ، على الطريقة الاميركية ، مهمة السيدين كوف دي مورفيل وغورس في لبنان ، ومعهما تدخل عسكري فرنسي محتمل ·

ولقد تذكرت تذكراً لا يخلو من مسحة مزاح وأنا أستقبل السيد براون ـ الذي بدا متفهما كثيراً للمشكلة اللبنانية ـ مهمة الوزير التركي فؤاد باشا الذي أوفده البابا العالي الى لبنان عام ١٨٦٠ · وأعترف أني قمت ـ بالرغم من تطبيل الصحف الخفي والدعاية الوطنية في لبنان ـ بمباحثات جيدة مع السيد دين براون كانت خصبة في نتائجها · ونحن مدينون له لاصغائه بانتباه لنصائحنا فيما يتعلق بجمع مجلس النواب لتعديل الدستور والاسراع بانتخاب الرئيس الجديد للجمهورية اللبنانية ·

وكانت الصاعقة على ما أتذكر ، وكذلك نواب فرنجية وشمعون يعارضون أجتماع المجلس ·

وهددوا بقصف مكان الاجتماع بالمدفعية الثقيلة وصواريخ غراد · وقد شرع باجراء اتصالات مباشرة مع فرنجية وشمعون فأذعنا · وبقيت هناك معارضة الصاعقة (السورية) فكان أن ارسل الرئيس فورد برسالة بهذا الخصوص الى الرئيس السوري الاسد ·

وقد عقد اجتماع المجلس، واقر مشروع تعديل الدستور باغلبية ساحقة·

ثم طالبت كذلك بتدخل مماثل من اجل عقد اجتماع للمجلس يخصص لانتخاب رئيس جديد· وقد عقد الاجتماع· وكائنا من كان خليفة السيد فرنجية فقد انقذت على الاقل وحدة الدولة اللبنانية· ذلك انه لا بد من القول كم ان السوريين كانوا متمسكين برجلهم الرئيس السابق· لا بل انهم غالبا ما كانوا يرددون امامنا بأنه ربما جدد ولايته·

وبطبيعة الحال، فاننا كنا دائمي الانشغال بمناقشة هذه المشاكل مع ممثلي السوفيات وفرنسا وعدة من البلدان العربية كمصر والعربية السعودية والعراق والجزائر والكويت وليبيا وتونس والمغرب والسودان، وحتى مع منظمة التحرير الفلسطينية وكل اصدقائنا من المنظمات الفلسطينية الاخرى·

وكان لا بد كذلك من تلافي تغلغل اعمق من قبل الجيش السوري في لبنان وتلافي نتائجه·

وقد مارس السوفيات ضغوطا سرية فعالة على سوريا في هذا الاتجاه· بدون ان يكسروا رباط الصداقة والتعاون الذي يصل بين موسكو ودمشق· او قل ان قادة الامة الاشتراكية العظمى كانوا يفترضون ذلك على الاقل لان رأينا كان مختلفا ···

وكنا نشعر بالموقف السوفياتي عبر الارتباك السائد، وهو يتصلب ببطء لكن بازدياد· وبطبيعة الحال فان وتيرة الحوادث كانت تسرع وكان لا بد من اللحاق بالزمن الضائع· ومن هنا كان قلقنا ونفاذ صبرنا·

ومن اخطائنا كذلك في هذا العالم العربي الاسلامي هو اننا افرطنا في الاعتماد على امكان حدوث تغير في الموقف غير الجاد واللامبالي الذي كانت تقفه بعض الدول العربية من كل ما يتعلق بقضيتنا· وقد ظللنا نأمل ابدا لكن شيئا لم يحدث· فيا له من عالم عربي، ويا الهي اي قصر مرايا، مزيف للحقائق هو· فالرأي العام الاوروبي كان في بعض اللحظات يدعمنا بأكثر من غالبية الدول الشقيقة· ثم اين هي التقدمية في كل هذا الخليط وجميع تلك الاضاليل؟

وثمة خطأ آخر ايضا، هو اعتقادنا بتدخل سياسي اوروبي ـ او بتدخل تقوم به بعض الامم الاوروبية ـ لصالحنا، في حين ان الدولتين العظميين كانتا حريصتين على ان تستبقيا المشرق العربي لنفسيهما فقط·

كما اننا اخطأنا كذلك حين قصرنا في تنظيم اتصالاتنا الخارجية ودعايتنا في العالم ـ بل وحتى في العالم العربي· اما الخصم فقد كان احسن تنظيما منا بكثير· وكنا نعيش، ولاسيما في بيروت، بين ألسنة متبلبلة تبلبل ألسن الناس ـ حين سقوط صرح النمرود في بابل(●) · وكان

● التشبيه بالفرنسية توراتي وبالعربية من الطبري م ١ ص ٢٨٩ ط · مصر (الترجمة)

ينبغي لنا ان نأخذ بعين الاعتبار «اصنام» بعض الرؤساء التقليديين الذين لم يفهموا من المسألة اللبنانية شيئا. ولاتزال افكارهم وخواطرهم تعيش متخلفة عن الحاضر بنصف قرن على الاقل.

وهم لا يفعلون شيئا تقريبا ذلك انهم عاجزون عن القيادة ولكنهم اكثر انانية وغرورا وعجبا من ان يخلوا اماكنهم لرؤساء اكثر كفاءة.

وماذا يفعلون؟ انهم يمضون اوقاتهم في الهذر. فيجتمعون وينفصلون ويثرثرون ثرثرة ؟ « الطانطات » (●●) الثمانينيات في حي السراسقة . وليس لديهم سوى بقايا افكار سياسية فجة وتعوزهم أية فكرة تقريبا حول الاصلاح والدولة والدستور .

وهم على اي حال لا يرغبون في ذلك لان اصلاحا كهذا الاصلاح سيناهض مصالحهم وتبخترهم وزهوهم الطاووسي.

ثم ان هذه الشخصيات كانت تكثر من الضجيج دائما وتقول، «لماذا لا يحارب جنبلاط، والحزب التقدمي الاشتراكي والشوفيون، وسكان الجبل هناك حول بيروت؟ فتدخلهم هناك سيكون حاسما وننتهي من هذه الحرب القذرة ومن قصف بيروت؟».

أما زعماء الشيعة التقليديون، او بعض منهم، فانهم كانوا يتمتمون احيانا وبصوت خفيض بهذا الكلام ذاته. وذلك في الحين الذي كان فيه مئات من رفاقنا يقاتلون على كل الجبهات في بيروت وطرابلس وزحلة والضنية الخ...

والواقع، هو اننا افلحنا في السيطرة سلما وبصمت كامل، على ثلاثة اقضية كبرى هي قضاء الشوف وعاليه والمتن الاعلى ونصف جبل لبنان تقريبا من دون اطلاق طلقة. بل باتباع سياسة مهابة سياسية وعسكرية ومعنوية استطيع ان اصفها بالدينامية واللباقة. وهكذا فقد انقذت بيروت من التطويق لكن السنة السوء ظلت على ثرثرتها ونميمتها. ثم كان لا بد في احدى الآونة، من ان نرفع القفاز قليلا، فنشارك في هذا؟ الدفاع العادل» عن حقوق الشعب اللبناني الانسانية، فنشعل «حرب الجبل» حتى قبل ان نستعد لها استعدادا مناسبا، اي قبل ان نستلم نصف مخزوننا من السلاح والذخائر من سوريا. وبعد ذلك باسبوعين، كنا مؤهلين لان نذهب الى الحرب ونحن افضل تجهيزا واوفى تموينا، وكنا اهلا حينذاك لكسب «المعركة الحاسمة» قبل التدخل العسكري السوري الذي لم نكن والحق يقال نتوقعه... كما لم نتوقع ان تقطع عنا سوريا الامداد بالسلاح والذخائر «سلاحنا وذخائرنا».

ولا بد لي اخيرا من ان اعترف بقرفي من حماة الانتهاكات اليومية القذرة ومن المجازر الموقعة على غرار مجزرة سانت بارتيليمي، وبتقززي

●● الخالات .

من مناورات ودسائس وتلاعبات وتعللات السياسة. ومن الجهة الاخرى فاني لما كنت لا املك القوة الرئيسية لانها كانت ملك منظمة التحرير الفلسطينية، فلذلك لم اكب بنفسي على تنظيم الصراع ان على الصعيد المدني او على الصعيد العسكري كما كان ينبغي لي ان افعل.

فقد كان الامر خليطا عجيبا من المزايدات المجنونة، طفت فيها، وبأي صفار، كل ضحالة تحزبات الاحزاب والفصائل على السطح. وعلى كل حال فان غالبية هذه الاحزاب والفصائل كانت توالي فتح او المنظمات الفلسطينية الاخرى.

انه لغط وضجيج تود ان تنأى بنفسك عنه بالكامل. ولا اكتمك اني كثيرا ما تصرفت بانفعال.

- انتم رئيس حركة تقدمية ذات طابع عسكري وكانت ترسل يوميا ابان الاحداث بقنابلها الى الجهة الاخرى لتتلقى نيرانا بمثل نيرانها من الخصم كل يوم. ما هو رأيكم بالعنف في السياسة؟ اليس ان العنف هو - في حالة لبنان خاصة - آية بينة على فقدان محزن لملكة التخيل؟

● انا لا احب العنف، واجلالي لغاندي معروف لدى كل المحيطين بي. وانا اعتبره نبي العصر الحديث الحقيقي لانه اعاد الاخلاق الى السياسة في الحين الذي سعى فيه السياسيون - غربيون وشرقيون - الى ابعادها عنها. لكني اعتبر كذلك انه متى كان لديك مثل اعلى وكان هذا المثل يتعرض للتهديد، اي اذا كان عليك ان تختار بين الخضوع والعنف، فانه ينبغي لك اختيار العنف.

- لكن يكون ثمة، وسائل اخرى تتوفر في غالب الاحيان..؟

● كثيرا ما يضطر المرء الى استخدام العنف المسلح لانقاذ البشر ولانقاذ البلاد، ولانه لا يكون في اليد حيلة اخرى.

- افلا يزعجك ذلك ؟

● الحق اني اعيش لمثلي، ولا تنسين كريشنا الذي كان عنيفا، وغير عنيف في آن معا...

- ان الوضع هنا يصعب على الفهم، اذ يبدو للمرء ان العنف قد «تأسس» وأصبح ضربا من المؤسسات؟

● لقد تلافينا العنف خلال اثني عشر شهرا، وبكثير من الشدة والحزم. غير ان في الجانب الآخر اناسا في نهاية الامر، سممتهم الروحية الصليبية منذ عشرين او ثلاثين سنة.

- هل يراودكم الانطباع الشخصي بأنكم قاربتم واوشكتم مصيرا وطنيا وعربيا عظيما؟

● ربما ! فنجاحنا في لبنان كان سيثير موجة عريضة تنتشر على

سطح مختلف البلدان العربية تقريبا. وكنا على الاقل عمقنا وأمنا استقرار نظامنا السياسي الديموقراطي وفتحنا كوة - كانت حتى الآن مقفلة بالكامل تقريبا - على تطور اقتصادي واجتماعي...

وكانت الحركة اليسارية ستتعافى ويعاد بناؤها بصورة مقابلة ومعارضة لكافة التشكيلات الديكتاتورية التي تسود حيثما كان في العالم وخاصة في العالم العربي.

فالعرب بحاجة الى ان تفتح لهم نافذة على الحرية، فهم يختنقون داخل بعض الانظمة - الزنزانات التي اخطأ القوم في نسخها عن مفاهيم الديموقراطية .

وبرنامجنا السياسي يتحاشى الديكتاتورية في شتى صورها واشكالها مصححاً في الحين ذاته كل مساوىء الاختلال وتحطيم القيم والفوضى النسبية التي تعبث في بعض الانظمة التي تطبق الديموقراطية على الطريقة الاوروبية ، ومؤقتا سلطة قوية للدولة - فالقوة حق من حقوق الدولة.

انه فجر صيغة ديموقراطية جديدة، وديموقراطية اعيد تفكرها وتدبرها.

ثم ان نجاحنا كان سيحرر العرب على صعيد آخر ، هو صعيد العبودية والامال الكاذبة التي تعلقها بعض الانظمة العربية على الولايات المتحدة واحيانا على الاتحاد السوفياتي. فالمطلوب منا في النهاية، هو ان نكون انفسنا وان نتمم مصيرنا الجماعي لا ان نتنكر في ثياب مختلفة لا تليق بنا.

وانا شخصيا انسان ينتمي الى القوة الثالثة، او بالاحرى الى الاتجاه الثالث نحو التقدم والتطور، اي ذلك الاتجاه الناتج عن نقد وتمييز التيارين الاخرين القائمين وعن التوفيق بينهما ، عنيت تياري التأمرك و«التسفيت» اللذين ينسخ احدهما الآخر على اكثر من صعيد.

وهذا الموقف هو موقف صعب لان المدنية تقوم، دائما تقريبا، على الانتحال، وكما اسلفت القول، فان الانسان مقلد ممتاز، وروح التقليد مقسمة على العالم كله بالقسطاس. ومفاهيم التقدم الصناعي والاقتصادي المزيف، هي المسيطرة الآن، انه التقدم، الذي لا حد له ولا عقل فيه، نحو جهنم المجتمع الاستهلاكي . واساس ذلك كله وقاعدته هو الخطيئة المميتة في الاعتقاد بأن للانسان حاجات لا حد لها ولا عدد يحصيها، وتتعدى الحد الامثل للحاجات الطبيعية والمحددة بشكل دقيق.

انه شكل جديد من البعثرة البسكالية او الشيطانية - لا فرق - وتستجيب لفكرة خاطئة عن الطبيعة البشرية ومصائر الروح.

ونحن سابحون عكس التيار، او متخلصون من التيار المسيطر لنبلغ

الارض الصلبة. الا ان ذلك رهان تنبغي المراهنة عليه، سيما وان الاصوات التي تنادي بالعودة الى العقل والقيم، وبالاقتصاد بالاشياء وبالناس - بالمعنى القديم لهذه الكلمات - تزداد عددا وقوة، وتلقى المزيد من الآذان الصاغية.

والتيار الحضاري الثالث، والسلوك العملي - اللذين ينبغي ان يكونا حضارة وسلوك الشرق المنبعث على ثقافته الماضية وحضارة، وسلوك اوروبا المتعلقة والعائدة الى وعيها بانسانويتها وبدورها في العالم - لهما تضامينهما على صعيد السياسة الخارجية وعلى صعيد السياسة الداخلية والادارة الداخلية ، كما وعلى صعيد الفكر والحياة نفسها. غير ان كافة امم العالم الثالث، قد اكتفت بتكتيك الحياد الايجابي في سياستها الخارجية، بدون ان تفهم لا مدلوله، لا بواعثه الحقيقية.

ثم ان نجاحنا في لبنان، كان سيؤدي في المحل الثالث - ولو بدا ذلك قليل الاهمية ظاهرا لصغر البلد - الى فتح السد الذي طال اغلاقه، عنينا سد القومية العربية، التي تحمل بذور الفكرة - التي ليس من فكرة عقلانية وواقعية سواها - عنينا فكرة وحدة الشعوب العربية الفيدرالية، بما يتعدى الترددات والمشاريع المزيفة والشعارات اللفظية الخداعة، وكافة انواع الالاعيب التي يعدها ويدفع بها مجمل الرؤساء الجامحين الواقعين بين المطرقة والسندان.

وفوق ذلك، فاننا لو نجحنا في لبنان، لكان لذلك انعكاس مباشر على الخطة المعروضة لحل المشكلة الفلسطينية - الذي يبدو حتى الآن حلا ناقصا، غير فعال وغير اخلاقي حقا.

واخيرا، فانه ليس في وسعنا ان نهمل ما كان سيتمتع به لبنان من نفوذ، بعدما يعود دينامياً، صادقا، فيتلافى المشاحنات العربية ويولي حركة التحرير الفلسطينية الدفع الذي ينبغي ايلاؤه، لها، كما يدفع باتجاه مشاركة العائدات النفطية، مشاركة فعلية وحقيقية اعظم، في عمل التحرير، وفي تقديم معونة جوهرية اوسع للدول العربية المتخلفة والى شعوب العالم الثالث، واوروبا الخ...

ذلك انه من الاجرام بمكان ان لا توضع هذه القدرة المالية في خدمة العرب والتحرير وفي خدمة الامم التي تحتاج اليها في العالم كله.

- لماذا لم تقوموا بالثورة؟

● ربما كان ذلك غلطة سياسية، فقد كنا نعتبر ان علينا من اجل مصلحة البلاد، ومن اجل عدم خلق فاصل كبير بين مختلف المناطق - تحاشي انشاء نوع من كوريا في لبنان. ولا تنسى ان هذا البلد لم ينجز بعد وحدته الوطنية والسياسية.

كنا نهدف قبل كل شيء الى توحيد لبنان ولم نكن نريد ان ينشق الى منطقتين ونظامين اقتصاديين·

وثمة سبب آخر، هو اننا كنا نعتقد، يوميا تقريبا، ان الاشياء ستنتهي وان الامور ستعود الى نصابها·

غير ان الاحداث طالت، كما ان السوريين منعونا من الحصول على نصر عسكري حاسم·

وطوقونا واحاطوا بنا، وكان لا بد من دخول القوات العربية من اجل توقيع الهدنة وتهدئة الملأ كافة· وسبب ثالث هو اننا كنا منغمسين في الصراع اليومي·

كنا بحاجة الى دعم سياسي وما كنا لنجده لدى البلدان العربية ولا لدى اوروبا ولا لدى الولايات المتحدة بل وربما ولا لدى الدوائر القيادية في الاتحاد السوفياتي· فقد ذهب سراب جنيف بذلك كله· ثم اننا كنا اكثر ارهاقا وتعبا - وربما يأسا - من ان نستطيع الشروع في امر يكون له حظ من النجاح على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي·

- كيف ترون المستقبل السياسي؟

● لست ادري شيئا· فغالبا ما تقرر الاحداث المستقبل· لكني اعتقد اني سأتجول عن السياسة بالتدريج بادئا بتمثيل دائرتي في مجلس النواب· ثم اسلك بعد ذلك تدريجيا طريق التقاعد لانصرف الى شيء آخر، الى مباحث ثقافية وروحانية تخدم السلام· وانما ينبغي للثمرة الناضجة، ان تنفصل تدريجيا لتهوى وتتم الدور، وسيأتي كل شيء في اوانه عفوا ومن دون جهد · نشاط في السكون وسكون في النشاط ، الا ان كل ذلك سواء ! واعتقد اني بعد قليل من الآن ساتخلى عن نيابتي لأني اريد ان اكون حرا · فالنيابة تثقل وتنيخ سيما عندما تشعر بأنك لم تحققها كفاية ولم تتمها · وانا اريد ان اكون اكثر سكينة مما انا الآن لاكرس المزيد من نفسي لشؤون الحزب التقدمي الاشتراكي ·

وعلي كذلك ان اهتم بنشر مؤلفات في البحث الصوفي في العربية والفرنسية والانكليزية·

وفي رأسي مشروع كبير لا ادري اذا كنت سأتمكن من تحقيقه الا وهو تصوير كل كتب المعميات والمخطوطات باللغة العربية التي لم تنشر بعد، بواسطة الميكروفيلم·

وهناك ما يقرب المليونين منها وقد سبق للدكتور زكار - وهو استاذ في جامعة بيروت العربية - ان اعد مشروعا بهذا الاتجاه وبدا ان ليبيا اهتمت به·

ولهذا، فان ثمة بعض الابحاث والدراسات في الطب الطبيعي، قديمة وحديثة . عربية وهندية تهمني كذلك· فلا بد للمرء من ان يعيش في

زمانه وان ينافس او يتعاون مع مجلات الحمية والغذاء التي يزداد عددها في اوروبا والولايات المتحدة· ولدي صديق، وهو طبيب هندي مشهور من بومباي، يفكر بالقيام بأبحاث عن الطب العربي القديم اي عن الطب الشعبي· ففي وسع المرء ان يفعل الكثير في مدى حياة، في الوقت ذاته الذي يبدو فيه كمن لا يفعل شيئا·

- افتجدون ذلك اكثر اثارة للاهتمام من ان تكونوا نائبا لبنانيا؟

- وبما لا يقاس· وشأن الكسل احيانا والاسترخاء· فقد كان الصينيون مصيبين حين قالوا انه يجب تعلم فن الكسل ومعرفة متى يجب ان تنظر الى السماء الزرقاء طيلة ساعات، وان تتأمل البحر والخضرة· فهذه مهمة شريفة وبالغة الاهمية· او لم يكن ارسطو يقول ان هدف الحياة هو التأمل المحض، «ان تفعل من دون فعل»·

- نادرا ما مضى الارستقراطيون بالثورة حتى غايتها· فهم على العموم يسرجون خيلها ، ثم يستبدلون في منتصف الطريق بآخرين ينهونها او يتممونها· او يتيح لكم موقعكم في رأيكم المضي بالثورة الى غايتها وخاصة في السياق العربي القائم؟

- الحديث عن الارستقراطية هو انزلاق مسبق الى المقولات التي صنعتموها في الغرب··· فهذا التمييز يستند الى مفاهيم ذهنية تنحل وتفسد بين يدي الايديولوجيين والسياسيين بحيث تصبح حقائق اسطورية·

اما انا فانه ليست لدي هذه المقولات الذهنية· فانا لا اشعر بأني ارستقراطي، ولا اتعرف على الارستقراطي الموجود في شخصي الذي تراه· فانا انسان وهذا كل شيء·

واذا كنت بالمناسبة فخورا بكوني ارستقراطيا، فانما بمعنى اخر، اي بمعنى التطلع الى افضل ما فينا، اي الى ما يرتفع ويضرب بجناحيه وينعتق· فثمة ارستقراطية في الروح الحرة من كل تسمية والتي هي بالنسبة الينا كل شرفنا وباعثنا على السمل والتفكير والحب والحياة·

وحضارتنا - المادية حقا من هذه الزاوية - قد انحطت بشتى هذه المفاهيم الاجتماعية وبكل عمل صلاح او جمال حتى انها جعلت من البشر متحدات وطبقات في قطيع كبير· وانما هي وهمانية من هب من الايديولوجيين ودبه هي التي تنبسط وتمتد وتفعل فعلها في تصنيف الناس، انتم بروليتاريون وانتم برجوازيون او انتم ارستقراطيون·

ويقينا انه لا بد من الاخذ بعين الاعتبار - في لعبة التحاليل - وجود طبقات في كل مجتمع بما في ذلك المجتمع الاشتراكي والشيوعي او القومي· ولأن بعض التأويلات الماركسية تقف عند المقولات الذهنية للطبقات ولا تعتبرها في الحين ذاته كوظائف طبيعية لجميع عضوي

ولكائن عضوي هو المجتمع، فان هذه التأويلات تفتقر الى الواقعية، او انها لا ترى الحقيقة الاجتماعية كما هي. ولا بد لمن يريد ان يكون واقعيا وموضوعيا من ان يتحرر من كل اتجاه طبقي... فتلك هي فرصة النجاح الوحيدة.

- من المعتقد في لبنان، كما في فرنسا، بأنكم توشكون وانتم لديكم ما لديكم من الاعداء ان تصبحوا وبصورة اكيدة تقريبا، هدفا لمحاولة اغتيال ؟

- هذا ممكن. وقد سبق لي ان نجوت من محاولتي اغتيال في عام ١٩٦٢ وبعدها بقليل. والان، اجدك محقا فيما تقول - اذ انه عاد الحديث عن هذا الموضوع.

- لكن اولم تتخذوا اية احتياطات ؟

- بعض احتياطات ولا بد. لكن ما يجب ان يصير لا بد صائر.

- بالضبط. افلن يرى البعض «الحل السلمي» في التصفية الجسدية لكل اخصام «الحل السلمي» في لبنان؟

- اما التصفية السياسية فيقين.. واما الجسدية فربما كذلك. افترانا سنشهد سلسلة اغتيالات؟ انه استنتاج يصبح مؤكدا اذا لم ينجح العمل السياسي في تركيع اصحاب الرفض. فيا لها من حكاية وسخة اليس كذلك ؟ لقد تسخرنا وضحي بآلاف اللبنانيين لكي تأتي وكالة المخابرات المركزية الاميركية (السي. اي. اي) واسرائيل وبعض الدول العربية الضالعة في هذه الجوقة الجنائزية وتقول لنا بكل بساطة: «حسنا، انتم اللبنانيون اخرجوا الان من اللعبة، فالمسألة الاساسية هي تسوية المشكلة الفلسطينية. وبوسعكم ان تظلوا على املكم في تحسين مؤسساتكم الديموقراطية وان تطالبوا بابطال بعض الامتيازات، والغاء بعض الطوائف... فهذا امر يمكن ان ينتظر!».